
تاريخ الأمة العربية
عصر الانبثاق
الدكتور محمد أسعد طلس

تاريخ الأمة العربية

عصر الانبثاق

٥

تأليف

محمد أسعد طلس

دكتوراه دولة في الآداب من الجامعة المصرية

ومن جامعة بوردو بدرجة مشرف جداً

منشورات

مكتبة الأندلس

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
بيروت : ١٩٥٧

الأهداء

الى الجيل العربي الصاعد من الشابات والشبان
الطامحين الى تزويد انفسهم بالعلم والخلق والحكمة والعرفان
المتفانين في رفع شأن امتهم وديارهم وازاحة الجهل والاقطاعية والاستعمار عن تربتها .
العاملين على توحيد كياناتهم المتفرقة في دنيا العرب الواحدة الخالدة
الذين يقرؤن هذا الكتاب فيعرفون ما كان لامتهم من مجد عظيم في كافة الحقول فيعملون على احيائه

اقدم هذا الكتاب

مع التقدير والاعجاب

محمد اسعد طلس

الجزء الاول

في

تاريخ عصر الانبثاق العربي

ويشتمل على تاريخ العرب قبل الاسلام

فاتحة القول

الحمد لله :

والصلاة والسلام على خير خلق الله :

والرحمة والرضوان على الصادقين في خدمة العلم والحكمة والدين .

والعاملين على احياء التراث العربي العظيم

والمجاهدين لرفع شأن الأمة العربية الخالدة المجاهدة في شتى بقاعها .

« اما بعد »

فهذا تاريخ كتبته للجيل العربي الصاعد ، المؤمن بقوميته : المتفاني في التنقيب عن مآثر امته ، حاضرت به طالباتي وطلابي في « كلية الملكة عالية ببغداد و « كلية الاداب والعلوم » فيها : وقد أحبت « مكتبة الأندلس » إذاعته في العالم العربي وتعميم فوائده .

وسيكون في اجزاء سبعة : تنتظم تاريخ الأمة العربية مما قبل الاسلام الى عصر النهضة وسيكون مقسماً الى اجزاء :

الاول : تاريخ عصر الانبثاق ويشتمل على تاريخ العرب قبل الاسلام

الثاني : « « الانطلاق « « « عصر النبي الكريم والخلفاء الراشدين

الثالث: « « الاتساق « « « « بني امية

الرابع : « « الازدهار « « « « « العباس الاول

الخامس : في تاريخ عصر الانحلال ويشتمل على تاريخ العصر الاخير

السادس : « « الاندحار « « « « « سقوط بغداد

السابع : عصر الانبعاث ويشتمل على تاريخ عصر النهضة العربية منذ حركة الحسين الاول

وارجو ان يوفق الله الى نشره : والافادة منه ، والاتعاظ بما فيه وهو سبحانه المحمود :

بيروت جمادي الآخره ١٣٧٦

كانون الثاني ١٩٥٧

محمد اسعد طلس

عصر الانبثاق

توطئـــة

•

انبثق سيل تاريخ الامة العربية في حوالي القرن الاربعين قبل الميلاد في دنيا العرب الممتدة ما بين جبال زاغروس . وطوروس . واليمن . وجبال الاطلس .

ويدخل في حدود هذه (الدنيا العربية (جميع البلاد المعروفة اليوم باسماء :

اليمن ، الحجاز ، نجد ، قطر . البحرين . الكويت . الشام ، العراق . مصر ، السودان . ليبيا ، تونس . الجزائر . مراكش .

وقد كان قلب هذه (الدنيا (هو بلاد نجد والحجاز وبادية الشام ، ومن هذا القلب كانت الموجات العربية تخرج ، وتفيق على ما حولها من الديار والاقاليم . واقدم هذه الموجات . الموجات الاحدى عشرة الآتية :

١ ــ موجات ما قبل التاريخ الحضري التي انساحت نحو وادي النيل . وما بين نهري دجلة والفرات ، وبلاد اليمن .

٢ ــ موجة القبائل الاكادية التي انساحت الى ما بين النهرين في اواسط الالف الرابع قبل الميلاد

٣ ــ موجة الكنعانيين التي انساحت الى بلاد الشام في اواسط الالف الثالث قبل الميلاد

٤ ــ موجة الاشوريين التي انساحت الى ما بين النهرين حوالي النصف الثاني من الالف الثالث قبل الميلاد

٥ ــ موجة الرعاة « الهكسوس » التي انساحت الى وادي النيل في اوائل الالف الثاني قبل الميلاد

٦ ــ : موجة الاراميين التي انساحت الى بلاد الشام في اواسط الالف الثاني قبل الميلاد

٧ ــ : موجة العبرانيين التي انساحت الى ارض فلسطين في النصف الثاني من الالف الثاني قبل الميلاد

٨ ــ : موجة اليمنيين التي انساحت الى شمالي الجزيرة العربية في فجر الالف الاول قبل الميلاد

٩ ــ : موجة الادوميين التي انساحت الى جنوبي الشام في اواسط الالف الاول قبل الميلاد

١٠ ــ : موجة اليمانيين من الغساسنة والمناذرة التي انساحت الى الشام والعراق في النصف الثاني من القرن الاول بعد الميلاد

١١ ــ : موجة المسلمين التي انساحت في اواسط الالف الاول بعد الميلاد الى الشام و العراق

وقد اختلف العلماء في البقعة الاولى التي خرجت منها هذه الموجات ، ولكن الاكثرين قالواعلى انها قلبالجريرة العربية، يقول الدكتور جواد علي: تصور العلماء الذينقالوا ان الجزيرة العربية هي مهد الجنس السامي ، بلاد العرب كخزان هائل يفيض في حقب متعاقبة تبلغ الواحدة منها زهاء الف عام ، بما يزيد عن طاقته من البشر الى الخارج ، يقذف بهم على صورة موجات قالوا لها (الموجات السامية) وقد علل القائلون بهذه النظرية الهجرات السامية من بلاد العرب سبب هذه الهجرات بعدم استطاعة شبه الجزيرة قبول عدد كبير من السكان يزيد على طاقتها ، فلا يبقى غير سلوك طريق الهجرات الى الاماكن الخصيبة في الشمال، وقد كانت الطرق الساحلية من اهم الطرق التي اوصلت المهاجرين الى اهدافهم .

رأي المتشرق الايطالي المشهور كيتاني ان الجفاف الذي حل ببلاد العرب فحول اكثر اراضيها الى صحاري جرد كان العامل الاول في هذه الهجرات ، رأى ان جو بلاد العرب قبل الفي سنة او ثلاثة آلاف او اكثر من ذلك ، لم يكن على الشكل الذي نلاحظه الان ، وان تغيرات وتطورات طبيعية طرأت على الجزيرة كان نتيجتها ظهور هذا الجفاف وهي تطورات استغرقت امداً طويلا وقد ايد هذا الرأي ودافع عنه السير توماس ارنولد ، ورأت المس الينور كردنر التي قامت بابحاث جيولوجيــة في حضر موت في عامي ١٩٣٧

١٩٣٨ م انه لم تحدث في الاقسام الجنوبية من شبه الجزيرة العربية تغيرات طبوغرافية وجيولوجيةوجوية كبيرة منذ زمن الباليوزوسي وينتهي حوالي ١٠,٠٠٠ قبل الميلاد حيث كان الجو مشبعاً بالرطوبة (١)

ولقد لفت الاستاذ كيتاني انظار العلماء الى هذه الظاهرة المهمة ، ظاهرة التغير الذي طرأ على جو بلاد العرب ، والجفاف الذي حل بها في اواخر الدورة الجليدية الاخيرة ، ففي الوقت الذي كان فيه معظم النواحي الاوربية وشمالي آسية تغطي ارضها الثلوج كانت جزيرة العرب ذات جو معتدل ، وامطار غزيرة ، واشجار وزروع ، وكانت هضبة ايران تغطيها الثلوج... ثم اخذ الجو يتغير في بلاد العرب ففقد الجو رطوبته وسار بصورة مستمرة وبطيئة نحو الجفاف منذ اكثر من اربعة عشر الف سنة فأثر ذلك بالطبع في حياة سكانها وفي حياة حيوانها ونباتها فانقرض مالم يتمكن من تكييف نفسه مع المحيط وظهرت الحاجة الى هجرات ... (٢)

وهذه الموجات او الهجرات التي اندفعت من قلب دنيا العرب الى البلاد المحيطة بها فأقامت حضارات عريقة واصيلة ، قد اثبت البحث العلمي الحديث انها كلها ترجع الى أرومة واحدة وعرق واحد ، هما الارومة العربية . والعرق العربي الممتازين بطابع واحد وسمة واحدة ، وملامح متشابهة . وافكار متماثلة . ولغات متقاربة . وانظمة وقوانين وتشريعات متساوية ، وعقليات دينية متناظرة

وقد اصطلح المتشرقون وعلى رأسهم العلامة الالماني اللغوي شلوتسر Schloser في بحث له نشره سنة ١٧٨١ م على تسمية الاقوام الذين قاموا بهذه الموجات بالساميين لا العرب وهي في رأينا تسمية خاطئة فانهم حين بحثوا في اصول اللغات العربية والعبرانية والارامية والسريانية والحبشية والفينيقية والاشورية والبابلية و.. ووجدوا الصلات القوية

---

(١) يقسم علماء الجيولوجيا تاريخ القشرة الأرضية للخليقة الى اربعة ازمنة Eras وهي : زمن الحياة القديمة أو الباليوزوسي (paloezaoic) وزمن الحياة الوسطى (Mesozoic) والزمن الثالث ، ثم الزمن الرابع وهو الاخير . ويقولون ان قبل هذه الازمنة كان زمن يسمونه زمن ما قبل الكمبري .

وكل زمن من هذه الازمنة الى عصور ، فعصور الزمن الاول او زمن الحياة القديمة هي ستة منها الكمبري والفحمة وعصور الزمن الثاني او زمن الحياة الوسطى هي ثلاثة : الزياسي والجواراسي والطباشيري ، وعصور الزمن الثالث هي اربعة : الايوسين والاوليجوسين ،والميوسين ، والبليوسين وعصور الزمن الرابع هما اثنان : الجليدي او البليوسين ، وما بعد الجليد .

وكل عصر من هذه العصور له تقسيمات تفصيلية اخرى فالعصر الطباشيري ينقسم الى عدة عهود منها السينوني والسنيوماني ، والطباشيري الاولي ، والطباشيري الادنى وغير ذلك وقد استعان الجيولوجيون على تصنيف هذه العصور والازمنة والعهود بطبيعة الصخور الموجودة ، والحفريات الموجودة وبعلم ا... : لجيولوجي المسمى paleontologie

(٢) راجع كتاب العرب قبل الاسلام ١ – ١٥٨ .

بينهما وقد نسبو الى (سام بن نوح) لان التوراة ذكرت في سفر التكوين(١) ان هذه الامم كلها سامية وانها من نسله، وهذا خطأ لا يعتمد على واقعة تاريخية او علمية وانما هو مبنى – على فرض صحة هذا النسب الذي هو موضع شك كبير – على الظن ، وان الظن لا يغني من الحق شيئاً . ثم اننا لو جاز لنا ان نقبل ذلك من حيث الاصطلاحات اللغوية وانهم انما سموها سامية من قبيل الاصطلاح ، فلا علاقة اصلا بين الامور العرقية الاتنولوجية وبين هذه التسمية .

ولا يصح في رأينا اذن أن نطلق كلمة (سامي) او (حامي) أو (آري) ونحن نريد بها عرقاً بعينه لانها اصطلاح لغوي بحت ، وانما يجب ان نقول ان هؤلاء الجماعات من البشر قد تحدروا من أصل واحد ، سكن بقعة واحدة ، هي ، في اصح الاقوال ، قلب جزيرة العرب ، وان اللغة التي يتكلم بها سكان تلك البقعة هي اللغة الأم . وان اللغة العربية الفصيحة هي أقرب اللغات الى تلك اللغة الام . وقد قال بهذا القول جماعة من أئمة المستشرقين وعلى رأسهم العلماء سبرنجر . وشريد . وونكلر الالمانيون . وروبرت سميث الانكليزي . وغويدي الايطالي . ولهم على ذلك ادلة عديدة وجيهة . بعضها لغوي وبعضها اجتماعي وأخلاقي (٢) .

فالتقسيم الذي قال به شلوتسر واتبعه الناس من بعده لا يعتمد على حقيقة تاريخية ثابتة . لانه عد من بين الشعوب السامية جماعة لا يعتبرها العلماء الثقات من الساميين وهم العيلاميون ، واللوديون ، كما انه ابعد جماعات كان يجب ان يدخلهم في الساميين وهم الفينيقيون والكنعانيون

وعلى هذا فالتقسيم المذكور في التوراة تقسيم (مصنوع) حتى قال بعض العلماء الالمان وهو المستشرق المرحوم بروكلمان : ان واضعي التوراة العبرانيين قد تعمدوا اقصاء الكنعانيين والفينيقيين عن سلسلة النسب السامي لاسباب دينية وسياسية ، مع علمهم الأكيد بأنهم على اتصال واشج بهم (٣) ، فهذا يدلك على سوء طوية علماء اليهود منذ الازل وعلى انهم قوم لا يرعون حق قرابة أو علم او دين وان الكذب والتلفيق من طبائعهم . وان ما يتجدد اليوم في فلسطين العربية الذبيحة من المآسي المادية . واغتصاب الاراضي . وافساد الحرث والنسل . والتعدي على الحريات وهتك المقدسات . هو أمر متوارث في اصحاب التوراة منذ اقدم عصورهم الى الآن .

(١) راجع كتاب سفر التكوين الاصحاح العاشر ١ – ٢١ ، وقاموس الكتاب المقدس ١ – ٥٣١ .

(٢) راجع كتاب العرب قبل الاسلام لزيدان ١ – ٣٣ – ٣٥ ، وتاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي ١ – ١٤٨ وكتاب : Sprenger (Die Alte Geographie arabiens , Bern

(٣) راجع كتاب : Brockelmann , Sprachwissenschaft p. 15

جغرافية دنيا العرب

وتقسيماتها الطبيعية والسياسية

●

الجغرافية الطبيعية

توطئة : ان دنيا العرب هي بلاد شاسعة ممتدة على مساحة ٥٠٠٠ كيلومتر مربع من الغرب الى الشرق . من جنوبي غربي قارة آسية الى شمالي قارة افريقية . ومساحتها نحو تسع ملايين كيلومتر مربع . يحدها من الشمال سلسلتا جبال زاغروس (البختياري) ، وجبال طوروس . ومن الشرق خط ممتد من جنوبي سلسلة جبال زاغروس حتى بلاد الاهواز وخليج البصرة وساحل شبه الجزيرة العربية من كاظمة الى جنوبي مسقط ؛ ومن الجنوب بلاد مسقط الى خليج عدن ومنابع النيل ؛ ومن الغرب المحيط الاطلسي . ويمكننا ان نقول على وجه الاجمال ان بلاد العرب تقع ما بين بلاد ايران والمحيط الاطلسي .

وتنقسم دنيا العرب الى عدة اقسام فالقسم الغربي من الجزيرة العربية وهو القسم المنحدر من سفح سلسلة جبال السراة الواقعة في قلب ديار العرب الى شاطئ البحر الاحمر يسمى (الغور او تهامة) ؛ والقسم الشرقي الممتد شرقي سلسلة السراة حتى بادية السماوة في العراق يسمى (نجداً) ، والقسم الفاصل بين الاثنين يسمى (الحجاز) وهو جبال وهضاب تتخللها مدن تفصل بين تهامة وبين نجد ، والقسم الذي يقع جنوبي الحجاز ونجد يسمى (اليمن ، وحضر موت ، والشحر) والقسم الواقع من حدود نجد الى خليج البصرة يسمى (العروض) والقسم الواقع شمالي الحجاز يسمى (الشام) والقسم الواقع شمالي العروض وبادية الشام

يسمى (العراق) والقسم الواقع جنوبي الشام يسمى (مصر) وعلى امتداده بلاد (ليبيا ، والجزائر ، وتونس ، ومراكش) في شمالي القارة الافريقية .

وموطن ديار العرب الاول هو شبه الجزيرة العربية ، وقد يطلق عليها اسم الجزيرة العربية ، وهي عبارة عن تشكل جيولوجي تبلغ مساحته نحواً من مليون ميل مربع وقد كان المحيط الهندي ، والخليج البصري يفصلان الجزيرة عن الهند وفارس منذ العصر الجوراسي و في الزمن الثالث للخليقة انفصلت بلاد العرب عن شمالي افريقية بظهور البحر الاحمر وارتفاع سلسلة السراة العربية التي تبلغ ارتفاع اعلى قممها (١٢,٣٠٠) قدم ، وأمامها سهول تهامة الممتدة بنحو ثلاثين ميلا ، وتمتاز هذه السلسلة ببراكين عنيفة ، وحرات كثيرة ، ومن هذه السلسلة يتفرع جبلا (شمر وطي)المعروفين باسم أجأ وسلمى وهذان الجبلان يخترقان بادية الشام حتى اهوار دجلة والفرات في العراق . كما يخترقان صحراء النفوذ ونجاد سورية وفلسطين من ارض الشام .

وفي ديار العرب عدة حرار وصحار وجبال وبحيرات ، ويحيط بها بحار عديدة وبجري فيها انهار كثيرة ، وفيما يلي نجمل بعض ما يكشف لنا عن طبيعة تلك الارض

الحرار : الحرة هي ارض بركانية تتكون من حمم البراكين واللابات التي تقذفها تلك البراكين ، وتكثر الحرارة في غربي شبه الجزيرة العربية ووسطها وجنوبها وكثيراً ما تكون الى جانب ذلك الحرار ينابيع مياه معدنية وبخاصة في منطقة الاحساء ، وقد تكون ارض بعض الحرار خصبة ، كما هي الحال في حرار المدينة المنورة ، ومن اخصبها (حرة خيبر) الكثيرة القرى والمزارع و (حرة سلم) الطيبة التربة ، المشهورة الفاكهة ، و(حرة الرفاع) الواقعة على ساحل البحر الاحمر شمالاً عند الينبع .

الصحراوات : صحراوات ديار العرب كثيرة اجلها ثلاث : (صحراء الدهناء) وهي صحراء عظيمة حمراء الرمال تمتد من النفود الى حضر موت واليمن وعمان ، وفيها تلال رملية متنقلة تسير مع الرياح ، وقد تصل اليها الامطار الموسمية فتنبت بعض العشب ، وفي جنوبها مفازة صيهد المعروفة اليوم باسم (الربع الخالي) ، وفي غربها (الاحقاف) التي ذكرت في القرآن الكريم عند قوله تعالى « واذكر اخا عاد اذ انذر قومه بالاحقاف (١) ويقول السائح الانكليزي برترام توماس الذي تمكن من اجتياز الدهناء في شباط سنة ١٩٣١ م : انه من المحتمل جداً ان تكون الدهناء في عهد ما من المناطق البحرية التي كانت

---

(١) سورة الاحقاف : آية ٢١.

تغمرها مياه المحيط كما عثر فيها على بحيرة من المياه الملحة ، وبقايا حيوانات بحرية مبعثرة وتبين لدى العلماء الاخصائيين ان هذه البحيرة كانت من متفرعات الخليج البصري ، ومما عثر عليه أيضاً آثار قديمةترجع الىعهودسحيقة القدم تدلعلى انهذه الصحراء كانت في زمن ما موضع حضارة جد عريقة (١) .

ولا ريب في انه لو اتيحت لتلك الصحراء دراسات علمية، جيولوجية وآثارية لانكشف لنا ما لا يزال مجهولا في تاريخ ارض العرب . وفي الدهناء ارض (وبار) وكانت في القديم دياراً خصبة ذات مياه وعيون واشجار ، وما تزال اطلال ابنيتها الضخمة موجودة تدل على وجود حضارة عريقة في تلك المنطقة قبل الاسلام (٢) والى شمالي شرقي وبار (رمال يبرين) التي كانت من المواطن المعمورة في تلك الديار ثم خربت (٣) .

و (صحراء النفود)وهي صحراء واسعة ممتدة من واحة تيماء الى واحة الجوف وتشرف عليها صحراء الحماد ، وهي كثيرة الامطار تتحول في الربيع الى جنة متلونة الازهار والشجيرات ولكن فصل الربيع فيها لا يطول الا بضعة اسابيع ، ثم يقدم الصيف في شهر نيسان فتهب فيه الرياح الشرقية والجنوبية اللافحة .

و (صحراء الشام) وهي التي تفصل بين العراق والشام ويقال للقسم الواقع بين الكوفة والسماوة وبين الشام (بادية السماوة) او (بادية الحماد) وهي صحراء كثيرة الامطار كصحراء النفود تتحول مع الربيع الى ارض معشبة مزهرة ، فيها بعض الواحات وغابات الغضى .

واكثر هذه الصحروات مقفر موحش خال ما عدا بعض الاودية والبقاع والواحات فان تربتها خصبة تصبح بعد الامطار من افضل بقاع المرعى ، وليست تربة هذه الصحاري متجانسة ففيها بقاع لا ترى فيها الا الرمال التي تكاد تبتلع القوافل ، وفيها هضبات خصبة طيبة الارض ، معشبة ، وفيها واحات كثيرة الشجر وبخاصة التمر .

هذه هي اهم الصحاري في ديار العرب ، وهناك صحراوات اخرى كصحراء مصر ،

---

(١) كتاب برترام ؛ Arabia Felix ص ١٨٠ وراجع ايضاً Encyc . Brit . II ,173 وتاريخ الشعوب لبروكلمان تعريب فارس وبعلبكي ١ - ١١ .

(٢) راجع معجم البلدان لياقوت ٨ ، ٣٩٢ .

(٣) راجع معجم البلدان لياقوت ٦ ، ٩٩ .

وصحراء السودان ، وصحراء العراق ، ولكنها جميعها صحراوات لا تذكر بالنسبة الى الصحراوات الثلاث السابقة ، وفيها بعض الواحات والاودية ، والشجيرات

والصحراوات العربية جميعاً ذات رمال تكونت اما عن الحجارة البركانية المتفتتة بسبب تأثير الرياح ، وشدة الجفاف ، ولون رمل هذه المناطق ادكن او اغبر ، واما عن الحجارة الصخرية الحمراء ولون رمالها احمر ، وهذه الصحراوات كثيرة الرياح وكثيراً ما تهب فتثير العواصف القوية ، وربما بلغت سرعتها ٣٥ كيلومتراً في الساعة فتضيق الدنيا بالبدوي ولا يجد لنفسه ملجأ الا خيمته ، وتهب هذه العواصف طوال ثلاثة اشهر مبدؤها شهر آذار ، وقد تدوم الهبة يوماً او يومين او ثلاثة .

الجبال : في ديار العرب عدة من السلاسل الجبلية العالية ومبدأ هذه السلاسل هو جبال السراة اعظم جبال الجزيرة العربية وهي عبارة عن عدة جبال تبدأ من اليمن وتمتد شمالا الى اطراف بادية الشام ثم تتصل بسلسلة جبال الشام ، وفي جبال السراة قمم عالية كقمة جبل دباغ البالغة علواً ٢٢٠٠٠ قدم ، وقمة الجبل الاخضر البالغة ١٠,٠٠٠ قدم وحين تصل هذه السلسلة الى نجد تتسطح حتى تصبح هضبة ارتفاعها ٢٥٠٠ قدم وهي من حجر الغرانيت وفيها الجبلان المشهوران (أجأ) و (سلمى) .

ومن سلاسل الجبال العربية سلاسل العراق الواقعة في شماله وهي امتداد السلسلة جبال زاغروس الايرانية الممتدة من ايران الى كردستان فتركيا ، وتقع هذه الجبال العراقية في مناطق السليمانية والعمادية ومنها سلاسل جبال الشام وتسير في اراضي فلسطين حتى تدخل اراضي لبنان ، فتنقسم الى قسمين يعرفان بجبال لبنان الشرقية الواقعة في داخل سورية ، وجبال لبنان الغربية الساحلية الواقعة الى ساحل البحر الأبيض المتوسط ويسير هذان القسمان حتى يتصلا بجبال طوروس .

ومنها سلاسل افريقية الشمالية واعظمها سلسلة جبال الاطلس وهي منقسمة الى قسمين متوازيين متجهين من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي فتخترقان بلاد مراكش فتونس فالجزائر ، وتتصلان بجبال ليبيا وصحرائها واشهر هذه السلسلة جبل عياش في

مراكش ، وجبال الاهراس وآمور في الجزائر . وتمتد سلسلة جبال الاطلس من سواحل تونس الى اغادير ، وهي ثلاثة اقسام اولها : يسمى الاطلس الاصغر وهو أوطأ تلك السلسلة واقربها الى البحر الابيض المتوسط وثانيها : يسمى الاطلس المتوسط وهو هضبة عريضة وثالثها : الاطلس الاكبر وهوسلسلة وعرة قائمة فوق الاطلس المتوسط ،ويبلغ ارتفاع كثير من جهاتها نحو ثلاثة عشر الف قدم . واما سلسلة الاطلس المتوسط فيبلغ ارتفاع اعلى جزء منها نحو اربعة الآف قدم .

البحيرات : في البلاد العربية عدد من البحيرات الكبيرة والصغيرة اكبرها بحيرة لوط او البحر الميت ، وبحيرة الحولة وطبرية ، وبحيرة انطاكية ، وبحيرة اقامية في بلاد الشام . وبحيرتا ملرير وتريتون في صحراء تونس والجزائر .

البحار : البحار العربية ثلاثة هي البحر الاحمر ، والبحر الابيض المتوسط ، والبحر العربي ، فالبحر الاحمر : يقع بين اليمن وجبال السراة والحجاز وجنوبي الشام شرقاً ، وبين مصر والسودان غرباً فاذا طاف المرء فيه بدأ بميناء مدينة السويس الواقعة على المدخل الجنوبي للقنال الذي يصل البحر الاحمر بالبحر الابيض ثم يسير جنوباً في خليج السويس ويشرف على التلال في جانبيه ، ثم يمر بمدينة الطور على الضفة اليسرى ، ويرى قمم جبال طورسينا ، ثم يمر بجبل الزيت في الاراضي المصرية . ثم يسير الى خليج السويس في الاراضي المصرية ثم يمر بالقصير فبور السودان فسواكن حتى يصل الارتريه عند مدينة المصوع ثم يأتي في النهاية الى مضيق باب المندب على الخليج حتى يعود الى مدينة السويس .

ويبلغ طول هذا البحر ١٩٣٢ كيلو متراً وهو بعيد الغور جداً ولا تصب فيه انهار ومياهه ملحة جداً ، وتكثر شعوب المرجان في جوانبه .

والبحر الابيض المتوسط : هو البحر الاعظم الذي يصل دنيا العرب ببعضها من بلاد الشام الى مراكش ويبدأ عند الساحل المراكشي بمضيق جبل طارق مفتاح البحر الابيض المتوسط ثم يمر بمدينة سبقة فمليله في مراكش ثم يسيرحتى ساحل الجزائر ويشرف على الجزء المحصور بين الساحل وبين جبال الاطلس وهو المسمى بالتل ، واعظم مدنه في هذا الجزء مدينتا الجزائر ووهران ، ثم يسير الى الساحل التونسي الشمالي ويمر بالرأس

الابيض الواقع في اقصى شمال افريقية حتى يصل الى مدينة بنزرت فسوسة فصقاقس فقابس ، ثم يأتي طرابلس الغرب وبني غازى ودرنة في ليبيا ، ثم يأتي السواحل المصرية يبدأ بمدينة السلوم وينتهي بالاسكندرية ثم يأتي الساحل الشامي حتى يصل الى خليج الاسكندرونة .

والبحر العربي : وهو المسمى ايضاً ببحر عمان وهو البحر المحصور بين بلاد الهند وايران شرقاً ، وبين الحبشة والصومال غرباً .

الانهار والاودية : ليس في الجزيرة العربية انهار ضخمة دائمة الجريان ، وانما فيها بعض الاودية القصيرة الجريان ، السريعة المشي ، المنحدرة بقوة ، وهي في الاغلب ضحلة القاع ، تجف في مواسم الصيف ، ويظهر انه قد كان فيها انهار ضخمة ، فقد ذكر الرحالة الانكليزي برترام توماس انه عثر على ترسبات رملية تدل على وجود انهار قوية قديماً (١) وقد ذكر هيرودوتس وبطليموس انه كان في بلاد العرب نهران عظيمان احدهما يسمى كورسر ، وهو نهر طويل يصب في بحر الارتيريه الى البحر الاحمر والثاني نهر يسمى (لار) ويصب في الخليج البصري (٢)

وفي الجزيرة العربية اليوم عدد من الاودية التي تسيل منها المياه في بعض فصول السنة واكبرها — وادي الرمة — عند جزيرة جبر ، ويصب في شط العرب ، و — وادي الحمض — الذي كان يسمى وادي إضم وهو جنوبي خيبر ، و — وادي حنيفة — الذي يصب في خليج البصرة .

وهناك وديان جارية تتجه نحو البحر الاحمر وهي ذات مجرى عميق ، ولكنها معدومة النفع ، بل هي عقبة في سبيل القوافل الذاهبة من الشمال الى الجنوب ، وليس حولها واحات .

اما العراق والشام ومصر وشمالي افريقية ففيها الانهار الكبيرة الآتية :

الفرات : وينبع من مكانين احدهما في متوسط بلاد الارمن قرب جبل ارارات ، وثانيهما قرب جبال ارخروم ويسير نحو الغرب ثم ينحدر سريعاً فيقطع جبال طوروس وسهول وادي الرافدين حتى يصب في شط العرب عند القرنة .

الدجلة : وينبع من جبال اراضي الارمن غربي بحيرة وان ويجري في مبدئه بسرعة

---

(١) راجع كتابه The Arabs ص ٣٥٠ .

(٢) راجع كتاب هيو ودرتس النص الانكليزي ١ — ٢١٤ ، وكتاب Moritz موريس Arabien Studien zur Physikalischen und Histo. Geog. des Landes p.s . 21

ولاسيا بعد أن يصب فيه نهر الزاب ، ثم يبطئ سيره في سهول وادي الرافدين حتى يصب عند القرنة من شط الفرات مع الفرات

النيل : هو اطول انهار العرب وافريقية ، وثاني انهار الدنيا طولا اذ يبلغ طوله ٦٤٤٠ كيلو متراً، ينبع من افريقية الشرقية عند نهر كاجيرا ، ثم يمر ببحيرة فيكتوريا ، ثم يخترق بحيرة البرت ويسمى ثمة بحر الجبل،ثم يتصل ببحر الغزال ، ثم يتصل ببحر الزراق حيث يسمى بالنيل الأبيض ، ثم يسير شمالا حتى يصل الى الخرطوم عاصمة السودان العربي، فيلتقي هناك بالنيل الازرق ثم يتصل بنهر عطبرة ويسير في الصحراء حتى يدخل ارض مصر ويتفرع الى فرعين عند دمياط ورشيد حيث يصب في البحر الابيض المتوسط .

العاصي : هو اجل انهار سورية الشمالية، ينبع من مغارة الراهب وغيرها شمالي مدينة بعلبك اللبنانية ثم يسير بهدوء حتى يقرب من مدينة حمص عند المياس ، ثم يسير شمالا حتى يدخل مدينة حماة فانطاكية حتى يصب في البحر الابيض المتوسط عند مدينة السويدية .

الشريعة : او الاردن، هو اجل انهار سورية الجنوبية وينبع من عدة ينابيع عند حاصبيا وبانياس ثم يسير الى الحولة فيغذي بحيرتها ثم يمر بطبرية حتى يصب بالبحر الميت . ومن روافده نهر اليرموك والزرقاء .

مساحة دنيا العرب وعدد سكانها :

تنقسم دنيا العرب الى اقاليم عديدة موزعة بين قارتي آسية وافريقية، وليست هنالك معلومات مقطوع بصحتها عن عدد سكانها في القديم وانما هي تخمينات لا تجدي فتيلا ، ولذلك سنعتمد على الاحصاء الحديث ، ويغلب على الظن ان السكان في القديم كانوا قرابة السكان اليوم او اقل بقليل .

وفيما يلي جدول احصائي يبين مساحات دنيا العرب بالكيلومترات المربعة وقد اعتمدنا في كتابته على اصح البحوث العلمية الحديثة وادقها ، كما اعتمدنا فيه على التقسيم الجغرافي السياسي للممالك والدول العربية وتقسيماتها السياسية المصطلح عليها اليوم ، وآمالنا كبيرة بعد هذه الانتفاضة العربية الكريمة في ان تزول هذه الممالك والحدود المصطنعة ويصبح العالم العربي كله دولة واحدة موحدة من اقصى حدود الشرق الى اقصى حدود الغرب :

المساحـــة

اسم القطر		مساحته بالكيلومترات المربعة
مملكة اليمن	:	١٩٥,٠٠٠
مستعمرة عدن	:	٢٠٧
امارة عُمان	:	٢١٣,٤٠٠
امارة قطر والساحل المعاهد	:	٢٢,٠١٤ — ١٥,٠٠٠
امارة الكويت	:	٢٠,٧١٩
امارة البحرين	:	٥٩٨
المملكة العربية السعودية	:	١,٦٠٠,٠٠٠
بلادالشام اوسورية: الجمهوريةالسورية	:	١٨٤,٤٧٩
بلادالشام اوسورية: الجمهوريةاللبنانية	:	١٠,٤٠٠
بلادالشام اوسورية: المملكة الاردنية	:	٩٦,٥١٣
بلادالشام اوسورية: فلسطين المحتلة	:	٢١,٠٠٠
قطاع غزة	:	٦٠٠
المملكة العراقية	:	٤٤٤,٤٤٢
الجمهورية المصرية	:	١,٠٠٠,٠٠٠
الجمهورية السودانية	:	٢,٥٠٥,٧٠٠
المملكة الليبية المتحدة	:	١,٧٥٩,٥٤٠
المملكة التونسية	:	١٥٥,٨٣٠
القطر الجزائري	:	٢,١٩١,٤٦٤
المملكة المراكشية	:	٤٤٦,٢١٨
		١١,٨٨,٨٩٢ كيلو متراً مربعاً

السكان

ان سكان دنيا العرب اليوم هم ٨٢ مليون نسمة ، ثلثهم في آسية ، والباقي في افريقية وارض افريقية هي الارض العربية الرئيسة من حيث الامتداد ، ومن حيث عدد السكان، واكبر دولة من حيث الاتساع هي السودان ، ومن حيث السكان مصر ، واليك الجدول التفصيلي لسكان كل قطر من اقطار دنيا العرب :

مملكة اليمن		:	٤,٥٠٠,٠٠٠
			١٣٠,٠٠٠
مستعمرة عدن		:	٨٠٠,٠٠٠
امارة عمان		:	٥٥٠,٠٠٠
إمارة قطر والساحل المعاهد		:	٨٠,٠٠٠
			٢٠,٠٠٠
امارة الكويت		:	٢٥,٠٠٠
امارة البحرين		:	١١٢,٠٠٠
المملكة العربية السعودية		:	٧,٠٠٠,٠٠٠
بلادالشام او سوريا	سوريا	:	٣,٧٥٥,٠٠٠
	لبنان	:	١,٣٣٠,٠٠٠
	الاردن	:	١,٣٢٠,٠٠٠
	فلسطين المحتلة	:	١٨٦,٠٠٠
	قطاع غزة	:	٢٩١,٠٠٠
المملكة العراقية		:	٥,١٠٠,٠٠٠
الجمهورية المصرية		:	٢١,٩٤١,٠٠٠
الجمهورية السودانية		:	١٨,٧٦٦,٠٠٠
المملكة الليبية المتحدة		:	١,١٥٠,٠٠٠
المملكة التونسية		:	٣,٦٠٠,٠٠٠
القطر الجزائري		:	٩,٢٥١,٠٠٠
المملكة المراكشية		:	١٠,٣٣٨,٠٠٠
المجموع		:	٨٢,١٧١,٠٠٠

تقسياتها الجغرافيـــة :

تنقسم دنيا العرب الى اربعة عشر قطراً هي : اليمن،والحجاز ، ونجد ، وقطر ، والبحرين ، والكويت ، والشام ، والعراق ، ومصر ، والسودان ، وليبيا ، وتونس ، والجزائر ، ومراكش :

١) : اليمن وكان يسميها مؤلفو اليونانين والرومان القدماء ببلاد العربية السعيدةوتسمى اليوم المملكة اليمنية المتوكلة ، وقد اختلفت حدودها سعة وضيقاً على اختلاف العصور ، ففي النقش الحجري الذي عثر عليه والذي يرجع الى عهد الملك شمر يرعش في القرن الثالث للميلاد نجدهم يلقبونه بـ — ملك سبأ وذو ريدان وحضر موت ويمنات — فهذا يدل على ان (اليمن) او (اليمنات) هي جزء صغير يقع جنوبي الجزيرة العربية بمثابة حضر موت وذي ريدان ، وكذلك ابرهة الحبشي نائب النجاشي حينما استولى على اليمن في سنة ٢٥٤٣ لقب نفسه (ملك سبأ وذو ريدان وحضر موت ويمنات واعرابها) . فهذان النصان يدلان على انهم كانوا لا يقصدون بلفظ — يمنات — الا جزء مما اصطلح عليه العرب مما بعد الاسلام الى ايامنا هذه .

وجغرافيو اليونان القدماء يقصدون باليمن كل بلاد العرب الخصبة الغنية ومن هذا سموها العربية السعيدة او المباركة « Arabia Felix » وهم يقصدون انها سعيدة او مباركة بخيراتها ، وكانوا يحدودنها بخليج البصرة من الشرق ، وبحر العرب من الجنوب والبحر الاحمر من الغرب ، وبادية الشام من العربية الحجرية — بلاد الحجر — « Arabia Petrae » من الشمال ، فيدخل في هذا التحديد، اليمن وحضر موت والشحر وعمان ، والعروض والحجاز ، وتهامة ونجد (١)

وقد اختلف الجغرافيون العرب في تحديدها فالاصمعي يقول : اليمن وما اشتمل عليه حدودها هو ما بين عمان الى نجران ، ثم يلتوي على بحر العرب الى عدن والى الشحر حتى يجتاز عمان ، والهمداني يقول : سميت اليمن الخضراء لكثرة اشجارها واثمارها وزرعها والبحر مطيف بها من الشرق الى الجنوب فراجعاً الى المغرب ، يفصل بينها وبين باقي الجزيرة خط يأخذ من حدود عمان ويبرين الى اليمن واليمامة . (٢)

اما الجغرافيون الاورويبون المحدثون فقد ذهبوا مذهب الجغرافين العرب الا انهم

---

(١) راجع تاريخ العرب قبل الاسلام لزيدان ص ١٠٣ .
(٢) راجع معجم البلدان لياقوت ٥ — ٨١ ، ٨ — ٥٢٢ .

ضيقوا حدودها بعض التضييق ، فيقول غوستاف لوبون : بلاد اليمن هي جنوب بلاد الحجاز ، تتألف من الزاوية الجنوبية الغربية من جزيرة العرب ، وهي اغنى بلاد العرب ومنها بلاد حضر موت ومهرة وعمان والاحساء وهي تمتد من خليج عدن الى اقصى الخليج الفارسي (خليج البصرة)(١)

وفي عهد الدولة العثمانية التركية كان اليمن احدى ولايات شبه الجزيرة العربية ويحده من الشمال الحجاز ، ومن الجنوب خليج عدن ، ومستعمرة عدن الانكليزية ، ومن الغرب البحر الاحمر ومن الشرق صحراء الاحقاف ، ومساحته ٧٧,٢٠٠ ميل مربع ، وعدد سكانه نحواًمن مليونين ونصف تقريباً،وينقسم الى اربع متصرفيات،وثلاثة وعشرين قضاء واثنتين وستين ناحية وعاصمته مدينة صنعاء .

ويظهر من هذه الاختلافات في تحديد اليمن انها لم تثبت على حدود بعينها ، وانما كانت تطلق على الجزء الخصب الجنوبي من بلاد الجزيرة العربية ، وان الفرس لما احتلوها قبل الاسلام كانوا يدخلون في حدودها بلاد حضر موت والاحساء وعمان ، فلما ظهر الاسلام واستولى عليها المسلمون قسموها الى ثلاثة اقسام كبيرة جعلوا في كل قسم اميراً وهي (الجند ومخاليفها) و (صنعاء ومخاليفها) و (حضر موت ومخاليفها) (٢) ، ثم جاء عهد الاتراك العثمانيين وقسموها تقسيماً جديداً على الشكل الذي رأيت .

وهي بلاد زراعية خصبة جداً كثيرة المياه والزرع ، تتخللها سلسلة جبال السراة من الشمال الى الجنوب حتى البحر ، ويتخللها كثير من الاودية والهضاب ، كما تقع فيها صحراء الغائط الممتدة ما بين مأرب وحضر موت .

وقد قسم الجغرافيون العرب القدماء اليمن الى اربع وثمانين مخلافاً وهو متر له الرستاق او الكورة او القضاء تسكنه قبيلة بعينها ،وقد عدد ياقوت الحموي ، واليعقوبي والهمداني من هذه المخاليف اكثرها. (٣)

وهم يقسمون المخلاف الى مدن ومحافد وقرى ، واشهر مخاليف اليمن :

مخلاف شبوة ، مخلاف مأرب ، مخلاف المعاقر والسحول ، مخلاف ذي رعين ، ومخلاف جيشان اما اليوم فاليمن مقسم الى ستة الوية وهي :

لواء صعدة ، ولواء الحجة ، ولواء صنعاء ، ولواء إب ، ولواء تعز ، ولواء الحديده.

---

(١) راجع كتاب لوبون « حضارة العرب » ترجمة عادل زعيتر ص ٦٥ ، ٧٢ .

(٢) « « معجم البلدان لياقوت ٣-١٤٧ ، ٨ - ٥٢٣ .

(٣) « « اليعقوبي ١-٢٢٧ ومعجم البلدان ٧-٤٠٢ ، وصفة جزيرة العرب للهمداني .

اما عدن فهي اليوم محمية انكليزية ويعمل العرب على انقاذها من براثن الاستعمار وارجاعها الى امها اليمن .

وفي اليمن السعيدة مدن جليلة قديماً اشهرها :

صنعاء : هي احسن بلاده ويشبهونها بدمشق لكثرة فواكهها وتدفق مياهها وكان بها قصر غمدان العظيم ، وبها بنى ابرهة الحبش – القليس – يضاهي به الكعبة المكرمة ، واجبر الناس على الحج اليه وبناه بناء عجيباً متقناً ، ولكنه لم يستطع ان يصرف الناس عن عن زيارة مكة والتبرك بالكعبة (١) .

مأرب : كانت عاصمة السبأيين وهي بين صنعاء وشبوة وبينها وبين صنعاء نحو أربعة ايام والى جانبها السد العظيم المعروف بها ، قال ياقوت : هي قرية ليس بها عامر الا ثلاث قرى يقال لها الدروب .

نجران : مدينة كبيرة في شمالي اليمن على طريق مكة اعتنق اهلها المسيحية منذ زمن مبكر جداً ، وكان فيها بيعة عظيمة عرفت بكعبة نجران (٢) وهي من امهات مدنهم في تاريخها وصناعتها وآثارها .

عدن : هي مدينة كبيرة عريقة تقع على ساحل البحر العربي ، وهي من اقدم المراكز التجارية في الجزيرة العربية قال ياقوت ، هي مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند – البحر العربي – رديئة لا ماء بها ولا مرعى ، وشربها من عين بينها وبين عدن مسيرة نحو يوم .. الا ان هذا الموضع هو مرفأ مراكب الهند والتجار يجتمعون اليه لاجل ذلك فانها بلد تجارة (٣) .

الجَنَدَ : هي في ارض السكاسك بينها وبين صنعاء نحو ستين فرسخاً ، والجند اعظم مخاليف اليمن في الاسلام ، وفيها مسجد عظيم بناه معاذ بن جبل وله عندهم مكانة جليلة جداً .

ذمار : هي مدينة جامعة بها زروع وآبار قريبة الماء ينال باليد يسكنها بطون من حمير والابناء ، وهي مخلاف كثير الخيرات ، عتيق الخيل ، كثير الاعناب والمزارع ، فيه من القصور القديمة قصر يبنون ، وقصر هكر (٤).

---

(١) انظر معجم البلدان ٧ – ١٥٥ .

(٢) » » » ٧ – ٧–٣٥٤ ، ٨–٢٥٨ .

(٣) » » » ٦ – ١٢٦ وحضارة العرب تعريب زعيتر ص ٧٤ .

(٤) معجم البلدان ٧ – ٤٠٤ .

همدان : هي ما بين الغائط وتهامة والسراة في شمالي صنعاء ما بينها وبين صعدة من بلاد خولان ،ومخلافها قسمان شرقي تسكنه بنو بكيل ، وغربي تسكنه بنو حاشد (١) .

تريم وشبام : هما المدينتان اللتان تكونان مدينة حضر موت ، قال ياقوت : تريم احدى مدينتي حضر موت لان حضر موت اسم للناحية بجملتها ،ومدينتها شبام وتريم وهما قبيلتان سميت المدينة باسمها وهما مدينتان كثيرتا الخيرات والمياه ، وفيها قصور ومساجد ومنائر طوال (٢) وتريم ايضاً حصن على طريق جزان ــ صعدة .

ظفار : مدينة على ساحل البحر العربي قرب صنعاء وبها كانت مساكن ملوك حمير (٣) وقد كان يلحق باليمن اقليم عدن وحضر موت ومهرة وعمان. واصل مدن اليمن اليوم هي :

صنعاء : وهي العاصمة وتقع على سفح جبل قضم وهي اكبر مدن اليمن واغناها لكثرة مياهها وخيراتها ،وهي مشهورة بتجارة البن يبلغ عدد سكانها ٥٠ الف نسمة وتقع في وسط البلاد واليها تأتي خيرات اليمن جميعاً كالصمغ والشعير والنيلة والكرمة ومنها تصدر. وهي غنية باثارها ومساجدها وقصورها .

الحُديدة : وهي اكبر ميناء يمني على الساحل الغربي في البحر الاحمر بعد اضمحلال ــ مخا ــ واليها يقصد حجاج اواسط افريقية من المسلمين الذين يقصدون مكة ويبلغ سكانها نحو من خمسين الف نسمة .

تعزّ : هي مدينة اثرية يقال ان فيها المغارة التي آوى اليها اهل الكهف ويبلغ سكانها نحواً من عشرين الف نسمة ، وهي العاصمة الثانية لليمن اليوم وتقع على رابية هي من اكبر مدن السفوح الغربية وهي غنية بزراعة البن .

تريم : من اقليم حضر موت اليوم شمالا على الجانب الايسر من وادي حضر موت ، وهي مركز من مراكز الصناعة والحياكة وبخاصة الشال المطرز باسلاك الفضة والذهب الجميل .

صَعْدَى : مدينة لطيفة على طريق الحاج المؤدية من صنعاء الى مكة، وهي مشهورة بصناعة الجلود .

مأرب : ما تزال الى اليوم وهي قرية خربة شمال شرقي صنعاء .

حُديّة : مرفأ صغير في الطريق الجنوبي من خليج جازان على الساحل الغربي في البحر

---

(١) معجم البلدان ٧-٤٠٦ .
(٢) » » ٥-٢٢٦ ، ٢-٣٨٥ .
(٣) » » ٦-٨٦ .

الأحمر ، وهي من افضل مزارع البن .

زَبيد : تبعد نحواً من خمس وعشرين ميلا عن الساحل الغربي في البحر الاحمر ، وعلى الطريق الواصلة عدن بمكة ، وهي مشهورة بزراعتها وصناعتها .

الشيخ سعيد : هي ميناء صغير في جنوبي اليمن على مضيق باب المندب على بعد ثلاث كيلو مترات ونصف من جزيرة بريم

مُخا : هي مرفأ شمالي باب المندب يبلغ عدد سكانها نحو عشرة الآف نسمة وهي مشهورة بالبن الطيب الرائحة ، وقد انحطت مكانتها وقل سكانها منذ تحولت الحركة التجارية منها الى الحديده .

عدن : اما عدن فهي اليوم مدينة جنوبي غربي جزيرة العرب وعدد سكانها نحو ١٣٠ الف نسمة وهي مرفأ حر ، وقد احتلها الانكليز منذ عام ١٧٣٩ واستعمروها . وفي ١٩٣٧ ادخلوها في ممتلكات التاج البريطاني وجعلوا لها حاكماً انكليزياً . وديار عدن مقسومة الى قسمين ، محميات عدن الشرقية وعدد سكانها نحو ثلاثمائة الف نسمة ويشمل هذا القسم بلاد حضرموت وجزيرة سقطرة وما اليها من الأمارات التابعة للنفوذ البريطاني وفي المحميات الشرقية حكومتان حكومة القطيعي وحكومة الكثيري . التابعة للنفوذ البريطاني و — محميات عدن الغربية — وهي المنطقة الواقعة بين حضر موت وباب المندب وهي مكونة من امارات ومشيخات خاضعة للنفوذ البريطاني وهذه المحميات تسع وهي : لحج ، والصبيحة ، والحواشب ، والقطيب ، والعوالق ، ويافع ، والضالع ، والواحدي ، والعوازل ، ويدير هذه المحميات سلاطين بمشورة مجلس الحماية البريطاني ، واعظم هذه المحميات لحج شمالي عدن وهي غنية بوديانها الكثيرة الليمون والبرتقال والموز والخضار ،

حضرموت : واما حضر موت اليوم فامارة محمية يحكمها آل القطيعي في المكلأ وآل الكثيري في الداخل وتقع بين اليمن غرباً وعمان شرقاً والربع الخالي شمالا وبحر العرب جنوباً ، ويبلغ سكانها نحواً من ثلاثمائة الف نسمة ، وهي بلاد جبلية كثيرة الأودية وتمتد جبالها من سراة اليمن شرقاً حتى جبال عمان غرباً بارتفاع — ٢٠٠٠ — متر ويقل ارتفاعها جهة الشرق واعلى جبال منطقة ظفار جبل قمر وارتفاعه — ١٤٠٠ — متر . يجري فيها نهر وادي القصر ويصب في البحر عند سيحوت وبالقرب منه كانت مدينة ظفار عاصمة اليمن القديمة ، ومركز الامارة في مرفأ المكلا . ومن بلدان حضر موت الساحلية : كيشين ، وسيحوت ، والشحر ، وحوره ، والاهوار ، ومن مدنه الداخلية سيون وأنساب او ينساب .

وشبله وهي اكبر مدنه وتقع على بعد مسيرة يوم من مدينة تريم (١)

مَهْرة: واما مهرة فتقع بين عمان شرقاً وحضر موت غرباً: وهي بلاد مقفرة فقيرة واكبر مدنها قيشين ، وفيها آثار قديمة ومن تجارتها البخور والمر ، ولغة اهلها تختلف عن اللغة العربية وتسمى المهرية او الافهرية وتعرف هذه المنطقة ايضاً بالشحر قال ياقوت : هي مشهورة بالابل المهرية وهي تنسب الى مهرة بن حيدان (٢) وفوق جبال مهرة تنمو اشجار الكندر .

١) **عُمَان** : هي سلطة مستقلة مساحتها ٢١٢,٠٠٠ كيلو متر مربع وعاصمتهامدينةمسقط ومن مدنها مرباط ودبا وصور ، وصحار ومن محصولاتها التجارية ، التمر والحبوب ، والفواكه ، واللؤلؤ . واليها ينسب البحر العربي فيقال له بحر عمان وخليجه يسمى خليج عمان . وفيها سلسلة جبال تبدأ من رأس الحد على شكل هضبة ارتفاعها ١٣٥٠ متراً وتنتهي في رأس مسفدم عند مضيق هرمز في الخليج العربي ويتوسطها الجبل الأخضر وارتفاعه ــ ٣٥٠٠ ــ متر .

٢) **الحجاز** : هو القطر الثاني في الجزيرة العربية من حيث السعة ، وقد اختلف القدماء في تحديده واحسن ما قيل فيه قول ابن الكلبي هشام بن ابي النضر في كتابه افتراق العرب : حضارت بلاد العرب من هذه الجزيرة التي نزلوها وتوالدوا فيها على خمسة اقسام عند العرب في اشعارهم واخبارهم . تهامة ، والحجاز ، ونجد ، والعروض ، واليمن . وذلك ان جبل السراة وهو اعظم جبال العرب واذكرها أقبل من قعرة اليمن حتى بلغ اطراف بوادي الشام فسمته العرب حجازاً لانه حجز بين العوز وهو تهامة وهو هابط، وبين نجدوهو ظاهر . فصار ما خلف الجبل في غربيه الى اسياف البحر من بلاد الاشعريين وعك وغيرها ، ودونها الى ذات عرق والجحفة وما صافها وغار من ارضها الغور ، غور تهامة ، وتهامة تجمع ذلك كله ، وصار ما دون ذلك الجبل في شرقيه من صحاري نجد الى اطراف العراق والسماوة وما يليها نجداً ، ونجد تجمع ذلك كله ، وصار الجبل نفسه هو سراته وهو الحجاز وما احتجزبه في شرقية من الجبال ، وما انحاز الى ناحية قيد والجبلين الى المدينة ومن بلاد مذحج تثليث وما دونها الى ناحية قيد حجازاً .. (٣)

ويحد الحجاز من الشمال بادية الشام ومن الشرق نجد وديار شمر ، ومن الجنوب اليمن

---

(١) راجع كتاب Leo Hirsth ; Mahra land und Hadramu, Leiden 1897

(٢) « معجم البلدان ٨ – ٢١١

(٣) راجع النص في معجم البلدان لياقوت ٣–٢١٩

ومن الغرب البحر الاحمر .

ويقول الاستاذ حافظ وهبة : يقع الحجاز من جزيرة العرب في ناحيتها الشمالية والغربية وهو يمتد من معان ماراً برأس خليج العقبة الى نقطة بين الليث والقنفدة على شاطئ البحر الاحمر اما حدوده من الجهة الشرقية فلم تكن معروفة تماماً بل كانت تمتد وتتقلص تبعاً لقوة الاتراك والاشراف . وفي البادية يطلقون الحجاز على المنطقة الجنوبية للطائف (١) .

ومساحة الحجاز على هذا التحديد اكثر من مئة الف ميل مربع وارضيه في الاغلب حرات وصحاري جرداء ، الا ان فيها بعض الواحات والسهول الخصبة التي ترويها عيون واودية ، ومن اخصب بقاعه الطائف والمدينة ، وخيبر وفدك ، وقباء ، وقد عد بعضهم تيوك من ارض الحجاز . ويتخلل ارض الحجاز عدد من الكثبان الرملية والآكام الحصبة ، والاودية المائية ، ذات السيول واشهرها وادي اخم ، ووادي الصفراء ووادي القرى ، ووادي الدبربان ، ووادي الحمض، ووادي العقيق . وربما الحقوا بالحجاز ارض تهامة ، وهي الارض الممتدة ما بين الجبال الى البحر الاحمر ، واجل مدنها القنفدة (٢)

وينقسم الحجاز طبيعياً الى خمس مناطق

١ : المنطقة الساحلية وهي الممتدة على ساحل البحر الاحمر وتسمى ارض تهامة .

٢ : المنطقة الجبلية وهي جبال عالية تأخذ في الانخفاض حتى تصل الى قرب مدينة جدة حيث يبلغ ارتفاعها نحو الفي قدم .

٣ : المنطقة النجدية : وهي الهضاب المغطاة بالحرات واللابات وتحيط بارض مكة والطائف .

٤ : منطقة العويرض : وهي منطقة جبلية بركانية ذات قمم عالية يبلغ ارتفاعها نحواً من — ٨٠٠٠ — قدم .

٥ : منطقة المنحدر الشرقي : وهي حافة عالية في المنحدر الشرقي من جبال الحجاز ، ومن مدنها الحائط والحويط (فدك) وخيبر ، والطائف ووادي فاطمة (مر الظهران)

والمطر في الحجاز قليل ، وارضه غير ذات زرع الا في الواحات ، ودرجة حرارته تبلغ ارتفاعاً عالياً .

والحجاز اليوم جزء من المملكة العربية السعودية يحدها من الشمال المملكة الاردنية الهاشمية وخليج العقبة ومن الغرب البحر الاحمر ومن الشرق نجد ومن الجنوب عسير في

---

(١) راجع جزيرة العرب في القرن العشرين ص ١٤ .

(٢) تاريخ العرب العام لسيديو تعريب زعيتر طبع مصر سنة ١٩٤٨ ص ٢٥ .

نواحي منطقة الليث . واصل مدنه الحرمان وهما مكة والمدينة .

مكة المكرمة : وهي المعروفةفي الجاهلية باسم مكربة ، ومن اكبر مدن الجزيرة العربية وهي مدينة عريقة مقدسة عند العرب والمسلمين لان فيها البيت الحرام ، وكثير من المشاعرالاسلامية المباركة ،ومولد النبي محمد صلى الله علية وسلم ويبلغ عدد سكانها اليوم نحو من مائة وثمانين الف نسمة ، وهي من المراكز التجارية والثقافية في الجزيرة وهي عاصمة الاقليم الحجازة الاولى . وشربها من ماء زمزم وعين زبيدة .

المدينة المنورة : وكانت معروفة في الجاهلية باسمه يثرب وهيمدينة عريقة في تاريخ الامة العربية والاسلام وهي مهاجر النبي محمد صلى الله عليه وسلم وفيها قبره الطاهر وترتبط بدمشق عن طريق سكة حديدية يبلغ طولها ١٣٠٣ كيلو مترات ، وقد تخرب بعض هذا الخط ، والنية مبذولة لاعادته . وهي عاصمة الدولة الاسلامية في ايام الخلفاء الراشدين وتربتها من اخصب ترب الحجاز ويبلغ عدد سكانها اليوم نحو من خمسين الف نسمة وهي مدينة زراعية طيبة التربة .

تبُوك : وهي قرية كبيرةتقع على الخط الحديدي بينالمدينة المنورة ودمشق وهي اعظم قرى الحجاز في الشمال . وربما اعتبرها بعض الجغرافيين من ارض الشام لا الحجاز وقد كانت مركزاً تجارياً كبيراً اما اليوم فقد انحطت مكانتها .

تيماء : هي واحة واسعة تقع جنوبي دوقة الجندل وتبعد مسافة اربعة ايام عن وادي القرى ، وهي مدينة السموءال من عاباديا الهودى المشهور وبالقرب منها قصره المعروف بالابلق الفرد .

الطائف : هي احسن مدن الحجاز لجفاف هوائها ورطوبته ، وطيب تربتها ، وكثرة خضرها وفواكهها ، وتقع جنوب شرقي مكة وعدد سكانها نحو اربعين الف نسمة . وهي من مراكز الاصطياف في الحجاز وفيها كثير من القصور الشامخة .

الوجه : من مدن الساحل في الشمال وهي ميناء صغير ذو قيمة تجارية

الينبع : من مدن الساحلوهو مشهور بنخله وهو ميناء المدينة المنورة ، وصلة الوصل بينها وبين السويس وهو الميناء الثاني في الحجاز بعد جدة ويبلغ عدد سكانهعشرةالآف .

جدة : هي اعظم موانئ الحجاز ، ومرفأ العاصمة مكة ، وفيها يقيم اليوم الممثلون السياسيون للدول الاجنبية في المملكة العربية السعودية وعدد سكانها نحو خمسين الفاً وفي الحجاز مدن اخرى منها : العقبة،والمويلح ، وضبا،واملج ، والعلا ، وخيبر ، ورابغ .

٣ ـ نجـــد: هي هضبة عالية تقع وسط جزيرةالعرب بين الحجاز غرباً والاحساء والبحرين وقطر شرقاً وصحراء الشام شمالا ، وصحراء الاحقاف والدهناء جنوباً . وتبلغ مساحتها اكثر من عشرة الآف ميل مربع ، وتتكون من سلسلة هضبات تحيط بها مناطق واقعة في سفوح جبل شمر شمالا وجبل طويق جنوباً وجبال الحجاز غرباً .

وعلى الرغم من كونها هضبة صخرية فان فيها كثيراً من البقاع الخصبة التي تنتج الحبوب كالقمح والشعير والذرة ، والفاكهة الجيدة والتمر والطيوب ، وهي طيبة الهواء نقية المناخ لها ذكر عريق في الادب العربي القديم منه قول أحد الشعراء :

اكرر طرفي نحو نجد وانني	اليه وان لم يدرك الطرف انظر
حنيناً الى أرض كأن ترابها	اذا امطرت عود ومسك وعنبر
بلاد كأن الأقحوان بروضة	ونور الاقاحي وشي برد محبر

وفي هذه الهضبة بعض الاودية ومسايل المياه وكثير من التلال التي تعلو الارض ببضع عشرات من الامتار ، واعلى بقاعها هي منطقة نجد الغربية المحاذية للحجاز ، ثم تسير نحو الانحدار شرقاً حتى تتصل بأرض العروض ، وتنقسم نجد الى ثلاثة اقسام :

١ : قسم وادي الرمة وهو ارض طباشرية رملية جنوباً تتخللها بعض الواحات الرملية الخصبية ، وفيها مسايل مياه على اعماق مختلفة وعيون تستمد مياهها من مرتفعات جبل شمر وفي هذا القسم عدد من الحرات ، وان سمي باسم وادي الرمة لان هذا الوادي المائي يخترقه ، وقد يبلغ عرضه اثناء الامطار نحواً من ثلاثة اميال

٢ : قسم جبل طويق : وهو مؤلف من ارض طباشيرية ايضاً يعلوها جبل طويق الذي تتفرع منه عدة اودية ومسايل مياه تسير نحو الربع الخالي وتغور فيه ، ويبلغ علو جبل طويق نحواً من ٥٠٠ قدم .

٣ : قسم الاراضي الخصبة : وهي المنحدرات الواقعة في جنوبي نجد ، وتنحدر من جبل طويق الى الصحراء جنوباً ، وهو قسم غني بواحاته واشجاره ومياهه الآتية من جبل طويق ، ووادي حنيفة واخصب بقاع هذا القسم : الافلاج والسليل ، والدواسر ، والخرج والحريق .

واجل مدن نجد هي (الرياض) وتقع في بقعة طيبة الهواء ، خصبة الارض ، ذات مركز تجاري كبير وهي خاصرة اقليم العارض المسمى باقليم وادي حنيفة واليمامة وفيها مساجد كبيرة ومؤسسات علمية وتجارية وحدائق .

وفي نجد عدد من الجبال اجلها واشهرها جبلا أجأ وسلمى في منطقة شمرولها ذكر

كثير عريق في الشعر العربي القديم، وقد كانا في العهود المتأخرة مقراً لآل رشيد ويمتدان من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي وفيهما عدد من المدن والقرى واجلها مدينتا حائل وفيد :

ونجد اليوم هي احد اجزاء المملكة العربية السعودية وفيها العاصمة وهي مدينة الرياض ، ويحد هذه المملكة من الشمال المملكتان العراقية والاردنية الهاشمية ، ومن الغرب البحر الاحمر ومملكة اليمن ، ومن الجنوب امارتا عمان وحضر موت ، ومن الشرق : امارتا الكويت وقطر والخليج البصري ، والاجزاء التي تتألف منها المملكة عدا نجد والحجاز هي : العسير ، والاحساء ، والقطيف .

وينقسم نجد الى ثماني إيالات :

١) : القصيم ويقع بعد منحدرات جبل شمر وأجل مدنه (غنيرة (وهي بلدة كبيرة سكانها نحو خمس وعشرين الف نسمة ، وهي كثيرة الاشجار والمياه والمساجد والقصور ويتبعها عدد من القرى الحصيبة واشهرها – الاسياج –و –عين ابن فهيد–و– حنيظل – و – ابو الدور – وهي قرى مشهورة بنخلها ومياهها و (بريدة (وهي كذلك مدينة واسعة كثيرة المساجد والمدارس الاسلامية ويتبعها عدد من القرى اجلها : – الشقة – و – العيون – و – البصر – و – القرعاء – و – وادي العنيزة – وهي قرية غنية بنخيلها وثمارها ومدينتا عنيرة وبريدة هما اكبر مدينتين تجاريتين في قلب الجزيرة

٢) : السدير وأجل مدنه – المجمعة – وهي مقر الحكومة ومن قراها – الزلفى – و – حرمة – و – وشي – و – الجوى – و – جلاجل – و – الروضة – .

٣) : الوشم وأجل مدنه الشقراء وهي مقر الحكومة ومن قراها – وسيل – و –وشيقر و – القرائن – و ترمدة – و – أثيثية – و – الحريقة – و – الحريق – و – البير– و – الدوادمي – .

٤) : المحمل واجل مدنه ثادق وهي مقر الحكومة ومن مراكز الزراعة ومن قراها – الصفرة – و – رغبة – و – دفلة – و – القرنية – و – ملهم – و – صليوخ – .

٥) : العارض ويسمى العروض وليمامة ايضاً وهو اقليم وادي حنيفة ، وكانت – الدرعية – مقر الحكومة فيه قبل ان يخرجها الوالي المصري محمد علي باشا سنة ١٢٣٤ هـ وفتك باهلها بعد ان كانت من اغنى المدن في الجزيرة (١) ، ومن مدن هذا الاقليم –الخرج و – ضرمي – و – العمادية – و – ابو كباش – و – لبن – و – سدوس و – ثاذق – و – خريملة – و – سدوس – وهي من القرى الاثرية الهامة

---

(١) راجع تاريخ نجد للآلوسي ص ٢٤ .

٦) : وادي القرع : وهو وادي كثير الخيرات والنخل ، وهو مقر بني سليم ، ومن مدنه ـ الحوطة ـ و ـ نعام ـ و ـ الخلود ـ .

٧) : الافلاج) الافلاق (وهو مقر الدواسر الكبيرة ومن قراه ـ ليلي ـ و ـ البيدع ـ و ـ الاحمر ـ و ـ الهدار ـ و ـ السليل ـ و ـ الدمام ـ و ـ كثيرة ـ .

٨) : عسير وهي في جنوبي نجد وشمالي اليمن وسكانها بادية وحاضرة واجل مدنها ـ بيشة ـ ومن القرى الكبيرة التابعة لها ـ تربة ـ و ـ أبها ـ و ـ صبيا ـ و ـ حلي ـ و ـ جيزان ـ ـ وميدي ـ و ـ القنفذة ـ و ـ البرك ـ و ـ الشقيق ـ و ـ القرنية ـ

وسكان نجد قسمان بدو وحضر :

(فالبدو (هم المتنقلون من جهة الى جهة تبعاً للمراعي والامطار ، وقد جرت اعرافهم على اعتبار الارض التي اعتادوا سكناها ملكا لهم فلا يسمحون للآخرين ان يدنوا منها إلا باذنهم او باللجوء اليهم وهم اذكياء ، وعلى الرغم من انتشار الامية بينهم فانهم بارعون في اقتفاء الاثر ، محافظون على تقاليدهم وانسابهم ، وهم اصل تجار العرب اليوم واصفاهم انساباً ، واجل القبائل البدوية بنوخالد والعجمان وقحطان وسبيع ومطير وتميم وعنزة .

(والحضر (وهم سكان المدن والقرى وهم وان اختلفت طباعهم بعض الشيء عن البدو وتأثروا بالحضارة الحديثة بعض التأثر فأنهم يشبهون البدو في كثير من العادات لان ظروف الحياة عندهم جميعاً تتشابه ، فأهل حايل اقرب مظهراً الى البدو واهل القصيم يفضلون انفسهم على سائر النجديين بالعلم والمعرفة وسماحة الخلق ، والاحاطة باحوال العالم ، واهل العارض يفضلون انفسهم بالشجاعة والصبر والمحافظة على شمائل العرب ، واهل القصيم وشقر أنشط اهل نجد في التجارة .

ومناخ نجد جاف طيب تغنى به الشعراء قديماً وحديثاً ، واشد بقاعه حرارة منطقة الحريق ووادي الدواسر ، اما العارض فمعتدل الهواء طيب المناخ ، يشبه اقليم الشام ، وان كانت امطاره قليلة ورياضه كثيرة .

واشهر مدن نجد اليوم :

الرياض : وهي عاصمة نجد ، وعاصمة المملكة العربية السعودية منذ سنة ١٩٢٥ م وقد غدت اليوم مركزاً سياسياً وتجارياً عظيماً . ويبلغ عدد سكانها نحواً من ربع مليون نسمة ، وهي مبنية على شكل مربع تحيط بها النخيل وفي قسمها الشمالي القصر الملكي وقصور الامراء . وقد وصلت اخيراً بخط حديدي عريض يصلها بالخليج العربي يبدأ منها ويسير الى عين حرض فالهفوف فالقطيف على ساحل الخليج .

الخرج : وهي مدينة صغيرة كثيرة النخيل ، طيبة التربة ، وقد غدت في الآونة

الاخيرة ذات شهرة لمركزها التجاري وقربها من العاصمة .

الهفوف : هي قاعدة اقليم الاحساء ، ومن المدن التي غدتلها شهرة في الاونة الاخيرة لمركزها التجاري.

القطيف : هي فرضة كبيرة على خليج جزيرة تاروت ولها اهمية لأنها غدت بعد اكتشاف النفط في الجزيرة العربيةمركزاً من مراكزه، وقد تطورت في الآونة الآخيرة .

بريدة : تقع شماليوادي الرمة ومياهها كثيرةوزراعتها طيبةوهي من اعظماسواق تجارة الابل ويبلغ سكانها نحواً من خمس وعشرين الف نسمة.

عنيزة : تقع شمالي غيرة على احد روافد نهر وادي الرمة وهي مركز المواصلات بين نجد والكويت والعراق . ومركز تجاري مهم .

الظهران : مركز شركة النفط العربية السعودية — ارامكو — وميناؤها — الدمام — ويسكنها موظفو الشركة من عرب وامريكيين وتحيط بها منطقة زراعية . وقد وفرت الشركة للناس اسباب الحياة الهنيئة هناك .

٤) **جزيرة قَطَر** : هي شبه جزيرة على ساحل جزيرة العربالشرقي في الخليج العربي ومساحتها نحواً من٢٢ الف كيلو متر مربع ، ويضاف اليها منطقة الساحل المعاهدومساحته —١٥ — الف كيلو متر مربع . تمتد من عمان الى حدود الاحساء ، ويشتغل اهلها بالصيد والغوص على اللؤلؤ ، ومعظم اراضيها صحراء مقفرة الا في بعض المناطق فانها تتخللها الواحات والآبار وقد عرفت بصناعة النسيج قديماً ، وللثياب القطرية ذكر في الادب العربي القديم ، كما انها مشهورة بالنجائب الطيبة ، والبقر والنعام . وقد تطورت هذه الامارة في الاونة الاخيرة بعد ان اكتشفت حقول البترول في اراضيها وسارت في طريق الحضارة والرقي وهي اليوم مشيخة مستقلة مرتبطة بمعاهدة مع بريطانيا وعاصمتها مدينة — ضحى — وتقع قطر الى شرقي اقليم العقير ، وسكانه من قحطان ، ووائل ، وهاجر ، والمناصير .

ومن مدن قطر — البدع — وهو المسمى — رأس الزبارة — و — نويرط —و—دخان— و — ام سعيد — .

٥) **جزرالبحرين** : هي مجموعةجزر كثيرة بالقرب من الشاطئ الشرقي للجزيرة على الخليج العربي تبلغ مساحتها نحواً من ١١٢,٠٠٠ كيلو متر مربع واكبر هذه الجزر هي — جزيرة المنامة — وقد عرفت في ايامنا هذه باسم جزيرة البحرين وهي مشهورة بصيد اللؤلؤ والاسماك وفيها مناجم النفط الغنية . ومن بلدانها — العوالي — ، وهي مدينة حديثة البناء قرب ابار النفط ومن جزرها المشهورة — المحرق — وهي موصولة بالمنامة عن طريق

جسر طوله ١٤٠٠ متر و – النبي صالح – و – ام نعسان – و – سترة – و – عسكر – و – البديع – و – سنابس – و – سوق الخميس –

وهي اليوم مشيخة غنية لما ظهر فيها من النفط ، كثيرة الخيرات والفواكه ، وجوها معتدل بالنسبة لمدن الخليج العربي الاخرى وجزائره . وامطارها قليلة .

والبحرين مشهورة بصنع العبي الفاخرة ، والحصر المتقنة ، وبناء السفن ، والاستيراد والتصدير التجاري.

وجزيرة البحرين او المنامة تقع شمالي قطر وهي جزيرة على شكل اللوزة تقع مدينة المنامة في اعلاها جنوبي جزيرة المحرق والى جنوبها قرية – عين الحكيم – . وفي وسط الجزيرة مدينة العوالي والى شرقها قرية – عسكر – على ساحل الخليج العربي . والى شمالي هذه القرية مراكز ضخ النفط ، وأنابيب النفط تتجه من شرق الجزيرة الى غربها عند جزيرة ام نعسان .

٦) **الكويت** : هي أراض ساحلية قاحلة التربة تقع بين البصرة والبحرين على شكل نصف دائرة في الساحل الغربي من رأس الخليج العربي ، وتمتد حدودها الشمالية من – ام قصر – الى – سفوان – وفيها بعض التلال والاراضي القليلة التي تصلح للزراعة وبخاصة النخيل ، وليس في الكويت ماء عذب صالح للشرب ، وتعتزم الامارة فيها على نقل الماء اليها من البصرة.

ويحد امارة الكويت العراق شمالا وغرباً ، والمملكة العربية السعودية جنوباً ، والخليج العربي شرقاً وتتاخمها منطقتان محايدتان جنوباً وغرباً

وهي اليوم امارة تربطها ببريطانيا معاهدة ، وعاصمتها مدينة الكويت وفي الكويت مدن صغيرة غير العاصمة وهي (الاحمدي) وفيها مراكز ضخ النفط والمصافي ولقد اوجدت شركات البترول فيها منازلا لعمالها وبعض الجنائن والاشجار – والجهرة – الواقعة من منطقة زراعية خصبة أثرية و – كاظمة – وهي مدينة صغيرة تقع بالقرب من الخليج المعروف بخليج كاظمة في الشمال و – الصبية – وهي مدينة صغيرة في الشمال الشرقي من الجهرة

وجو الكويت هو شديد الحرارة في الصيف ، معتدل في الشتاء ، قليل الامطار ، وقد ازدهرت التجارة والصناعة في الكويت بعد اكتشاف حقول النفط .

وارض الكويت سهول قاحلة مقفرة ماعدا بعض التلال العالية ، واشهرها – تل وارة جنوبي مدينة الكويت بنحو ٣٥ ميلا ، وتلال متاقيس – غربي مدينة الكويت .

وتنقسم الكويت الى مقاطعات هي :

١) : مقاطعة الباطن وتقع في الجهة الشمالية من البلاد عند ملتقى الحدود العراقية النجدية

٢) : مقاطعة الزور وهي تلال تمتد من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي قرب الجهرة.
٣) : مقاطعة الجزر واشهرها بوبيان ، وفيلكه ، وكبر .

(٧) الشام او سورية هوالقطر العظيم المحدود غرباً بالبحر الابيض المتوسط (ويسمى بحر الشام ايضاً) وشرقاً بالبادية المعروفة ببادية الشام من أيلة الى الفرات ، وشمالا بتركية، وجنوباً بالجماد والبحر الاحمر . وهو مقسم الى اربعة اقسام :

(آ) **الجمهورية السورية** : (ب) الجمهورية اللبنانية وهما سورية الشمالية (ج) المملكة الاردنية الهاشمية (د) فلسطين، وهما سورية الجنوبية :

١) : سورية الشمالية : تشتمل سورية الشمالية على الجمهوريتين السورية واللبنانية ويحدها طوروس وجبال اللكام ووادي النهر الاسود حتى ميدان اكبس ، وشرقاً العراق ، وجنوباً المملكةالاردنية الهاشمية وفلسطين، وغرباً البحر الابيض المتوسط ومساحة الجمهورية السورية (١٨٤,٣٧٩) كم و (١٠,٤٠٠ كم)

٢) : سورية الجنوبية وتشمل المملكة الاردنية الهاشمية وفلسطين ويحدها شمالا الجمهورية اللبنانية ومحافظة السويداء ، وشرقاً بادية الشام والعراق ، وغرباً البحر الابيض المتوسط ، وجنوباً صحراء سيناء والجمهورية المصرية . ومساحة فلسطين (٢٧,٠٠٠) كم ومساحة المملكة الاردنية الهاشمية (١,٠٧٠,٠٠٠ كم) .

سورية الشمالية : سورية الشمالية تتكون من اراض مرتفعة في الغرب وتنخفض تدريجياً في الجنوب الشرقي ويمكن تقسيمها الى خمسة اقسام :

١ : منطقة السهول الساحلية وتتألف من سهل الاسكندرون ، واللاذقية وعكار وطرابلس والشويفات والدامور وصيدا وصور .

٢ : منطقة السلاسل الجبلية الساحلية الغربية وتتألف من جبال اللكام او الامانوس وجبال العلويين او النصيرية ، وجبال لبنان الغربية

٣ : منطقة الاحدود الانهدامي الكبير وتتألف من سهل العمق المنخفض ، وسهل الروج شرقي جسر الشغوز ، وسهل الغاب ، وسهل البقاع ، وسهل الزبداني .

٤ : السلاسل الجبلية الساحلية الشرقية وتتكون من جبل الاكراد ، وجبل سمعان ، وجبل الزاوية ، وجبال لبنان الشرقية .

٥ : المنطقة الداخلية وتنقسم الى ثلاثة اقسام وهي — المرتفعات — والهضاب الداخلية ، و — السهول الداخلية — ، في حلب وحماه وحمص ودمشق وحوران ، و — البادية —
وتمتد سورية الشمالية من خط العرض — ٣٣ — الى الخط — ٣٧,٥ — شمالا ، وهي

معتدلة الحرارة شتوية الامطار ، جافة في الصيف . وينقسم مناخها الى اربعة اقسام :

١) : مناخ ساحلي معتدل في الشتاء رطب ، حار في الصيف، كثير الامطار في الشتاء التي تدوم نحو ستة اشهر .

٢) :مناخ جبلي وهو في جميع البقاع التي يزيد ارتفاعها عن ١٠٠٠ متر شديد البرودة في الشتاء ، ولطيف في الصيف ، وامطاره كثيرة تدوم ستة اشهر .

٣) : مناخ قاري ويشمل السهول والسفوح للجبال الشرقية والغربية وهو حار صيفاً ، بارد شتاء وتدوم امطاره اكثر من ثلاثة اشهر .

٤) :مناخ صحراوي ، وهو قسمان –قسم – يشمل المناطق الداخلية ماعدا البادية وهو حار صيفاً بارد شتاء وتدوم امطاره اكثر من ثلاثة اشهر ، و – قسم – يشمل البادية وهو شديد الحرارة صيفاً بارد شتاء وتدوم امطاره اكثر من ثلاثة أشهر ، وقسم يشمل البادية شديد الحرارة صيفاً شديد البرودة شتاءوامطاره قليلة.

ومياه سورية الشمالية قليلة لان متوسطما يسقط في الجمهورية السورية من الامطار هو اربعة اشهر ولا يتجاوز (٤٠٠) مليمتر في السنة ، ومع ان المتوسط في الجمهورية اللبنانية يدوم ستة اشهر فان هذا قليل لان بقاء التربة محرومة من الامطار نصف السنة او ثلثها يجعلها لا تزرع الا موسماً واحداً في السنة . ويجب ان نستثنى من ذلك البقاع التي ترويها الانهار الدائمة او الينابيع :

اشهر انهار الجمهورية السورية :

النهر الشمالي الكبير : ينبع من سفوح جبل الاقرع ويصب جنوبي شرقي اللاذقية وطوله (٨٠) كم .

نهر السن : ينبع شمالي مدينة بانياس،وهو من اغزر الانهار السورية وطوله (٦) كلم .

نهر بانياس : ينبع جوار مدينة بانياس ، وهو قصير ولكنه غزير المياه .

النهر الجنوبي الكبير : ينبع من سفوح جبال العلويين ، وطوله (٥٨ (كلم .

نهر العاصي : ينبع من شمال هضبة بعلبك ، ويجري باتجاه الشمال على عكس جميع انهار سورية ولذلك سمي (العاصي) حتى يصب في البحر الابيض المتوسط عند السويدية وطوله (٥٧١) كم . وهو من اهم انهار سورية .

نهر بردى : ينبع من وادي الزبداني على ارتفاع ١١٠٠ متر ويقطع سلسلة لبنان الشرقية عرضاً ويتجه نحو دمشق ويصب في بحيرة العقبة وطوله (٧١) كم .

نهر الذهب : ينبع من هضبة حلب شمالي مدينة الباب ويتجه جنوباً ويصب في سبحة الجبول شرقي حلب ، وطوله (٥٠) كم .

نهر الفرات : وتقدم الكلام عليه ونضيف الى ما ذكرناه سابقاً ان له روافد من انهار سورية وهي (الساجور) و (البليخ) و (الخابور) ويسير في الاراضي السورية شمالا حتى يصل الى مدينة سكنة ثم يمر بالرقة فدير الزور فالميادين فابوكمال ثم يدخل الاراضي العراقية.

اشهر انهار لبنان :

نهر عكار : وينبع من جبال عكار على شكل رافدين لهما شلالات جميلة عند قصر عكار التاريخي ويصب في الساحل اللبناني جنوب حدود الجمهورية السورية.

نهر قاديشا : ويسمى نهر ابي علي ايضاً وينبع من مغارة قاديشا الشهيرة بمتدلياتها وتوازلها (ستالاكيت وستالاكميت) عند سفح جبل الأرز ثم يسير حتى يدخل الى مدينة طرابلس حيث يصب في البحر وطوله (٤٢) كم.

نهر ابراهيم : ويسمى نهر ادونيس ايضاً وينبع جنوبي جبل المنيطرة ويصب جنوبي مدينة جبيل في الساحل اللبناني وطوله (٣٠) كم.

نهر الكلب : وينبع من جبل صنين ويصب شمال قرية الضبية . وقرب مصبه هذا ثماني عشرة لوحة اثرية من مختلف العصور من العهد الاشوري حتى العصر الحاضر

نهر الأولي : وقديماً (نهر الفراديس) ينبع من عين زحلتا ويروي بساتين صيدا ويبلغ طوله (٤٨) كلم.

نهر الليطاني : ينبع من المنحدر الجنوبي في جهات بعلبك من (رأس العين) ويجتاز (البقاع) حتى يصب شمال مدينة صور وطوله (١٤٥) كلم.

نهر الحاصباني : ينبع من سفوح حرمون شمال راشيا ويسير حتى يقترب من الليطاني ويصب في بحيرة الحولة .

وتنقسم الجمهورية السورية الى تسع محافظات هي : دمشق ، حوران ، السويداء ، حمص ، حماه ، اللاذقية ، حلب ، الفرات ، والجزيرة ، وتنقسم هذه المحافظات الى (٣٥) قضاء و (٩١) ناحية و (٥٤٧٧) مدينة او قرية و (٣٧١٧) دسكره (١).

وتنقسم الجمهورية اللبنانية الى خمس محافظات هي : بيروت ، جبل لبنان ، لبنان الشمالي ، لبنان الجنوبي ، البقاع . وتتألف محافظة بيروت من مدينة بيروت نفسها وهي

---

(١) اخذنا هذه المعلومات عن كتاب « التقسيمات الادارية في الجمهورية السورية » الذي اصدرته مديرية الاحصاء في وزارة الاقتصاد الوطني سنة ١٩٥٢ ص ٢٩٥ .

العاصمة للجمهورية اللبنانية .

ومحافظة لبنان الشمالي من مدينة (طرابلس) وقضاء (عكار) ومركزه حلبا وقضاء (زغرتا) ومركزه زغرتا ، وقضاء (البترون) ومركزه البترون ، وقضاء (الكورة) ومركزه اميون .

ومحافظة جبل لبنان من مدينة (بعبدا) وقضاء (المتن) ومركزه الجديدة ، وقضاء (كسروان) ومركزه جونيه ، وقضاء (الشوف) ومركزه بيت الدين ، وقضاء (عاليه) ومركزه عاليه .

ومحافظة لبنان الجنوبي من مدينة (صيدا) وقضاء (صور) ومركزه صور ، وقضاء مرجعيون ومركزه مرجعيون ، وقضاء (جزين (ومركزه جزين ، وقضاء (حاصبيا) ومركزه حاصبيا .

ومحافظة البقاع من مدينة (زحلة) ، وقضاء (بعلبك) ومركزه بعلبك ، وقضاء الهرمل ومركزه الهرمل ، وقضاء (راشيا) ومركزه راشيا .

اما الحالة الاقتصادية في سورية الشمالية فهي كما يلي :

تعتمد الحياة الاقتصادية في الجمهورية السورية على الزراعة وتربية المواشي في الدرجة الاولى ثم على التجارة فالصناعة . ويعمل في الزراعة حوالي ٧٥ ÷ من السكان . وقد بلغ الدخل القومي حسب احصاء سنة ١٩٥٠ مبلغ ١٢٥٠ (مليون ليرة سورية كانت حصة الزراعة فيه ٥٥٣ مليون . واهم المحاصيل الزراعية هي القمح والشعير والقطن والذرة والشوفان والرز والمخضرات والكتان والسمسم والشوندر والتبغ والزيتون والكرمة والفستق والجوز والمشمش والتفاح والحمضيات . اما الصناعة فاعظمها الغزل والنسيج ، والسكر والزيتون والتبغ والصابون والاسمنت والزجاج والجلود .

وتعتمد الحياة الاقتصادية في الجمهورية اللبنانية على الزراعة ، ورغم أن حاصلاتها لا تكفيها الآن ، فان بامكانها ان تكفيها اذا عززت الزراعة فيها ، ويعيش حوالي نصف سكانها على الزراعة وبخاصة الفواكه والخضروات وتزرع على الساحل وفي الجبال والحبوب وتزرع في سهول عكار والبقاع وصيدا وصور . اما الصناعة فالغزل والنسيج اعظمها ثم الدباغة وصناعة الزيوت والسكر ، ومواد البناء .

واعظم المدن في الجمهورية السورية هي :

دمشق : العاصمة ويبلغ عدد سكانها حسب احصاء سنة ١٩٥٢ (٣٧١,٧٠٨) نسمة

وهي في وسط الغوطة الغناء على ارتفاع ٦٩٠ متراً عن سطح البحر ويخترقها (بردى) ويشرف عليها (قاسيون) ولها ماض عريق وفيها آثارجميلة اجلها المسجد الاموي وضريح صلاح الدين وعد من المدارس الاسلامية الموروثه من جميع عصور الاسلام.وفيها كثير من الصناعات اهمها صناعات الغزل والنسيج والحرير والبروكاء والزجاج والاسمنت والصابون والتبغ والسكاكر ، والاخشاب .

حلب : هي اعظم مدن الجمهورية مساحة واكثرها سكاناً اذ يبلغون حسب احصاء سنة ١٩٥٢ ٣٨٠,٩١٩ نسمة تعلو عن سطح البحر حوالي من ٣٨٠ متراً ويخترقها نهر قويق الصغير وتسقيها مياه استجلبت من الفرات ومناخها جاف. وهي مشهورة بصناعاتها واهمها الغزل والنسيج والصابون والحلوى والدباغة والاسمنت والسجاد والزيت والمشروبات . وهي عريقة في قدمها غنية باثارها العظيمة التي لا تضاهيها فيها مدينة في العالم الاسلامي سوى القاهرة . واصل اثارها جامع بني امية والقلعة وعدد كبير من المدارس والمعاهد الاسلامية والمكتبات .

حمص : هي ثالث مدينة في الجمهورية سكانها (١٢٥,٠٨٣) نسمة تقع الى شرقي العاصي وسط سهل خصيب وهي مدينة عريقة في كثير من الآثار والمعاهد اجلها جامع خالد بن الوليد . واجل صناعاتها السكر والكحول والصباغة والاسمنت والنسيج والتطريز .

حماة : هي رابع مدينة في الجمهورية عدد سكانها (٩١,١٦٣) نسمة يشطرها (العاصي) شطرين احدهما (الحاضر) والثاني (السوق) وهي مشهورة بنواعيرها الرائعة السامقة ، واجل صناعاتها النسيج والدباغة والصابون .

دير الزور : هي خامس مدينة في الجمهورية عدد سكانها ٧١,٦٧٦ نسمة ، حديثة العهد ، لها اهمية لوقوعها في البادية فهي سوق البدو . واجل تجاراتها الماشية والسمن والالبان والحبوب .

اللاذقية : هي مدن الساحل في الجمهورية السورية ، عدد سكانها (٤٧,٣٩٧) نسمة ولها مستقبل عظيم بعد اتمام الميناء وتقع في بقعة رائعة من الجمال الطبيعي واعظم صناعاتها الزيت ، والصابون والدباغة والتبغ .

ادلب : هي مركز قضاء في الجمهورية وعدد سكانها (٢٤,٦٢٢) نسمة تقع وسط منطقة زراعية غنية بالزيتون والكروم والقطن .

دوما : هي مركز لأكبر قضاء في محافظة دمشة وعدد سكانها(٢٢,٠٠٧)نسمةوهي

مشهورة باعنابها وزيتونها

الباب : هي مدينة عريقة غنية بزراعة الحبوب والفواكه والخضار ، عدد سكانها ١٩,٧٦٩ نسمة .

درعا : هي مركز محافظة حوران وهي مركز تجاري لوقوعها بين فلسطين والاردن والعراق ويبلغ سكانها ١٤,٤٩٨ نسمة .

السويداء : مركز محافظة جبل الدروز ، وتقع على جبل بركاني يرتفع ١٠٦٠ متراً وعدد سكانها ١١,٢٦١ نسمة وهي من المدن العريقة التاريخية.

النبك : هي مصيف جميل على الطريق بين دمشق وحمص ، عدد سكانها ١٢,٥٦١ نسمة مشهورة بزراعة البطاطا والتوم.

تدمر : هي مدينة عريقة غنية بالاثار ، سكانها ٩,٠٠٠ نسمة .

اعظم المدن في الجمهورية اللبنانية هي :

بيروت العاصمة ويبلغ سكانها بحسب آخر احصاء سنة ١٩٥٣ ٢٢٠,٠٠٠ نسمة وهي مركز تجاري كبير فيها الميناء العالمي ، والمطار الدولي ، وهي مركز صناعي هام ينتج المعلبات والمشروبات والمأكولات ، والاثاث المنزلي ، والنسيج والدباغة وهي مركز ثقافي هام فيها عدد من الجامعات والمعاهد الراقية يقصدها طلاب من كافة ارجاء دنيا العرب .

طرابلس : هي ثاني مدينة في الجمهورية وهي عاصمة الشمال اللبناني يبلغ سكانها بحسب احصاء سنة ١٩٥٣ ٩٢,٥٠٠ نسمة ، وهي مركز المواصلات بين الداخل والساحل ، مربوطة بطرق مع حمص وبيروت واللاذقية وبعلبك ، واليها ينتهي خط انابيب البترول المممدود من كركوك العراق ، وبها مصفاة لتكريره. وهي مشهورة بصناعة الصابون والدباغة والنسيج والحلويات .

زحلة : هي اكبر مدن لبنان الداخلية يبلغ سكانها بحسب احصاء سنة ١٩٥٣ ٣٨,٥٠٠ نسمة ، وترتفع ٩٤٥ متراً عن البحر وهي مصيف جميل يخترقها نهر البردوني وسط منطقة غنية بزراعة الكروم والحبوب والفاكهة .

صيدا : هي اكبر مدن لبنان الجنوبي يبلغ سكانها بحسب احصاء سنة ١٩٥٣ ٢١,٠٠٠ نسمة وهي مدينة عريقة فيها اثار فينيقية ، وميناء يصدر منها البترول السعودي ، وهي اكبر مركز زراعي في لبنان واشهر ما تنتجه الحمضيات والموز والمشمش الهندي والزيتون ،

والى جنوبها مدينة صور التاريخية العريقة المشهورة بفواكهها واسماكها .

بعلبك : هي مدينة أثرية عظيمة فيها المعبد اليوناني العريق،والقلعة العربية الخالدة ، وارتفاعها ١١٥٠ متراً عن البحروعدد سكانها ١٦,٥٠٠ نسمة ، وهي مركز اصطياف وزراعة

وفي الجمهورية عدد كبير من المدن القرى الرائعة في جمال مناظرها،وبرودة هوائها في الصيف، يقصدها الناس من دنيا العرب للاستجمام والتصييف، واكثر هذه القرى والمصايف في سلسلة لبنان الغربية وبخاصة في محافظة جبل لبنان واشهرها مدن عاليه وسوق الغرب وصوفر وبحمدون ، وضهور الشوير ، وبكفيا ، والمروج ، وحمانا ، وفالوغا ، وبرمانا ، وبيت مري ، وبيت الدين ، وعين زحلتا ، وجزين ، وجبع ، وغزير ، وبشري ، واهدن .

سورية الجنوبية : تتكون سورية الجنوبية من المملكة الاردنية الهاشمية، وفلسطين ويحدها من الشمال لبنان عند نقطة تبدأ من جنوبي مدينة صور حتى بحيرة الحولة ، ومن الشرق العراق والمملكة العربية السعودية ، ومن الجنوب المملكة العربية السعودية والبحر الاحمر ومن الغرب البحر الابيض المتوسط ومبدأه من شمالي عكا الى جنوب خان يونس على الساحل .

وتتكون اراضي سورية الجنوبية من صخور تكونت في الدورين الثالث والثاني للقشرة الارضية وهي جباله . اما الغور والسهول فتكونت في الدور الرابع ، وتقسم الى مناطق .

١) منطقة السهول الساحلية وهي مثل سهول سورية الشمالية الا انها اوسع ولكنها اقل خصباً لكثرة الرمال في القسم الجنوبي . ويقسم جبل الكرمل هذه السهول الى شماليه خصبة وجنوبية وهي اقل خصوبة .

٥(**منطقة السلسلة الجبلية الغربية** : وهي امتداد لسلسلة جبال لبنان الغربية واولها جبل الجليل واعلى قممه يبلغ ارتفاعها ١٢٠٠ متر ، وجبل الكرمل ولا يزيد اعلى ارتفاع فيه عن ٥٠٠ متر ، وجبل السامرة واعلى قممه (٩٤٠) متراً ، وجبال الخليل واعلاها جبل الزيتون او الطور وارتفاعه نحو ١٠٢٧ متراً .

٣) **منطقة الغور الانهدامي** : ويسير امتداده شمالا حتى سهل العمق في سوريه الشمالية وفيه ثلاث بحيرات هي بحيرة الحولة في الشمال ، وبحيرة طبريه في الوسط، والبحر الميت في النهايه وينخفض (٧٩٤) متراً عن سطح البحر

٤) منطقة السلسلة الجبلية الشرقية وهي امتداد لسلسلة جبال سوريا الشماليه واعلى مرتفعاتها يبلغ ١٥٠٠ متر في منطقة عجلون . ومنها جبال موآب وارتفاعها ٩٠٠ متر ، وجبال الطفيلة وارتفاعها ١٢٠٠ متر وجبال السراة وارتفاعها ١٧٠٠ متر .

اما مياه سورية الجنوبية فتتكون من الانهار والينابيع، واشهر الانهار هي:

نهر الاردن : يبدأ هذا النهر بثلاث روافد تنبع من جنوب جبل الشيخ ثم تجتمع في الحوله ثم تخرج من الحوله فيسير جنوباً حتى بحيره طبريه ويرفدة نهر اليرموك جنوبي طبريه ثم يرفده نهر اجالوت والزرقاء حتى يصب في البحر الميت .

نهرالزرقاء : ينبع من جبال السامرة ويمرفي سهول سارونه ويصب في البحر الابيض المتوسط.

نهر المقطع : ينبع من جبل طابور وجبل السامرة ويمر في سهل ابن عامر ويصب في البحر الابيض المتوسط عند عكا .

نهر العوجا :وينبع من رأس العين ويصب شمالي مدينة يافا في البحر الابيض المتوسط .
ومناخ بلاد الشام الجنوبيه هو مناخ البلاد الشماليه الا انها اشد حرارة واقل امطاراً ،

المشكلة الفلسطينية :

كانت فلسطين قبل سنة ١٩٤٨ دولة تحت الانتداب الانكليزي ، وكان المنتظر من انكلترا التي ندبت نفسها للوصاية على هذه البلاد ان تسير بها في سبيل التقدم ، وتحفظها وديعة لاهلها العرب ، ولكنها خانت هذه الامانة ووعدت اليهود باقامة وطن قومي لهم فيها وخرجت من فلسطين بعد ان سلمتها للعصابات الصهيونية . فاحدثت مشكلة عظيمة في فلسطين وفي بلاد العربية جمعاء ما تزال الامة العربية عامة والفلسطينيون خاصة يعملون على التخلص منها واعادة الحق الى نصابه ، وارجاع السكان النازحين العرب الذين خرجوا من ديارهم الى ارضهم المغصوبة المحتلة .

كان عدد سكان فلسطين قبل الحوادث سنة ١٩٤٨ حوالي ١,٨٩١,٠٠٠ نسمة منهم نحو ١,٢٧٥,٠٠٠ عربي ، مسلم او مسيحي و ٦٠٠,٠٠٠ يهودي و ١٦,٠٠٠ من العناصر المتفرقة وكانت كثافة السكان ٧٠ في الكيلو متر المربع الواحد . الا انه بعد ان وقعت الحوادث اضطر كثير من العرب ان ينزحوا الى البلاد العربيه المجاوره كالاردن، ولبنان

وسوريه واصبح الآن عدد السكان العرب في المناطق التي لم تحتل ومساحتها ٧٠٠٠ كم وهي منطقتان :

المنطقة الاولى : في جبال السامرة ، ومدينة القدس القديمة ورام الله وبيت لحم ومنطقة الجليل .

المنطقة الثانية : في غزه وتمتد الى الحدود المصريه .

ويبلغ عدد السكان في المنطقة الاولى ٣٠٠,٠٠٠ نسمة من السكان الاصليين وقد ضمت هذه المنطقة الى المملكة الاردنيه الهاشميه التي يبلغ سكانها الاصليون ٤٢٠,٠٠٠ ، وقد نزح الى هذه المنطقة والاردن ٤٦٥,٠٠٠ نازح فاصبح سكان المملكة الاردنيه الهاشميه ١,١٨٥,٠٠٠ نسمة ويبلغ عدد السكان في المنطقة الثانيه (٨٠,٠٠٠) من السكان الاصليين و ٢٠٠,٠٠٠ من النازحين فصار عدد سكانها ٢٨٠,٠٠٠ نسمة ، وتشرف الجمهوريه المصريه على ادارتها .

ان سكان المنطقه المحتلة ومساحتها (٢٠,٠٠٠) كم وعدد سكانها الآن ١,٦٥٠,٠٠٠ منهم ١,٥١٢,٠٠٠ مغتصب يهودي والباقي من السكان الاصليين العرب .

وقد كانت فلسطين في عهد الانتداب الانكليزي مقسمة الى ستة الوية وهي :

١) لواء القدس ومركزه مدينة القدس
٢) لواء الخليل « « الناصرة
٣) لواء حيفا « « حيفا
٤) لواء السامرة « « نابلس
٥) لواء يافا « « يافا
٦) لواء الجنوب « « غزة

اما الآن فقد احتل القسم الاكبر منها شذاذ اليهود ، وقد ضم ما بقي من لوائي السامرة والقدس الى المملكة الاردنيه الهاشميه وتوحدت الضفتان الشرقية والغربية لنهر الاردن .

اما المملكة الاردنيه الهشميه فتنقسم الى اربعة الوية هي :

١ لواء عجلون ومركزه مدينه عجلون
٢ لواء البلقاء « « عمان
٣ لواء الكرك « « الكرك
٤ لواء معان « « معان

المدن الهامة في سورية الجنوبية هي :

القدس : وهي المدينه التاريخيه المقدسة عند المسلمين والنصارى فيها سجد الصخرة وكنيسة القيامة وقد انقسمت الى قسمين بعد الاحتلال الصهيوني فاخذ اليهود القسم الحديث من المدينة واحتفظ العرب بالقسم القديم .

حيفا : مدينه تجاريه كبيرة ، وبها مرفأ هام وتتصل بالداخل بطرق مواصلات حديدية وبريه ، وتنتهي عندها انابيب نفط كركوك التي قطعتها الحكومة العراقية بعد حوادث فلسطين سنة ١٩٤٨ .

يافا : مدينة تجارية وزراعية وصناعيه وبها مرفأ كبير وبقربها مدينة تل ابيب عاصمة الصهيونيين .

الناصرة : عاصمة لواء الخليل وهي مدينة مقدسة لميلاد المسيح عليه السلام فيها صناعة للقواقع والخشب

نابلس : عاصمة لواء السامرة وهي مدينة صناعية مشهورة بالزيت والصابون.

عمان : مدينه جبلية حديثة وهي عاصمة المملكة الاردنية الهاشمية وفيها صناعات الرخام والاسمنت ومركز تجاري.

عجلون : مدينه زراعيه تنتج الحبوب والزيت والفواكه المجففة والمشروبات ، وفيها آثار عتيقة .

معان : مدينة كبيرة على حافة الصحراء على الخط الحديدي الذاهب من دمشق الى المدينة وحولها بساتين ومزارع .

٨: **العراق** : ان المملكة العراقيه هي اقصى بلاد العرب من جهة الشرق وهي تشغل الشمال الشرقي من الجزيرة العربيه ويحدها من الشمال بلاد كردستان وتركيا ، ومن الشرق بلاد إيران وسلسلة جبال زاغروس (النجتباري) وسلسلة جبال كردستان ، ومن الغرب بلاد الشام وباديتها ، ومن الجنوب الخليج العربي ونجد والكويت وبادية الشام . ويخترقها النهران العظيمان ، الدجلة والفرات ، وارضها تشبه مثلثاً مرتفعاً من شماله ، ومنخفضة من جنوبه ومناخها بارد شتاء ، حار صيفاً ، ومعتدل في الخريف والربيع ، وهي كثيرة الامطار في الشتاء وهي في الشمال اكثر منها في الجنوب والوسط .

وتبلغ مساحتها ١٦٨,٤٠٠ ميل مربع ، وتزيد نفوس سكانها عن خمسة ملايين قليلا . وهي منقسمة طبيعياً الى قسمين :

احدهما : حجري جبلي وهو الواقع في الشمال.

وثانيها : ترابي رسوبي وهو الواقع في الوسط والجنوب وقد كان هذا القسم بحراً ولكن

الرواسب المائية حولته الى بر خصيب.

والعراق مقسم إدارياً الى اربعة عشر لواء وهي : ألوية بغداد ، والحلة ، وكربلاء ، والبصرة ، والمنتفك ، والديوانية ، والسليمانية ، والموصل ، وديالي ، والعمارة ، وكركوك، والكوت ، واربل . والديم .

وتربة العراق تربة خصبة جداً ، طيبة جداً ، كثيرة الماء الذي يأتيها من النهرين العظيمين دجلة والفرات اللذين ينبعان من تركية ثم يسيران جنوباً حتى يدخلا العراق ثم يقتربان من بعضهما في وسط العراق حيث تقع العاصمة – بغداد – على دجلة ، وبلدة الفلوجة على الفرات ، ثم يبتعدان سائرين جنوباً الى ان يعودا الى الاقتراب فالالتقاء التام عند (القرنة) حيث يسميان شط العرب ، ويصبان في الخليج العربي عند البصرة وفي العراق انهار أخرى كبيرة فرعيه تصب في دجلة واهمها الزابان الكبير والصغير ، والخابور ويصب في دجلة .

والعراق من اقدم بقاع الارض حضارة ان لم يكن اقدمها على الاطلاق ، بل ان الاكتشافات الاثرية الحديثة قد اثبتت ان القسم الشمالي منه كان مأهولا بالسكان في الدور الحجري الاول قبل اكثر من مائة وعشرين الف سنة كما اثبتت ذلك حفريات كهوف شاندار قرب مدينة (راوندوز) ويرجع عهدها الى ما قبل ستين الف سنة ، وحضريات بردة مالكة قرب مدينة جمجمال ، ويرجع عهدها الى ما قبل مائة الف سنة ، وقد اجمع علماء الآثار في العصر الحديث مؤخراً على ان آثار (تل حسونة) في شمالي العراق هي اقدم مهد للحضارات البشرية على سطح الارض وتاريخها يرجع الى ٥,٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، وهي اقدم عهداً من حضارة تل خلف التي كان يظن انها اقدم حضارات البشر .

وفي العراق قامت حضارات عديدة اجلها السومرية ، والاكادية ، والبابليه والعيلافية والاشورية ، والكلدانية واليونانية ، والفارسية والاسلامية والعباسية .

والعراق بلد زراعي خصيب ينبت الحبوب والاخضار والفواكه والاثمار والدهان والتمور. ويتعاطى اهله تربية المواشي وبخاصة الاغنام والابقار والجواميس والخيول ، والدواجن بكافة انواعها.

وأجل ثروات العراق الاقتصادية آتية من النفط الذي تنتجه آبار الزبير والبصرة وكركوك والموصل في الشمال . وفي أرض العراق معادن مخبوءة أجلها الحديد والفوسفور والفحم والملح والزفت ، والحص والذهب والفضة والنحاس والرخام .

والعراق ينقسم طبيعياً وجيولوجياً الى اقسام أما جيولوجيا فينقسم الى مناطق اربع :

المنطقة الاولى : ترجع الى الدور الاولى للقشرة الأرضية وهي موجودة في المناطق الشمالية على الحدود التركية وفي لوائي اربل والسليمانية .

المنطقة الثانية : ترجع الى الدور الثاني للقشرة الارضية وهي اراض من الزمن الطباشيري والجوراسي وهي موجودة في المناطق الشمالية ايضاً في لوائي اربل والسليمانية .

المنطقةالثالثة : ترجع الى الدور الثالث للقشرةالارضية وهي اراض من الزمن البركاني وهي موجودة في لواء الموصل والسليمانية .

المنطقة الرابعة : ترجع الىالدور الرابع للقشرة الارضية وهي غرينية وموجودة في سائر الوية العراق .

واما طبيعياً فينقسم الى أربع مناطق :

١ : منطقة الجبال والمرتفعات ويصل ارتفاع اكثرها علواً الى ٢٠٠٠ متراً فأكثر وهي موجودة في جبال الكرد الممتدة على مستوى جبال راغروس الايرانية

٢ : منطقة الهضاب والمرتفعات التي يصل علوها الى من ٦٠٠ متراً الى ١٠٠٠ متر وهي موجودة في الوية الموصل ، اربل ، والسليمانيه .

٣ : منطقة السهول ولا يزيد علو اكثرها ازيد من ١٠٠ متر عن سطح البحر وهي موجودة في الوية الموصل وسامراء .

٤ : منطقة المنخفضات والاهوار ولا يصل علو اكثرها الى اكثر من بضعة امتار وهي موجودة في الوية بغداد والحلة وكربلاء والديوانية والناصرية والعمارة ، والكوت ،والبصرة.

وينقسم اقتصادياً الى مناطق ست :

١ :**مناطق زراعة الفاكهة والدخان** : وهيموجودة في الوية الموصلوكركوكوالسليمانية

٢ :**مناطقالاقاليم الزراعية** : التي تنتج القمح والشعير والرز والقطن وهي موجودة في الوية الموصل والسليمانية وكركوك وبغداد ، والحلة والديوانية والكوت والناصرية .

٣ :**مناطق المراعي** : التي تكثر فيها المواشي وبخاصة الجمال والاغنام والماعز والخيول وهي موجودة في وادي الفرات وما بين النهرين .

٤ :**مناطق تربية الثيران والجواميس** :وهي موجودة فيالمناطق المائية المنخفضة والاهوار في الوية الديوانية والحلة ، والكوت والعمارة

٥ : **مناطق النخيل** : وهي موجودة في الوية الموصل وسامراء، وبغداد ، والحلة ، وكربلاء ، والناصرية والبصرة .

٦: **مناطق قاحلة ورملية** : وتصبح مراعي في سنوات الامطار ، وهي منتشرة في الوية الناصرية وكربلاء وسامراء . وتكثر فيها الغزلان والجمال.

وينقسم العراق ادارياً الى اربعة عشر لواء ذكرناها سابقاً ولكل لواء مقر حكومي يسمى المركز والالوية مقسمة الى اقضية والاقضية الى نواحي :

١: **لواء بغداد** : ومركزه العاصمة بغداد ينتظم ثلاثة اقضية هي : سامراء ، والكاظمية والمحموديه . ومن مدنه الكبيرة : بيجي ، وتكريت ، والدور ، وبلد ، وسميكة .

٢: **لواء كربلاء** : ومركزه مدينة كربلاء التاريخية المشهورة ومن المدن الكبيرة في هذا اللواء شثاثه والكوفة ، والنجف ، وخان جزعان ، وعنز.

٣: **لواء الحلة** : ومركزه مدينة الحلة وينتظم ثلاثة اقضية هي الهنديه والمسيب ، والهاشمية ، ومن مدنه الكبيرة المشهورة الحلة وبابل ، والمسيب ، والهاشمية .

٤: **لواء الديوانية** : ومركزه مدينة الديوانية وينتظم خمسة اقضية هي الديوانية ، والسماوة ، وعفك (عفق) ، والشامية ، وابو صخير ، ومن مدنه الكبيرة ، الدغارة ، والحمزه ، والرميثه ، ونقرة السلمان ، والتخاديد والفصص

٥: **لواء المنتفك** : ومركزه مدينة الناصرية وينتظم ثلاثة اقضية هي سوق الشيوخ ، والشطرة ، والرفاعي ، ومن مدنه الكبيرة : حلبية ، وخرائب اور القديمة ، ودراجي ، وقلعة سكر ، والكرادي ، والشيخ بدر والعبيشية.

٦: **لواء البصرة**: ومركزه مدينة البصرة وينتظم اربعة اقضية هي القرنة ، وابو الخصيب ، والمحمرة ، وسيبة . ومن مدنه الدورة ، والفاو .

٧: **لواءالعمارة** : ومركزه مدينة العمارة وينتظم قضائين احدهما قلعة صالح ، والثاني علي الغربي ، ومن مدنه ، علي الشرقي والشيخ سعد ، والعزيز او الكميت.

٨: **لواءالكوت** : ومركزه مدينة الكوت وينتظم ثلاثة اقضية هي الحي ، وبدره ، والصويره ومن مدنه العزيزية والنعمانية .

٩: **لواءديالى** : ومركزه مدينة بعقوبة وينتظم اقضية الخالص ، ومندلي ، وخانقين ومن مدنه قزل رباط ، وشهربان ، وبلد زور.

١٠: **لواء كركوك** : ومركزه مدينة كركوك ، وينتظم اربعة اقضية وهي كيل وكفرى ، وداقوق ، وخمجمال ، ومن مدنه الفتحة ، وطوز خرماتو .

١١: **لواء السليمانية** : ومركزه مدينة السليمانية وينتظم ثلاثة اقضية وهي حلبجه ،

وشهر بازار ، وبشدر ومن مدنه جوراتا .

١٢ : **لواء اربل (اربيل)** : ومركزه مدينة اربل وينتظم ثلاثة اقضية كوى سنجق ، ومخمور ولارنيه ، ومن مدنه ديره،وكوير ، واكتون كويرى ، وطقطق ، ورواندوز ، زيبار .

١٣ : **لواء الموصل** : ومركزه مدينة الموصل وينتظم سبعة اقضية وهي الشيخان ، ودهوك ، والعمادية وزاخو ، وتل اعفر ، وسنجار ، وعفره ومن مدنه البديع ، والداوودية ، وزمار ، وعين سفني ، وبعشيقه ، وتل كيف ، ونينوى ، وشورى ، والقياره ، والشرقاط ، والحضر ، واسكى موصل .

١٤ : **لواء الدليم** : ومركزه مدينة الرمادة وينتظم قضائي عانة،والفلوجة ومن مدنه القائم والحديثة ، وآلوس ، وهيت ، وجيه ، والامام حبيب .

وسكان العراق حضر وبدو ، فالحضر هم من العرب والكرد ، والترك ، والاشوريين . والبدو هم من قبائل طي ، وشمر ، والدليم ، والعنزة ، وربيعة ، والبومحمد ، والظيفر ، والحوازن وبني لام والجبور ، والمنتفك .

(٩) **مصر** : يحد مصر او الجمهوريه المصريه من الشمال البحر الابيض المتوسط ابتداء من العريش الى السلوم ، ومن الشرق فلسطين والحجاز والبحر الاحمر ابتداء من رفح الى العقبة الى رأس بناس ، ومن الجنوب السودان ابتداء من خليج ام الكتف شمالي خط الطول رقم ٢٢° الى وادي حلف ومن الغرب المملكة الليبية المتحدة ابتداء من السلوم حتى الصحراء الكبرى .

ويمتد البحر الابيض المتوسط على الساحل الشمالي بطول ٨٧٠ كيلو متراً من العريش الى السلوم ، كما يمتد البحر الاحمر على طول ١٣٠٠ كيلومتر من العقبة الى رأس بناس وهو ساحل صحراوي مقفر . ومساحة مصر تقرب من مليون كم . وتنقسم الى قسمين عظيمين يسمى الاول الوجه القبلي ويسمى الثاني الوجه البحري .

وتنقسم الجمهورية المصرية طبيعياً الى اربع مناطق هي :

١ : **المنطقة الاولى** : منطقة الجبال المرتفعة اكثر من الف متر وتقع في شبه جزيرة سيناء عند الطور .

٢ : **المنطقة الثانية** : منطة الجبال والهضاب العاليه وتمتدعلى طول ساحل البحر الاحمر .واعلى

بقاعها جبل الجلالة البحرية والقبلية .

٣: **المنطقة الثالثة:** منطقة السهول الغرينية وتتكون من وادي البتل ودلتاه .

٤: **المنطقة الرابعة** : وهي منطقة الصحراوات وتكتنف منطقة السهول في ضفتي النيل الشرقيه والغربيه وجبال مصر تنقسم الى قسمين (١) السلسلة الشرقية (٢) السلسلة الغربية ويفصل بينهما وادي النيل ودلتاه والدلتا عبارة عن سهل غريني مستو طيب الارض يمتد ما بين رأس السلسلتين الى البحر ، ويختلف وادي النيل في اتساعه من ميل الى عشرة اميال تعلوه من جهته الشرقية الجبال او الهضاب الشرقية التي يتعدد اسماؤها بحسب مواضعها واشهرها جبل ابي شجر ، جبل السلسلة في مديرية اسوان ، وجبل الطوق في مديرية قنا ، وجبل الشيخ الهريدي في جرجا ، وجبل ابي فودة في اسيوط ، وجبل الطير في المينا ، وجبل الزخام في بني سويف ، وجبل الاخضر في الفيوم ، وجبل طره ويشكر والمقطم في مصر،والجبل الاخضر في العباسية ، وجبل عتاقة في السويس ، اما الجبال التي تعلو من جهته الغربية فتسمى جبال او هضاب او تلال ليبيا وهي ممتدة حتى صحراء ليبيا .

وفي مصر اربع بحيرات كبيرة ثلاث منها على ساحل البحر الابيض المتوسط وهي بحيرة المنزلة ، والبرلس ، ومريوط ، ورابعة في الفيوم ، ويقال لها بحيرة قارون او القرن ، ويلحق بها عدد كثير من الجزر الصغيرة اكبرها جزائر : طيران ، وصنافير ، وشدوان ، وجفاتمين ، وصفاجه .

ومصر هي هبة نهر النيل العظيم وقد تقدم الكلام عليه . وفي مصر كثير من الواحات اشهرها واحة سيوه ، والبحرية ، والفرافرة ، والداخلة ، والخارجة . ودنقل .

وفيها من الصحراوات : صحراء البته في شبه جزيرة طورسيناء ، و الصحراء الشرقية وتقع بين البحر الاحمر وضفة نهر النيل الشرقية والصحراء الغربية وتقع بين ضفة النيل الغربية وصحراء ليبيا .

وهي مقسمة ادارياً الى ستة محافظات واربع عشرة مديرية . فالمحافظات هي :

القاهرة ، والاسكندرية ، والقنال ، ودمياط ، والسويس ، والحدود .

والمديريات هي قسمان : مديريات الوجه البحري وهي :

البحيرة ، والشرقية ، والغربية ، والدقهلية ، والقليوبية والمنوفيه .

ومديريات الوجه القبلي هي :

اسيوط ، واسوان ، وبني سويف ، والفيوم ، وجرجا ، والجيزة ، وقنا ، والمينا .

واعظم هذه المديريات مساحة هي الشرقية والغربية والبحيرة ، ثم الدقهلية ثم المنوفية والفيوم والقليوبية وبني سويف .

١ : **المديرية الشرقية** تقع شرقي الجمهورية بين قناة السويس شرقاً والدقهلية غرباً ومركز المديرية في مدينة الزقازيق . ومن مدنها الكبيرة بلبيس ، وههيا ، وكفر صقر ، وابو كبير والصالحية وحان الحجر ، وفاقوس ، وانشاص الرمل ، والقرين.

٢ : **المديرية الغربية** :وتقع بين الدقهلية شرقاً والبحيرة غرباً ومركزها مدينة طنطا ومن مدنها الكبيرة فوه ، وكفر الشيخ وشربين ، والبلقاس ، والمحلة الكبرى ، وزفتى ، والسنطة وكفر الزيات والحامول وبلطيم ومحلة روح ، والكوم الطويل ودسوق .

٣: **مديرية البحيرة** : وتقع بين المديرية الغربية شرقاً والحدود الليبية غرباً. ومركزها مدينة دمنهور ومن مدنها الكبيرة رشيد ، والمحمودية ، وكوم حمادة ، والدلنجات ، وابو المطامير ، وكفر الدوار والعامرية ، وتدريبة ، ايتاي البارود .

٤ : **مديرية الدقهلية** : وتقع بين المديرية الشرقية والمديرية الغربية ومركزهامدينة المنصورة ومن مدنها الكبيرة دكرنس ، والمنزلة ، والسنبلاوين ، وسنفا ، ومنية غمر ، وصهرحت الكبرى وفارسكور .

٥: **مديرية المنوفية** : وتقع بين المديرية الغربيةشمالا ومديرية القلبوبيةشرقاًومركزها شبين الكوم ومن مدنها الكبيرة قويسنا ، وتلا ، ومنوف ، واشمون .

٦ : **مديرية الفيوم** : وتقع في الضفة الغربية للنيل غربي مديريتي الجيزة وبني سويف ومركزها مدينة الفيوم ومن مدنها الكبيرة طامية ، وسنورس ، واطسا ، وابو كساء والشواسنه .

٧ : **مديرية القليوبية** : وتقع شمالي محافظة القاهرة وشرقي مديرية المنوفية ومركزها مدينة بنها ومن مدنها الكبيرة طوخ ، وشبين القناطر ، وشبرا ، وابو زعبل وقليوب .

٨: **مديرية الجيزة** : وهي الواقعة جنوبي القاهرة ومركزها مدينة الجيزة ومن مدنها الصفا ، وحلوان ، وانبابه ، والقناطر الخيرية والعياط واطفيح .

٩: **مديرية بني سويف** : وهي الواقعة جنوبي الجيز ة ومركزها مدينة بني سويف

ومن مدنها ، الواسطي وببا ، واللاهون .

١٠ : **مديرية المنية** : وهي الواقعة جنوبي بني سويف ومركزها مدينة المنية ومن مدنها القش ، ومفاغه وسملوط وبني مزار .

١١ : **مديرية اسيوط** : وهي واقعة جنوبي المنية ومركزها مدينة اسيوط ومن مدنها الكبيرة ملوى وديروط ، ومنفلوط ، وابنوب ، وابو تيج ، والبداري .

١٢ : **مديرية جرجا** : وهي واقعة جنوبي اسيوط ومركزها مدينة سوهاج ومن مدنها جرجا وطهطا واخميم والبليتا .

١٣ : **مديرية قنا** : وهي واقعة جنوبي جرجا ومركزها مدينة قنا ومن مدنها الكبيرة دشنا ، ونجع حمادي وقوص والاقصر واسنا .

١٤ : **مديرية اسوان** : وهي واقعة جنوبي جرجا في اقصى الجنوب ومركزها مدينة اسوان ومن مدنها ادمو والعلاقي وكرسكووالدر ، وارنداان .

اعظم مدن القطر المصري هي :

القاهرة : عاصمة القطر المصري اسسها جوهر الصقلي سنة ٣٥٩ هـ (٩٦٩ م) قائد جيوش الخليفة المعز لدين الله الفاطمي وانشأ بها الجامع الأزهر ، وهي شمالي مدينة مصر القديمة (الفسطاط) التي شيدها القائد الفاتح عمرو بن العاص على الشاطيء الأيمن للنيل في جنوبي الدلتا . وهي من المدن التاريخية في الاسلام ، بل هي اصل مدن الاسلام آثاراً واكثرها مواضع للزيارة ، وتحتوي على سلسلة من الآثار والمعاهد التي تصور كافة العصور الاسلامية ، فضلاً عن المتاحف التي تصور حضارة وادي النيل العريقة . وهي مدينة كثيرة الحدائق ، جميلة المباني ، ذات مركز تجاري ممتاز ، وفيها عدد كبير من المعامل والمصانع والمؤسسات العلمية والثقافية التي تغذي العالمين العربي والاسلامي . وفيها مقر جامعة الدول العربية وهي مركز محافظة القاهرة .

الاسكندرية : هي عاصمة القطر قديماً اسسها القائد الاسكندر المقدوني في سنة ٣٣٢ ق.م ، وكانت دار العلم والحكمة والعرفان في عهد مصر البطليموسية ، وظلت كذلك حتى تأسيس مدينة الفسطاط فاحتلت مكانها ، وتقع الى الغرب من فرع رشيد ، وهي من اعظم موانيء بلاد العرب في البحر الأبيض المتوسط ، وذات مركز تجاري عظيم بين اوربا ومصر بل والعالم العربي عامة ، وفيها كثير من القصور

والحدائق والمتاحف والمعاهد والمصانع .

دمياط : تقع على الشاطيء الشرقي للنيل وهي مقر المحافظة ، ولها علاقات تجارية كبيرة مع البلاد العربية المجاورة وبخاصة ديار الشام وآسية الصغرى وبلاد اليونان ، وهي ثاني ميناء في القطر المصري بعد الاسكندرية .

بور سعيد : مدينة كبيرة جميلة على شاطيء البحر الأبيض المتوسط في مدخل قناة السويس اسسها محمد سعيد خديوي مصر حين حفر القناة سنة ١٢٧٧ هـ (١٨٥٩ م) . وهي مشهورة باسماكها وصناعاتها وتجارتها . وقد دخلت باب الامجاد في مقاومتها الباسلة للعدوان الانكليزي الفرنسي الاسرائيلي الأخير على مصر .

السويس : مدينة كبيرة ، ذات اهمية تجارية عالمية ، تقع على ساحل البحر الاحمر في مدخل قناة السويس قرب اطلال مدينة القلزم القديمة ، وبقربها وادي التيه وعيون موسى ، وهي من المدن المشهورة بالمصايد والمتاجر .

دمنهور : مدينة لطيفة تقع على مرتفع بين الاسكندرية وطنطا ، وهي مركز مديرية البحيرة ، ومركز كبير للتجارة وبخاصة تجارة الاقطان وصناعاتها ، وقد تخرج منها جماعة من الأئمة والعلماء .

طنطا : هي ثالث مدن القطر المصري سعة ، ومن اكبر مديريات الوجه البحري وهي مشهورة باثارها التاريخية وبخاصة مسجد الشيخ احمد البدوي الصوفي المعروف، وهي مركز السكك الحديدية التي تنطلق الى جميع مدن الوجه البحري .

شبين الكوم : وهي مدينة تجارة زراعية كبيرة ، وتعد من مدن المنوفية تبلغ نفوسها نحواً من خمسة وعشرين الف نسمة .

المنصورة : وهي مدينة كبيرة على ساحل فرع النيل الدمياطي وعندها اسر لويس التاسع ملك فرنسة في حملته الصليبية على مصر في سنة ١٢٤٩ م ، وهي مشهورة بتجارتها واسماكها .

١٠) : **السودان** : يقع السودان او الجمهورية السودانية جنوبي القطر المصري ويوحد بينهما النيل وكثير من المرافق والتاريخ المشترك ويحدها شمالاً خط يبدأ عند الدرجة ٢٢° من خطوط العرق الشمالية ، وشرقاً البحر الأحمر والأرتيرية والحبشة وجنوباً بلاد الكونغو واوغنده ، وغرباً بلاد الكونغو ايضاً .

وتبلغ مساحة هذه الجمهورية نحواً من مليون ميل مربع . وتنقسم طبيعياً الى مناطق اربع :

١) : منطقة الغابات الكثيفة وتقع الجنوب .
٢) : منطقة التلول والهضاب والمرتفعات وتقع شمالي منطقة الغابات وهي غنية بمروجها وبمراعيها .
٣) : منطقة السهول والمروج وتقع شمال منطقة التلول .
٤) : منطقة الصحراوات وتقع شمالي منطقة السهول والمروج وهي غير مأهولة على الأغلب .

وطبيعي ان يزهد الناس في سكنى الشمال لأنهم يتجمعون حول المراعي والمياه ، اما في مديريتي كزدفان ودارفور في الجنوب الغربي فتقل السكان شمالا لانها شبه صحراوية ، ويكثرون في الجنوب والوسط لان فيهما مروجاً ، واما في الشمال الشرقي حيث مديرية كسلا فبلاد شبه صحراوية قليلة السكان وبخاصة في الشمال ، ويخف الجدب على الجبال في الجنوب .

والسودان هو عطية النيل ايضاً يسير فيه من أقصى جنوبه ويخترقه شمالا حتى يدخل ارض مصر ، وارض السودان ارض سهلة منبسطة في الغالب وفي شرقها جبال الحبشة والنوبة واعلاها جبل بواطي الذي يبلغ ارتفاعه ١٧٣٦ متراً ، وفي غربها هضاب دارفور .

وتنقسم الجمهورية السودانية اداريا الى تسع مديريات .

١ – **مديرية السودان الشمالي** : وهي اعظمها مساحة وتقع جنوبي مديرية اسوان المصرية ومركزها مدينة دبقلة ، ومن مدنها الكبيرة وادي حلفا ، وابو حمد ، ومروى ، والدام ، والخندق وعبطره .

٢ – **مديرية كسلا** : وهي واقعة بين البحر الأحمر ومديربة السودان الشمالي ومركزها مدينة لسلا ومن مدنها الكبيرة الغلابات ، وبور سودان اعظم موانيء الجمهورية وهي على البحر الاحمر .

٣ – **مديرية الخرطوم** : هي مديرية صغيرة الرقعة تقع بين مديريات كسلا والنيل الأزرق ، والنيل الأبيض ، وكردفان والسودان الشمالي ، ومركزها الخرطوم ، عاصمة الجمهورية . ومن مدنها الكبيرة : ام درمان .

٤ – **مديرية النيل الأزرق** : وتقع بين مديرية كسلا والحبشة ، والنيل الأبيض ، والخرطوم ومركزها مدينة وادي مدنى ، ومن مدنها الكبيرة سنار .

٥ – **مديرية أعالي النيل** : وتقع بين الحبشة ، ومديريات النيل الأزرق

وكردفان وبحر الغزال ، وخط الاستواء ومركزها مدينة سلكال .

٦ — **مديرية كردفان** : وتقع في وسط الجمهورية بين مديريات الخرطوم والسودان الشمالي والنيل الأزرق وأعالي النيل وبحر الغزال ودارموز ، ومركزها مديرية الأبيض ومن مدنها الكبيرة الهنود ، الدويم ، كوستّي ، تالودي .

٧ — **مديرية دارموز** : وتقع بين مديرية كردفان وافريقية الاستوائية ومركزها مدينة الفاشر .

٨ — **مديرية بحر الغزال** : وتقع بين مديريات أعالي النيل ، وخط الاستواء ، ودارفور ومركزها مدينة كفيا كنجي .

٩ — **مديرية خط الاستواء** : وتقع في أقصى بلاد الجمهورية بين الحبشة ، ومديريات أعالي النيل وبحر الغزال ، والكونغو ، واوغنده وكينيا . ومركزها مدينة جودا .

أجمل مدن القطر السوداني هي :

الخرطوم : العاصمة وهي مقر مديرية الخرطوم وهي مدينة جميلة الموقع ، كثيرة المرافق التجارية تقع عند ملتقى النيل الأزرق بالنيل الأبيض أسست أيام محمد علي خديوي مصر ويبلغ عدد سكانها نحواً من مئة الف نسمة أكثرهم عرب ، وفيها ، معاهد عالية ومؤسسات ثقافية .

دنقلة : هو مقر مديرية السودان الشمالي ، تقع على الساحل الغربي للنيل ، وجوها رديء .

بربر : او بربر المخيرق ، وهي واقعة على ضفة النيل في مديرية السودان الشمالية ومشهورة بمصانع الصوف والحرير والدباغة ، وعندها حدثت الواقعة بين المهدي وغوردون سنة ١٨٨٤ .

الأبيض : هي مدينة كبيرة تجارية ومقر مديرية كردفان .

سنار : من اخصب مدن السودان ارضاً ، واكثرها خيرات تقع على الساحل الأيسر للنيل الأزرق (١) .

١١) : — **ليبيا** : المملكة الليبية المتحدة او ليبا او لوبيي احدى دول العالم العربي ويحدُّها من الشرق مصر ، ومن الغرب المملكة التونسية ، وبلاد الجزائر

---

(١) راجع كتاب « السوداني الشمالي » للدكتور محمد عوض محمد طبع القاهرة سنة ١٩٥١ وكتاب : Robin Hadkiu, Sudan Geography p. 83.

ومن الشمال البحر الأبيض المتوسط ، ومن الجنوب الجمهورية السودانية ، وافريقية الغربية الافرنسية .

وهي مقسمة الى ثلاث ولايات :

١ — **ولاية برقة** : في شرق البلاد وتبلغ مساحتها نصف المملكة تقريباً .

٢ — **طرابلس الغرب** : في الشمال الغربي من البلاد .

٣ — **فزّان** : في الجنوب الغربي من البلاد .

واقليم هذه المملكة سهل صحراوي فيه بعض الواحات الكبيرة والاراضي الخصبة وليس في ليبيا نهر دائم الجريان ، ولكن فيها اودية سيلية تخترق بعض بقاع برقة وطرابلس واخصب بقاعها هي الجد البرقاوي ، وتلال طرابلس ، ولكن الصحراوات الجافة تسيطر على اكثر بقاع ليبيا غير ان اكثر بقاع ليبيا تتخلله الواحات واشهرها واحات جغبوب وجالو واوجله ، وكفرة في الشرق ، وغداس ، وسها ، وفزّان ، ومرزوق ، والفات ، والقطرون في الغرب .

وبلاد ليبيا قليلة الجبال فيها شيء من التلول العالية ، واعلاها هو (ناب المدروح) الذي يبلغ ارتفاعه نحواً من الف متر ، وتليه في الارتفاع تلال غريان ونفوسه ، وسلسلة الهدروج .

ومناخ ليبيا معتدل على وجه العموم ، الا انه كثير الرطوبة في الساحل ، وحار جاف في الداخل .

واقتصاديات ليبيا جيدة ، فهي بلاد زراعية تنتج الفواكه وبخاصة التمر والزيتون واللوز . وتجيد صناعة النسيج القطني والصوفي ، وتربية المواشي والدواجن .

أعظم مدن المملكة الليبية هي :

طرابلس الغرب : العاصمة ، وهي ميناء تجاري كبير على ساحل البحر الأبيض المتوسط بالقرب من حدود المملكة التونسية ، وفيها آثار تاريخية جليلة ، وأبنية لطيفة حديثة ، ومعاهد علمية حديثة الانشاء ، ويبلغ عدد سكانها خمسين الف نسمة .

بنغازي : او بنو غازي وهي من أكبر مدن المملكة الليبية ومن أعظم موانئها تقع على خليج سدرة ويبلغ عدد سكانها ٤٠ الف نسمة ، وتصدر الحبوب والماشية .

درنة : مدينة حسنة على ساحل البحر الأبيض المتوسط بالقرب من الحدود

المصرية ، ويبلغ عدد سكانها ٢٥ الف نسمة .

مرزوق : هي مقر ولاية فزّان في الجنوب ، وهي ملتقى القوافل التجارية الذاهبة الى السودان ويبلغ عدد سكانها نحواً من عشرة آلاف نسمة .

طُبرق : مدينة صغيرة على ساحل البحر الأبيض المتوسط بين مدينة السلوم المصرية ، ودرنة الليبية ويبلغ عدد سكانها نحواً من خمسة آلاف نسمة . وقد اشتهرت في الحرب العالمية الثانية بالحادثة الكبيرة التي جرت فيها بين الحلفاء والألمان بين سنتي ١٩٤٠ — ١٩٤٢ .

مسراتة : مدينة صغيرة على ساحل البحر الأبيض المتوسط شرقي مدينة طرابلس .

سوسة : هي مدينة جميلة أثرية فيها تمثال إله الفن والشعر عند اليونان (Apollo) .

لبدة : مدينة من اقليم طرابلس ، وقد كانت في العهد الروماني عاصمة للامبراطورية الرومانية ، وهي مسقط رأس الامبراطور الروماني سبتيموس سفيروس وهي من أغنى المدن الليبية ، تصدر الزيت والتمر . وقد ذكرها ياقوت الحموي في معجم البلدان .

صبراته : هي شقيقة مدينة لبدة التاريخية وهي غنية أيضاً بالآثار .

سيرنى : تقع على تل عال شرقي برقة ، وهي غنية جداً بالآثار الرومانية الجميلة وفيها متحف غني ينطق بعظمة هذه المدينة خلال عصور التاريخ .

زواره : بلدة على ساحل البحر في إقليم طرابلس ، يبلغ عدد سكانها نحواً من اثني عشر الف نسمة مشهورة بصيد الأسماك [١] . .

الشمال الافريقي العربي

ان الشمال الافريقي العربي باقطاره الاربعة ليبيا وتونس والجزائر ومراكش يكاد يكوّن منطقة واحدة في جغرافيتها الطبيعية ، وكأنها بلد واحد في اقليمه وتضاريسه وطبيعة ارضه ، ويمكن تقسيم هذه الديار من الناحية الطبيعية الى ثلاثة اقسام :

١ — اقليم الساحل ويسمونه (التل) وهو عبارة عن سهول زراعية خصبة غنية باشجار الفاكهة والزيتون وزراعة التبغ .

٢ — اقليم المرتفعات من هضاب وجبال يبلغ متوسط ارتفاعها نحواً من الف

«١» راجع كتاب حاضر العالم الاسلامي نشره الأمير شكيب أرسلان ، وتاريخ ابن غليون ، وكتاب «برقة الدولة الثامنة» .

متر ، وفي هذه المنطقة بعض البحيرات ، والسهول الممرغة .

٣ ـ اقليم الصحراوات واعظمها الصحراء الكبرى وهو الجزء الذي يلي المرتفعات جنوباً ، وهو اقليم قاحل ما عدا بعض الواحات والسهول الوقتية .

وجو هذه الديار جو معتدل فيما يلي الجبال وخاصة الاطلس شمالا ، وبارد اقليم المرتفعات ، وحار في اقليم الصحراء .

اما تقسيمات هذه الديار السياسية فهي كما يلي :

١٢) : **تونس** : ان المملكة التونسية منطقة صغيرة في الشمال الافريقي ، ولكنها غنية بتربتها ، مشهورة بتاريخها وآثارها ، يحدها من الشمال البحر الابيض المتوسط ومن الشرق البحر الابيض المتوسط والمملكة الليبية ومن الغرب القطر الجزائري ، ومن الجنوب الصحراء الكبرى .

وتبلغ مساحتها نحوا من (١٥٥) الف كم٢ .

ويمكن تقسيمها طبيعياً الى مناطق اربع :

١ ـ منطقة التل التونسي في شمال البلاد وهو عبارة عن انجاد وهضاب متسلسلة يمتد الى أسفل منحدرات جبال الاطلس ، وتحتوي على اودية وسهول مخصبة غنية

٢ ـ منطقة الجبال المرتفعة التي يبلغ علوها (١٥٠٠) متر . وهي منطقة تتاخم القطر الجزائري وأشهرها جبال المجردة ، وطبرسق وجبال طبسه ، ويتخللها بعض الأودية والسيول المائية .

٣ ـ منطقة السهول الساحلية الممتدة على طول الساحل في منطقة طبرقة ، وتونس ، وسفاقس .

٤ ـ منطقة الصحراوات المتصلة بالصحراوات الكبرى جنوباً .

وهي مقسمة إدارياً الى تسع عشرة مراقبة مدنية (Contrôles civils) **وهي** :

١ ـ **مراقبة قرنباليه** : وهي مكونة من إقليم شبه جزيرة قرنباليه الواقعة بين خليج مدينة تونس وخليج نابل وسوسه . ومركز هذه المراقبة مدينة قرنباليه ، ومن مدنه الكبيرة نابل .

٢ ـ **مراقبة تونس** : وهي على الشاطىء بين مراقبتي بنزرت ، وقرنباليه ، وفيها العاصمة تونس ، ومن مدنها الكبيرة محايز الباب .

٣ ـ **مراقبة بنزرت** : وهي أقصى المراقبات شمالا تقع بين الساحل الشمالي ومراقبة تونس ومركزها مدينة بنزرت ، ومن مدنها مدينة ماطر .

٤ — **مراقبة باجة** : وهي مراقبة صغيرة واقعة بين مراقبتي بنزرت وسوق الأربعاء . ومركزها مدينة باجة .

٥ — **مراقبة طبرقة** : وهي مراقبة صغيرة على الساحل الشمالي تقع بين مراقبتي با ة وسوق الأربعاء ومركزها مدينة طبرقة .

٦ — **مراقبة سوق الأربعاء** : وهي مراقبة متوسطة تقع بين مراقبتي طبرقة وباجه ، وبين القطر الجزائري ومركزها مدينة سوق الأربعاء .

٧ — **مراقبة مجاز الباب** : وهي مراقبة متوسطة يحيط بها مراقبات تونس وبنزرت وباجة وطبرسق ومكثر وزغوان . ومركزها مدينة مجاز الباب .

٨ — **مراقبة الكاف** : وهي مراقبة متوسطة تقع بين مراقبتي طبرسق ، ومكثر ، وبين القطر الجزائري ومركزها مدينة الكاف .

٩ — **مراقبة مكثر** : وتقع بين مراقبتي الكاف وزغوان ومركزها مدينة مكثر .

١٠ — **مراقبة زغوان** : وتقع بين مراقبات سوسة وقرنبالية ، ومجاز الباي ، ومكثر ، والقيروان ومركزها مدينة زغوان .

١١ — **مراقبة سوسة** : وتقع على الساحل بين مراقبات المهدية ، والقيروان وزغوان وقرنبالية ، ومركزها ميناء سوسة .

١٢ — **مراقبة القيروان** : وتقع بين مراقبات سوسة وزغوان ومكثر والمهدية ومركزها مدينة القيروان .

١٣ — **مراقبة القصرين** : وتقع على الحدود الجزائرية ومركزها مدينة القصرين .

١٤ — **مراقبة المهدية** : وتقع على الساحل الشرقي ومركزها ميناء المهدية .

١٥ — **مراقبة صفاقس** : وتقع على الساحل الشرقي ومركزها ميناء صفاقس .

١٦ — **مراقبة قفصه** : وتقع جنوبي القصرين على الحدود الجزائرية ومركزها مدينة قفصة

١٧ — **مراقبة توزر** : وتقع جنوبي القصرين على الحدود الجزائرية ومركزها مدينة توزر ومن مدنها مدينة نفطر .

١٨ — **مراقبة قابس** : وتقع على الساحل الشرقي على خليج قابس ومركزها ميناء قابس .

١٩ — **مراقبة الجنوب الصحراوية** : وتقع في اقصى البلاد جنوباً بين المملكة الليبية والقطر الجزائري ويتبعها جزيرة جربة ومن مدنها حومة السوق .

اشهر المدن التونسية هي :

تونس : العاصمة وهي مرفأ البلاد وثاني مرافيء الشمال الأفريقي ، تقع على خليج يعرف بها ، وهي من اصل مدن الشمال الافريقي تاريخاً وآثار ، ومعاهد ، وتجارات ، ويبلغ سكانها نحواً من اربعمئة الف نسمة .

بنزرت : هي ميناء حصين عسكري في الساحل الشمالي ، ويبلغ عدد سكانه نحو ثلاثين الف نسمة .

القيروان : هي عاصمة البلاد قديماً ، وتقع في الوسط وهي مدينة معروفة في تاريخها وآثارها انشأها الفاتح عقبة بن نافع سنة ٦٧٠ م وبلغت اوجها في عهد الاغالبة في القرن الثالث للهجرة فصارت داراً للصناعة ومحطاً للقوافل ، ومركزاً للتجارة ، وهي مشهورة بجامعها الكبير ويبلغ عدد سكانها نحواً من اربعين الف نسمة .

صفاقس : مرفأ تجاري كبير يقع على الساحل الشرقي ، شهيرة بمركزها التجاري والزراعي يبلغ عدد سكانها ٣٥ الف نسمة .

سوسة : مرفأ تجاري كبير على الساحل الشرقي ، وهي مشهورة بمركزها الطبيعي الجميل وتاريخها القديم ويبلغ سكانها (٣٥) الف نسمة وهي غنية بمصانع الزيوت .

قابس : مرفأ تجاري كبير على الساحل الشرقي في جنوبيه ويبلغ سكانها العشرين الف نسمة ، بجوارها واحات خصيبة غنية . وهي عريقة في تاريخها .

المهدية : مدينة تاريخية انشأها المهدي عبيد الله في سنة ٩٢١ م وهي من المرافيء التجارية المهمة .

١٣) : **القطر الجزائري** : هو قطر واسع في الشمال الافريقي يحده من الشمال البحر الأبيض المتوسط ومن الشرق المملكة التونسية ومن الغرب ، المملكة المراكشية والبحر الأبيض المتوسط ومن الجنوب الصحراء الكبرى .

وينقسم القطر طبيعياً الى مناطق ثلاث :

١) **منطقة التل** : وهي الواقعة بين سلاسل جبال الاطلس ، والبحر الابيض المتوسط ، وهي منطقة خصبة صالحة لزراعة الحبوب والفاكهة والأقطان .

٢) **منطقة الانجاد** الداخلية المعشوشبة وهي مناطق واسعة غنية بالمروج والمراعي الصالحة لتربية المواشي والجمال ، وفي هذه المنطقة بحيرات مالحة .

٣) منطقة سلاسل جبال الاطلس الصحراوية وهي مقفرة قاحلة الا ان بعض الواحات تتخللها .

وينقسم القطر اداريا الى ثلاث مقاطعات كبرى وهي : الجزائر ، وقسطنطنية ، ووهران ويليها اربع مقاطعات هي : تقرت ، وغرداية ، والعين الصفراء ، والواحات.

١) **مقاطعة الجزائر** : تقع في شمال القطر على الساحل بين مقاطعتي قسطنطنية شرقاً ووهزان غرباً ، ومركزها (مدينة الجزائر) ومن مدنها الكبيرة ، تدليس ، والمدينة ونجاري ، وهاروي ، ورايبل ، وبنو منصور ، وملياته ، واورليانزفيل .

٢) **مقاطعة قسطنطنية** : وتقع بين الحدود التونسية ، والبحر الابيض المتوسط ومقاطعة الجزائر ومركزها مدينة قسطنطينية ، ومن مدنها الكبيرة سوق اهراس ، وبطنا ، وخنشلة ، وبسكرة ، وجولما ، وقليب قيل .

٣) **مقاطعة وهران** : وهي واقعة بين مقاطعة الجزائر والبحر الابيض المتوسط . والمملكة المراكشية ومركزها مدينة وهران ، ومن مدنها الكبيرة صيدا ، ومعسكرة ، ومستفائم ، وارزيو وغليزات ، وتيارث ، وسيدي بلعباس ، وتلمسان ، وبدو ، والعريشة ، وبنو صاف .

٤) **مقاطعة تقرت** : وتقع بين الحدود التونسية ومقاطعتي قسطنطينية وغرداية ومركزها مدينة تقرت ، ومن مدنها الكبرى تلجا ، ومغير ، والور .

٥) **مقاطعة غرداية** : وتقع في الوسط بين مقاطعتي تقرت ، وعين الصفراء . ومركزها غرداية ومن مدنها بريان ، والاغواط ، والجلفة .

٦) **مقاطعة عين الصفراء** : وتقع عن الحدود المراكشية بين مقاطعتي وهران وغرداية ومركزها مدينة عين الصفراء ، ومن مدنها الكبيرة العريشة ، وبوكتب ، وكولم بشار ، وجرى قيل ، ومشرية .

٧) **مقاطعة الواحات الجنوبية** وتقع جنوبي البلاد على حدود الصحراء ومركزها مدينة وارقلة . واعظم مدن الجزائر هي :

مدينة الجزائر : وهي عاصمة القطر وسكانها ٣٥٠ الف نسمة وفيها ميناء تجاري كبير وجامعة .

مدينةوهران : مدينة تجارية جديدة سكانها ٢٥٠ الف نسمة وفيها ميناء تجاري يضاهي الجزائر .

مدينة قسطنطينة : مدينة تجارية كبيرة عدد سكانها ١٣٠ الف نسمة، وهي مدينة اسلامية غنية

مدينة بونة : واسمها العربي هو عنابة وهي مرفأ هام بالقرب من قسطنطينية ويزيد عدد سكانها على مئة الف نسمة.

مدينة تلمسان : مدينة داخلية كبيرة بالقرب من مراكش نفوسها نحو سبعين الف نسمة وهي مدينة اسلامية ومصيف مشهور.

١٤) : **مراكش** : ان المملكة المراكشية هي مملكة عظيمة واسعة في اقصى المغرب العربي ويحدها من الشمال البحر الابيض المتوسط ومضيق جبل طارق ، ومن الغرب المحيط الاطلسي ، ومن الجنوب الصحراء الكبرى ومن الشرق القطر الجزائري وقد جزأها الاستعمار الى ثلاثة اقسام :

١) : **منطقة طنجة الدولية** : وتقع في الغرب عند مدخل جبل طارق وتبلغ مساحتها ٥٨٥ كم وعدد سكانها ١٥٠ الف نسمة

٢) : **منطقة الريف** : وتقع في الشمال وهي تحت النفوذ الاسباني ويحكمها ظاهراً خليفة للملك مراكش ومساحتها ٤٨ الف كم وعدد سكانها مليون وربع مليون نسمة.

٣) : **منطقة مراكش** : وهي القسم الاعظم من المملكة وهي تحت النفوذ الفرنسي ولكن السلطان سيدي بن محمد بن يوسف دائب على تقليم اظفار المستعمرين الفرنسيين ومساحتها ٤٢٠ الف كم ، وعدد سكانها تسع ملايين نسمة .

ومراكش هي اغنى بلاد المغرب العربي بزراعتها وطيب تربتها وكثرة مياهها ، وسعة سهولها وكثرة معادنها . واقليمها متأثر بمناخ المحيط الاطلسي والصحراء والبحر الابيض المتوسط ، وتقسم جبال الاطلس البلاد المراكشية الى قسمين متميزين :

الاول : قسم السهول والنجود الاطلسية في الغرب وهي مناطق خصبة كثيرة الامطار والمزارع ، تنتج الحبوب والاقطان والفواكه والزيتون والكرم.

الثاني : قسم الهضاب شبه الصحراوية في الشرق ، وهي غنية بمراعيها ومواشيها واكبر المدن المراكشية هي :

الرباط : وهي العاصمة السياسية ولها ميناء حديث ، وموقعها من اهم المواقع ، وفيها عدد من المعاهد والحدائق والقصور والمساجد التاريخية الجميلة وفيها من السكان ٢٢٠,٠٠٠ نسمة .

الدارالبيضاء : هي العاصمة الاقتصادية ومن اكبر مدن المغرب واكبر ميناء مغربي بل أكبر ميناء افريقي على المحيط الاطلسي وسكانها نحو ٢٠٠,٠٠٠ نسمة وفيها صناعات الفوسفات والجلد والاسمت والاغذية .

مراكش : هي عاصمة الجنوب وسكانها نحو ٢٤٠,٠٠٠ نسمة وهي غنية بثمورها ومصانع جلودها .

فاس : مدينة اسلامية اثرية قديمة سكانها نحو ٢٠٠,٠٠٠ نسمة لها موقع عسكري ممتاز في جبال الاطلسي وفيها مصانع النسيج والجلود الفاخرة .

مكناس : مدينة اسلاميه جميلة سكانها نحو ١٧٠,٠٠٠ نسمة مشهورة بصناعة الجلد والنسيج .

تاريخ دنيا العرب
قبل الاسلام

•

توطئـــة

يقول العلماء الجيولوجيون ان دنيا العرب في آسية وافريقية كانت في العصر الجليدي تنعم بجو دافئ ، وان الامطار كانت تهطل فيها بغزارة ، وان سهولها كانت مغطاة بالاعشاب والغائل ، وانه قد كان فيها عدد كبير من الحيوانات الاليفة المفيدة .. وان هذا كله هو سبب قيام الحضارات العريقة التي قامت في ربوعها .

ولكن ما عمّ العصر الجليدي ان انزاح عن اوربا حتى هجم الجفاف على آسية ، وكان نصيب دنيا العرب منه كبير فجفت بقاع كثيرة في ديارهم ، واخذ كثير من سكان ارضهم يزحفون الى الشمال ويحتلون الاراضي الطيبة الصالحة للسكنى ، وقد كان لظهور عصر الجفاف هذا اثر كبير في نفوس الناس واوضاعهم ، فتبدلت اخلاقهم ، وظهر الفقر والبؤس في صفوفهم ، واضطروا الى الرحيل والمهاجرة .. وبهذا يفسر حدوث العدد الكثير من الموجات التي خرجت من قلب دنيا العرب الى ما حولها من البقاع ، فذهب الهكسوس الى مصر ، وزحف الاكديون والاشوريون الى العراق ، ودخل الارميون الى سورية ، وقصد الكنعانيون والعبرانيون فلسطين ، وتوجه المناذرة والغساسنة الى سورية والعراق و .. (١)

وقد ظهرت الحضارات في دنيا العرب ايام كانت تتمتع بالجو الدافئ الطيب الممطر الصالح الباعث للنشاط والعمل واقدم هذه الحضارات هي :

---

(١) راجع دائرة المعارف الانكليزية. Eneyc. Prita. 15, 464

١) :حضارات الشمال : وهي حضارةالدول السومرية والاكدية والبابلية والآشورية والكلدانية والفينيقية والمصرية والتدمرية .

٢) :حضارات الوسط : وهي حضارة الدول النبطية والثموذية والجندبية . والتماوية والحجازية ، والنجدية ، والتهامية .

٣) :حضارات الجنوب : وهي حضارة دول معين ، وسبأ ، وقتبان ، وحضر موت ، واوسان .

هذه هي حضارات دنيا العالم العربي التي قامت منذ فجر تاريخهم وفي الحين الذي انبثق فيه سيل تاريخهم الخضم الى ظهر فجر الاسلام فشيد تلك الحضارة الخالدة ، ووحد بين اقطارهم جميعاً واقام تلك الامبراطورية العظيمة التي سيطرت على حدود دنيا العرب من اقصاها الى اقصاها ، ووطدت دعائم الملك العربي .

وفي الفصول الآتية سيرى القارئ موجزاً دقيقاً على الرغم من قلة اسهابه . لتاريخ هذه الدول والحضارات التي قامت في دنيا العرب قبل الاسلام .

دول الحضارات الشمالية

(١) : الدول السومرية

قطن العراق في اواسط الالف الرابع قبل الميلاد جماعات عرفت بالسومرية وهم من العرق العربي (السامي) ويزعم بعض المؤرخين انهم جيل آري لأن رؤوسهم مستديرة، وعيونهم واسعة ، وأنهم كانوا يحلقون لحاهم ، وأنهم قد دخلوا العراق من الجبال الفارسية اي من جهة الشرق ، ولكن هذه المزاعم وان صح بعضها لا تقوم دليلا على انهم (ومثلهم في ذلك مثل الاكديين) كانوا من اصل آري ، فان اخلاقهم وطبائعهم وعاداتهم وتراثهم واسلوب حضارتهم وطراز عيشهم وآدابهم ، ولغاتهم التي خلفوها لنا تدل دلالة قوية على شدة شبههم بالبابليين المقطوع بكونهم من العرق العربي (السامي)

والسومريون قوم سكنوا وادي الفرات الشرقي في الالف الرابع قبل الميلاد بالقرب من ارض السماوة وما حولها واسسوا عدة مدن تكون كل مدينة دويلة مستقلة بتاريخها ، وكانوا يتنازعون السلطة ، فقد تتوسع دويلة وتضعف دويلة . وقد تعظم سلطة بعض الدويلات على الأخرى ، ولكن لم يتح لهذه ان تتحد وتشكل دولة واحدة ، تحت سلطان واحد الا بعد ان سيطر عليها الملك الاكدي العظيم سرجون في حدود منتصف الالف الثالث قبل الميلاد على ما سنراه بعد .

وما تزال معلوماتنا العلمية الصحيحة عن هذه الدويلات جد ضيئلة ، ولعل التنقيبات الأثرية الجديدة تكشف لنا عن معلومات اوفى واوضح (١)

واشهر تلك الدويلات هي :

دويلة لكش

دويلة الوركاء

---

(١) انظر تاريخ (وادي الرافدين عهد الحضارة) تأليف ليونارد وولي، تعريب احمد عبد الباقي طبع بغداد.

دويلة أور
دويلة أوما

وقد كشفت التنقيبات عن حضارة عريقة لهؤلاء القوم . اول مظاهرها كتابتهم ، وتنظيمهم شئون الزراعة والتجارة والصناعة والحرب ، والحياة الاجتماعية . وتقدم الفنون الجميلة ، والمعارف العامة .

اما كتابتهم : فكانت تتألف من صور وعلامات خاصة عرفت بالكتابة المسمارية لان احرفها تشبه شكل المسامير ، وكانوا يكتبون هذه الصور والعلامات بقلم من القصب على قطع من الطين الطري الذي يجفف بالشمس او بالنار ، وتعود اقدم هذه الآثار المكتوبة بهذه اللغة الى الالف الرابع قبل الميلاد ولم تلبث هذه الكتابة التصويرية ان تحولت الى كتابة صوتية في حضارة دولة (اوغاريت) التي اكتشفت آثارها مؤخراً قرب مدينة اللاذقية عند رأس الشمرة . وكان هذا التحول مقدمة لاختراع الفينقيين حروف الكتابة التي نشروها في العالم المتمدن كله فيما بعد .

واما تنظيم شئون الزراعة فقد دل عليه عنايتهم بشئون الري وتجفيف المستنقعات وردم الاهوار ، واقامة السدود ، واختراع الآلات المتقنة للحراثة ، ومن بينها آلة تشق الارض وتلقي البذور في آن واحد ، كما انهم اعتنوا بزراعة النخيل . وتنويعه . وتحسين اجناسه . وقد عثر على بعض الالواح السومرية التي تحض الناس على الاهتمام بتنظيم شئون الزراعة ووقاية المزروعات والعناية بتحسين انواعها واجناسها .

واما رقي الصناعة والتجارة عندهم فيدل عليه ما اكتشف من الآثار المصنوعة من النحاس والذهب والفضة والبرونز ، فقد صنعوا من هذه المعادن الآت الزراعة والحراثة . وادوات المنازل والزينة وعدد الحرب والقتال ، وقد كان للسومريين علاقات تجارية واسعة مع سكان سائر العالم العربي والخارجي في الشام والجزيرة وشمال افريقية وآسية الصغرى وبلاد فارس والهند .

واما تفوقهم في فنون الحرب وصناعة القتال . وتعبئة الجيوش فيدل عليه ما عثر في مدنهم من الآت القتال المتقنة والخناجر والدروع ، والرماح والسيوف والخوذ والتروس وقد كشفت التنقيبات في مدينة (لكش) عن معلومات جد قديمة تتعلق بالاسلحة وتنظيم حركات الجيوش ، وحركات الكر والفر ، وعربات القتال .

واما تقدمهم في الحياة الاجتماعية فيتجلى ذلك في تقسيم المجتمع عندهم الى طبقات :

اعلاها : طبقة الكهنة ورجال الدين وقادة الدولة ورجال السياسة .
وثانيها : طبقة كبار الموظفين وعظماء الاحرار وملاك الارض واصحاب الاطيان .
وثالثها : طبقة الصناع والفلاحين والعبيد .

وقد كان الملك أركاجينا مشهوراً باصلاحاته الاجتماعية والقانونية . ويعد اول مشرع عادل قبل حامورابي لقرون عديدة ، وقد كانت قوانينه العادلة تهدف الى ازالة الظلم عن الطبقات الفقيرة ، ونشر العدل بين الطبقات العامية من ارباب الصناعة والفلاحة والرق ، وتمنع كبار الموظفين وملاكي الارض واصحاب الاطيان ورجال الدين والكهنة والقادة ورجال الدولة من ابتزاز اموال الطبقة الثالثة .

واما تقدم الفنون الجميلة فلا ادل عليه من التماثيل الرخامية المدهشة التي عثر عليها في مدنهم ، كما يدل عليه تقدمهم في فن الريازة وزخرفة المعابد والقصور والقلاع زخرفة فائقة ، وقد كانوا على جانب عظيم في علم الهندسة وبخاصة المعمارية وقد ظهرت آثار ذلك في تخطيط مدنهم وتنظيم شوارعها ، ومرافقها العامة ، وقلاعهم . وهم اول من استعمل اسلوب (العقد (في البناء كما انهم اول من اخترعوا طرائق صنع (القباب) في العمران .

وتدل ملحمة (جلجامش) احد ملوكهم في مدينة الوركاء على مبلغ تقدمهم في الفنون الجميلة من نحت وحفر وصياغة وادب من شعر ونثر وخطابة . وقد وجدت في المقبرة الملكية في (اور) كنوز ثمينة في تفوقها الفني ، ونقوشها البارعة ، سواء في الرسم او في الحفر ، او في النقش ، او في التكفيت .

واما معارفهم الثقافية العامة فقد كانت جد مدهشة بالنسبة لزمانهم لانهم برعوا بالحساب وعلم الفلك ، وكانوا يوقتون بالشهر القمري ويقسمون السنة الى اثني عشر شهراً قمرياً ، وكان نظام التعداد عندهم يقوم على الاساس الستيني .

والحق ان الحضارة السومرية هي حضارة جد عريقة ، وجد مدهشة . تبهر المرء ، وتدل على ما وصل اليه العقل في وادي الرافدين من التقدم ، كما تدل على ان العرب قد كان لهم قبل ذلك العصر تاريخ اعمق ، ولعل التنقيبات ستكشف عن ذلك ويذهب بعض المؤرخين المدققين الى أن هذه الحضارة تفوق الحضارة المصرية القديمة وتسبقها (١) ويقول البروفسور ديورانت في كتابه القيم عن (قصة الحضارة) : ويمكن ان نلخص

---

(١) راجع (وادي الرافدين) ترجمة احمد عبد الباقي ص ١٢٥ .

الحضارة السومرية تلخيصاً موجزاً في هذا التناقض بين خزفها العج الساذج وحليها الى ان اوفت على الغاية في الجمال والاتقان ، لقد كانت هذه الحضارة مزيجاً مركباً من بدايات خشنة ، واتقان بارع في بعض الاحيان ، في تلك البلاد (على قدر ما وصل اليه علمنا في الوقت الحاضر) نجد أول ما اسسه الانسان من دول وامبراطوريات ، واول تنظيم الري ، واول استخدام للذهب والفضة في تقويم السلع ، واول العقود التجارية ، واول نظام للأئتمان ، واول كتب القوانين ، واول استخدام للكتابة في نطاق واسع ، واول قصص الخلق والطوفان . واول المدارس والمكتبات . واول الادب والشعر ، واول اصباغ التجميل والحلي ، واول النحت والنقش البارز ، واول القصور والهياكل ، واول استعمال للمعادن في الترصيع والتزيين ، وهنا نجد في البناء اول العقود والاقواس واول القباب . وهنا كذلك تظهر لاول مرة في التاريخ المعروف بعض مساوئ الحضارة في نطاق واسع ، يظهر الرق والاستبداد . وتسلط الكهنة ، وحروب الاستعمار ، ولقد كانت الحياة في تلك البلاد متنوعة مهذبة موفورة النعم متعددة ، وهنا بدأت الفوارق الطبيعية بين الناس تنتج حياة جديدة من الدعة والنعم للاقوياء ، وحياة من الكدح والعمل المتواصل لسائر الناس ، وفي تلك البلاد كانت بداية ما نشأ في تاريخ العالم من اختلافات يحيطها الحصر .. (١)

وبعد فهذه هي الحضارة السومرية وهي اول حضارة عربية عريقة بلغت الاوج ودلت على أن مثل هذه الحضارة بواكير حضارات اعرق ستكشف عنها التنقيبات الدائبة التي يعمل العراق الحديث على كشفها .

(٢) : الدولة الاكادية :

خرج الأكاديون (الأكديون) من قلب الجزيرة العربية الى وادي الرافدين في العراق وجاوروا السومريين في حوالي بداية الالف الثالث قبل الميلاد ، وكونوا دولتهم فيه ، وقد عاشوا في بادئ امرهم الى جانب السومريين ، واقتبسوا منهم حضارتهم وعلمهم وثقافتهم ، ثم اخذوا يتكتلون حتى تمكنوا من التغلب عليهم في منتصف الالف الثالث قبل الميلاد حين نبغ فيهم الملك المصلح سرجون فقضى على الدويلات السومرية ووحد

(١) قصة الحضارة ترجمة الاستاذ محمد بدران ٢-٤٠ .

العراق كله ، ثم توسع في ملكه حتى غدا ملكه امبراطورية واسعة ، كانت اول امبراطورية في تاريخ حضارة الانسان ، فقد استولى على كافة الهلال الخصيب ، وديار عيلام ، وآسية الصغرى ، وشيد مدينة عظيمة جعلها عاصمة ملكه الواسع سماها (اكد) وبها سميت الدولة .

وقد خلف الملك (سرجون) العظيم ملوك كبار ساروا في سبيل رفع شأن امتهم ، وتعزيز مكانتها ، ومن اجل هؤلاء الملوك (نرام سن) الذي سار سيرة سرجون في الفتح حتى بلغت جيوشه الى قبرص . ولكنه ما لبث ان مات فتقهقرت الدولة الاكدية ، واخذ نفوذها يتقلص بهجوم (الكوتيين) عليها . وهم اقوام من برابرة الجبال الشمالية الشرقية في العراق ، فقضوا على الدولة الفتية القوية السائرة في سبيل الحضارة ، واستولى على ديارهم ملوك الكوتيين الجهال الجفاة فاختل حبل الامن . وعمت مساوئ الجهالة مدة حكمهم التي دامت نحواً من قرن . وكادت شعلة الحضارة الاكدية — بجذورها السومرية — ان تنطفئ لولا قيام دويلة سومرية في مدينة (لكش) وما حولها وقد خلفت لنا (لكش) آثاراً جليلة في الادب السومري وماثر جليلة في المعابد والقصور والمحلات العامة ، وقد كان احد ملوك هذه الدويلة وهو الملك (كودية) من عظماء الملوك لآثاره الجليلة ، وقد حفظ لنا الدهر نماذج رائعة من الادب السومري من عهد (كودية) .

ولما اشتد ضغط الكوتيين على اهل المدن الاكدية تجمعوا بزعامة البطل (اوتو جكال) فقضى على الكوتيين واسس مملكة جديدة في مدينة (وركاء) ولكن عهده لم يطل إذ ثار عليه احد اتباعه وهو حاكم مدينة (أور) فأسس اسرة حاكمة دامت فترة غير قصيرة من الزمن عرفت باسرة (اور الثالثة) .

وقد كان عهد هذه الاسرة الحاكمة من ازهى عصور الاكديين لما بلغوه في عهدها من التقدم العلمي والاجتماعي والسياسي ، وقد كان عدد ملوك هذه الاسرة خمسة اشتهروا كلهم بالعمل المثمر والعمران الراقي ، والسير في سبيل الحضارة ، وخلفوا آثاراً فنية قيمة ، كما شادوا كثيراً من القصور الفخمة ، والمعابد المدرجة الضخمة (الزكورات) والتي ما تزال اطلالها ماثلة الى ايامنا هذه .

وعلى الرغم من عظمة ملوك هذه الاسرة فانهم لم يستطيعوا اعادة الدولة الى ما كانت عليه من قبل من القوة والوحدة والسلطان .

ومما هو جدير بالذكر انهم فكروا جدياً بالتآلف مع اخوانهم السومريين فاتحدت الدولتان وامتزجت حضارتاهما فكونت حضارة عظيمة خالدة عرفت بالحضارة السومرية — الاكدية وقد ظلت في ازدهار نحواً من عشرين قرناً . وهيئت الجو للحضارة البابلية العظيمة وما جاء بعدها في وادي الرافدين من حضارات .

(٣) : الدولة البابلية

دخل العراق في الالف الثالث قبل الميلاد جيل من العرب يعرف بالعموريين ، زحفوا من غربي الجزيرة العربية في سورية الى العراق . ويظهر ان الاكديين حين فقدوا نفوذهم السياسي واشتد خلافهم مع السومريين ورأوا اضمحلال دولتهم استنجدوا بالعموريين فقدم هؤلاء عليهم بسيول جرارهم سائرين مع الفرات محتلين سهل شنعار بمدنه وقراه . وفي سنة ٢٠٥٠ قبل الميلاد احتلوا بابل وكانت قرية لطيفة اعجبتهم بحسن موقعها وطيب مناخها فاعتنوا بها وجعلوها عاصمة مملكتهم حتى عدت في فترة قصيرة مدينة عظيمة ، وتتابع على بابل نفر من الاملاك كان اعظمهم سادسهم الملك حمورابي الذي حكم البلاد من سنة ١٩٤٨ الى سنة ١٩٠٥ قبل الميلاد . فوحد العراق وقضى على العيلاميين الذين احتلوا بلاد السومريين ، كما استولى على اراضي آشوروالفرات ووصل الى البحر الابيض المتوسط . وكان عهده الذي دام ثلاثة واربعين عاماً من ازهر عصور بلاد الرافدين ، ثم خلف من بعده ملوك لم يستطيعوا ان يتمموا ما بدأ به وما شيدو ، فاخذت الامبراطورية البابلية تنحدر قليلا فقليلا حين ثار الكاشيون من سكان سواحل الخليج العربي ، وجبال ايران على الدولة البابلية واقتطعوا منها جزء ، كما تقدم الحثيون من سكان آسيا الصغرى اليها واستولوا على جزء آخر منها . ولم يستطع الملك شمسوديتانا الوقوف امام الغزو الحثي فسقطت بابل في يد الحثيين القساة وامعنوا فيها تخريباً وسلباً .

وقد اغتنم الكاشيونفي الجنوب فرصة انشغال الحثيين فيالشمال بالسلبوالنهبوالتخريب فاغاروا عليهم واستولوا على بابل وطردوهم من البلاد واقاموا انفسهم حكاماً على الديار البابلية في سنة ١٧٥٠ قبل الميلاد . وكان استيلاء الكاشيين هؤلاء سبباً من اهم اسباب التأخر العمراني والانحطاط السياسي في البلاد ، وخسرت بابل مركزها العالمي الذي لم تستطع ان تسترده الا في ايام الكلدانيين بعد عصور .

وقد ظل الكاشيون مسيطرين على البلاد الى ان طردهم الاشوريون منها وضموها الى مملكتهم ، وعلى الرغم من ان بابل قد حاولت عدة مرات التخلص من النفوذ الآشوري فانها لم تستطع الافلات من ايدي الاشوريين وظلت خاضعة لحكمهم الى ان سقطت مدينة نينوى .

وقد بلغت بلاد الرافدين في عهد البابليين حداً رفيعاً في العلم والحضارة تممت به ما بدأه السومريون والاكديون من قبل ، وغدت هذه الديار سيدة دول الدنيا وركيزة حضارات آسية وافريقية واوربة ، فقدوجد البابليون قبلهم في بلاد الرافدين حضارة راقية في عمرانها وعلمها وفنها وهندستها وزراعتها وصناعتها وتجارتها وقوانينها وانظمة حكومتها فاكملوا ذلك وتمموا من عندهم مالم يجدوه عن اسلافهم من السومريين والاكديين . ولولا الحضارتان القديمتان في (اكد) و (سومر) لما استطاع البابليون ان يبدعوا ذلك الابداع الخلاق في حضارتهم خلال اربعة قرون، لأن دولتهم قامت – كما رأينا – حوالي اواسط الالف الثالث قبل الميلاد ، وبلغت أوجها في عهد حمورابي اوائل الالف الثاني قبل الميلاد .

وان اجل آثار البابليين في حضارتهم هو العلم بمظاهره كلها من تأليف . وبحث . وتطور وترجمة وكتابة .

يقول جرجي زيدان في وصف اقدم مكتبة في العالم عثر عليها في بابل : عثر النقابيون على قرميدة بابلية عليها كتابة مسمارية فيها قائمة باسماء ملوك بابل منذ اكثر من ستين قرناً . ويدل ذلك على قدم التمدن في ذلك البلد المبارك . وفي جملة اولئك الملوك ملك اسمه (شرجينا) وكان محباً للعلم والعلماء راغباً في العمارة . انشأ مكتبة في (الوركاء) من اعمال العراق سماها مدينة الكتب . وعهد الى رجال من خاصته في جمع الكتب قديمها وحديثها . وان يفسروا بعضها بالترجمة او التعليق واستعان بالعلماء من سائر الاقطار لينقلوا علوم الآخرين الى لسانهم وتدوين علومهم واشتغل آخرون بالشرح والتعليق ، كما فعل بطليموس فيلاد لفوس بالاسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد ، وكسرى انو شروان في جنديسابور في القرن الخامس للميلاد . وكما فعل الرشيد والمأمون في بغداد في القرن الثاني والثالث للهجرة .

وقد دون (شرجينا) هذه العلوم بالحرف المسماري نقشاً على الطين وهي القراميد الاشورية المعروفة فكانت مكتبة (وركاء) هذه مملوءة بالكتب اللغوية والفلكية والشرعية

والادبية وغيرها ، ثم نسخت بعد انشائها بخمسة عشر قرناً بأمر من امير أشوري وحفظت في دار خاصة بها كما تحفظ المكاتب اليوم . وعثر النقابون بالامس على بقايا هذه المكتبة بين النهرين ونقلوها الى المتحف البريطاني في لندن فهي هناك الى هذه الغاية ... (١)

فمكتبة (وركاء) هذه اول مكتبة بل دار كتب في العالم . اهتم بها الملوك والعلماء البابليون فزودوها بنتائج تراثهم العلمي ، وخير بحثهم العقلي ، ونقلوا اليها مباحث قرائح العالم القديم ولا ريب في انه قد كان الى جانب هذه الدار العمومية دور كتب خصيوصية جمعها علماء الدولة وكتابها ومؤلفوها واغنياؤها وامراؤها . ولا عجب اذن ان نقول ان بحوث الادب والعلم والتشريع قد ازدهرت في ايام البابليين ازدهاراً مدهشاً .

اما الادب فقد ضربوا فيه بسهم كبير وخلفوا لنا آثاراً رائعة من الادب الديني . من شعر ونثر ، ومن القصص الوعظي المنظوم على السنة الحيوان . الذي انتقل الى اليونان عن طريق ايسوب ذلك الاسير الشرقي الذي عاش في البيئة اليونانية ، ومن القصص الشعري المسرحي الذي يتجلى بأروع مظاهره في (ملحمة جلجميشس .

واما العلم فقد ابدعوا فيه اشياء كثيرة منها (علم التاريخ) وسير الاولين . وقد برعوا في هذا العلم وعرفوا كثيراً من تاريخ الانسانية الاولى من بدء الخليقة وتكون العالم ، واحوال كثير من الامم والشعوب والمدن والاقوام . واحوالهم ممن سبقوهم ، أوعاصروهم في شتى بقاع الارض ومنها (علم اللغة) فقد اهتموا بدراسة سنون لغتهم من نحو وصرف وعروض وبيان وما الى ذلك ، ومنها (علم الطب) فقد توصلوا فيه الى معرفة كثير من العلل ومداواتها ومعرفة النباتات والأدوية والعقاقير والاطعمة الصحية المفيدة والأطعمة الضارة ، وقد تضمنت شريعة حورابي كثيراً من اداب الطب وشرائط الاطباء ، وما يجب للمرضى وعليهم ومنها (علم الفلك) فقد ازدهر على ايديهم وتقدم تقدماً باهراً . واعترف اليونان لهم بهذا العلم والتقدم فيه . وبانهم اصحاب الفضل في معرفة كثير من نظرياته ، ولا تزال الانسانية تتمتع بفضل مكتشفاتهم وبحوثهم فيه ، فهم الذين عرفوا النجوم الثابتة ، والنجوم المتحركة ، ورسموا لها الخرائط والمخططات ، وبنوا طرائق سيرها وحدودوا مواضع الفلك ، وامكنة الكواكب ،

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ١-١٢ .

وعرفوا الابراج الاثنى عشر ، وادركوا الفرق بين الدورة الشمسية والسنة القمرية ، وقسموا الشهر الى اربعة اسابيع ، واليوم الى اثنتي عشرة ساعة . والساعة الى ستين دقيقة .

واما التشريع فقد بلغوا فيه درجة رفيعة جد سامية تدل على ما وصلوا اليه من سعة في الثقافة وتنظيم في العقل . وسمواً في التشريع . واوضح دليل على ذلك هو قانون حمورابي (١) . وإن الانسان ليدهش امام ذلك العقل العربي الذي ابدع هذا القانون الرفيع الذي اذا قورن بقوانين الرومان التي صيغت في ازهى عصورهم في القرن الثالث قبل الميلاد تبين الفرق الشاسع بينه وبين القوانين الرومانية السطحية على الرغم من الزمن السحيق الذي صيغت فيه مواد قانون حمورابي وهو القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد . (٢)

(٤) : الدولة الآشورية

قدم الاشوريون الى وادي الرافدين في الالف الثالث قبل الميلاد ، من قاب الجزيرة العربية واستوطنوا المنطقة الواقعة على جانبي نهر دجلة شمالي نهر (الهضيم) واتخذوا لانفسهم مدينة سموها باسم الههم (آشور) وبنوها بالحجارة الضخمة ، وهي معروفة اليوم باسم (شرقاط) وقد شادوا حولها عدداً من المدن والقلاع واشهرها (كالح) و (نينوى) .

وينقسم تاريخهم الى قسمين :

الاول : هو العهد الذي سبق تاريخهم لتأسيس الامبراطورية .

والثاني : هو العهد الامبراطوري.

اما العهد الاول فيمتاز بأنهم اخذوا يهيئون انفسهم تهيئة عسكرية قوية يستطيعون بها التغلب على خصومهم (الحثيين) الذين كانوا يقطنون في شمالهم ،والميتانيين الذين كانوا

---

(١) كتب هذا القانون العظيم المكون من (٢٨٥) مادة على مسلة جميلة النقش محفوظة في متحف اللوفر بباريس.

(٢) انظر تفاصيل المعلومات عن قانون حمورابي في كتاب (قصة الحضارة) ٢-٢٥٢ وفي مجلة الهلال المجلد الثالث عشر ، وتاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ، وتاريخ العرب قبل الاسلام لجرجي زيدان ١ - ١١١.

يقطنون في غربيهم و(الاكدين) و (العموريين) الذين كانوا يسكنون في شرقيهم ، وقد نبغ منهم في هذا العهد جمهرة من الامراء اشهرهم (شلم نصر الاول) الذي نظم صفوفهم ، وافاد من الحضارة السومرية فوائد كثيرة فجعل شعبه شعباً قوياً واستطاع ان يستولي على بابل وما حولها من املاك السومريين، كما استطاع ان يتغلب على الاكديين حتى لقب نفسه ملك سومر واكد . ثم خلفه الملك (تكلات بيلاسر الاول) وقد بلغت الدولة في عهده مبلغاً سامياً في القوة والرقي . والتمهيد للعهد الامبراطوري . ولكن ما عتم ان مات حتى خلفه ملوك ضعفاء وتوقفت حملات الفتح ودب الانحلال الى الدولة ، واستطاع خصومها من (الارميين) ان يستولوا على بعض اجزائها الى ان ظهر الملك (شلم نصر الثالث) الذي جدد عهد سميه الاول فقام بعدة حملات موفقة جعلته الآمر المطاع في كل آسية الغربية من حدود فارس حتى ارمينية حتى البحر الابيض المتوسط . وقد دون فتوحاته في المسلة الخالدة التي نصبها في عاصمته (كالح) المعروقة اليوم باسم مدينة (نمرود) وقد سجل على هذه المسلة اسماء الملوك الذين اخضعهم واخذ منهم الجزية . ثم خلفه الملك (تكلات بيلا سر الثالث) وكان كسميه الاول محارباً قوياً وفاتحاً موفقاً . وقد توصلت الدولة في عهده الى اسمى درجات المجد . وبلغت فتوحه الى دمشق وفلسطين وسائر اجزاء الهلال الخصيب والمشرق وغيرها من العالم المتمدن القديم .

واما العهد الثاني فيبدأ بعهد الملك (سرجون الثاني) المعروف بلقب (شيروكين) اي الملك الصالح ، وقد ارتقى عرش الدولة في اواخر القرن الثامن قبل الميلاد وظل فيه سبعة عشر عاماً (٧٢٢ — ٧٠٥ قبل الميلاد) اخضع فيها بلاد بابل اخضاعاً كلياً . كما استولى على مملكة اسرائيل في فلسطين . واستولى على عاصمتها مدينة السامرة .

ولم يستقر (سرجون) في عاصمة واحدة فاتخذ مدينة (آشور) عاصمة له . ثم انتقل الى (كالح) ثم الى (نينوى) ثم بنى مدينة جديدة سماها (دور شيروكين) اي مدينة الملك الصالح شمالي مدينة نينوى . وقد تفنن في بنائها على شكل مربع ضلعه الفا ياردة ، وجعل لها سوراً ذا ابراج عالية تنيف على المائة والخمسين . وجعل لها ثمانية ابواب كبرى كل باب يحمل اسماً من اسماء الآلهة الاشورية . وزين جوانب الابواب بصور ثيران مجنحة ذات رؤوس بشرية وجعل شوارع مدينته مستقيمة واسعة وشيد في وسطها قصره الفخم العظيم ، وبجواره ثلاثة معابد صغيرة ، وصرح مدرج (زقوره) ولكنه لم يتمتع بذلك طويلا إذ اغتيل بعد سنتين فخلفه ابنه (سنحاريب) وكان فتى عسكرياً صارماً عاقلا ، واول عمل قام به هو عودته الى (نينوى) العاصمة القديمة

ارضاء لرجال الدين الذين نقموا على ابيه لانتقاله عنهم . وما استقر في نينوى حتى اخذ يرتب اموره وينظم شئون الدولة ويعمر المدينة ويبني لنفسه قصراً ضخماً زينه بكثير من النقوش والتماثيل الجليلة التي نقلها من مدينة ابيه (دور شيروكين) كما شاد كثيراً من الامكنة العامة التي جعلت عاصمته زينة مدن الدنيا في عهده . ولكنه لم يتمتع بالامن والسكينة طويلا اذ فوجئ بقيام الثائر (مردوخ بلادان) عليه واعلان الثورة في بابل فخرج سنحاريب لمحاربته واحتل بابل ولاحق مردوخ الذي التجأ الى اقليم الاهوار حتى قضى عليه ، ثم قضى على الفتن التي قامت في الاقاليم الخاضعة لسلطانه في بلاد قليقية ، وفينيقية ، وسورية ، وفلسطين ، وكان سنحاريب شديد العنف والقسوة في اعماله الحربية ، وبخاصة في حرب بابل ويهودا بفلسطين . فقد لاقى اهل هذين البلدين منه ظلماً شديداً .

ولما هلك خلفه ابنه (اسر حدون) وكان سياسياً حكيماً فاتبع طريقة الحكمة واللطف والسياسة واعاد بناء بابل ، ونظم البلاد تنظيماً عمرانياً حسناً . حتى استقرت الاوضاع العامة في عهده استقرار جعله يفكر في توسيع ملكه . وفتح ديار مصر التي تنافسه في فينيقة وسورية وفلسطين فسار يريد الاستيلاء عليها ، ومر بطريقه على صيدا التي اعلنت ثورتها عليه فدمرها . ثم سار نحو مصر في سنة ٦٧٤ قبل الميلاد . ولكنه لم يوفق في حملته هذه فرجع واخذ يهيئ نفسه لحملات اكبر وظل ثلاث سنوات يهيئ نفسه وجيشه وسار اليها في سنة ٦٧١ قبل الميلاد فدخل ارض مصر واستولى على عاصمتها (منفيس) وألحق الدولة المصرية بالامبراطورية الآشورية .

ولما مات خلفه ابنه (آشور بانيبال) العظيم الذي وطد اقدام الامبراطورية واخمد ثورات المصريين واعاد جميع بلادهم الى سلطته بعد ان قل نفوده في بعض بلادهم ، واستولى على مصر من الدلتا الى اعالي النيل واحتل مدينتي (طيبة) و (الاقصر) في الجنوب وغنم غنائم كثيرة ثم رجع الى مصر الشمالية . ورحل الى بلاده بعد ان اقام في مصر جيشاً كبيراً . ولكن تكاليف هذا الجيش الضخم والثورات العديدة التي كانت تقوم في انحاء الامبراطورية الواسعة اضعفت مركزه فاخذت الدولة تتقلص ، وكان لحملات (الماديين) في الشرق و (الكلدانيين) في الغرب أثر قوي في ضعضعة الامبراطورية وانكسارها .

وقد استطاع ملك الكلدانيين (بنو بولاسر) في سنة ٦١٢ قبل الميلاد أن يستولي على نينوى ، ويقضي على الامبراطورية الاشورية العظمى .

إن الاشوريين خلفوا من ورائهم حضارة جليلة لا تقل عن اخواتها السابقات اللواتي قمن في وادي الرافدين . وقد كان لملوك هذه الدولة وبخاصة (اشور بانيبال) اثر قوي في نشر روح العلم ، واحياء العرفان لما كان يتمتع به من حب الادب والمعرفة ، وقد جمع في قصره كثيراً من الآثار الادبية ، والكتب العلمية المختلفة . وقد عثر النقابون في سنة ١٨٥٣ م في حضائر قصره الفخم الذي شيده في نينوى على خزانة كتبه المملوئة بالسجلات والوثائق والبحوث العلمية والادبية المدونة على رقم الطين والتي يبلغ عددها عشرات الآلاف . كما عثروا على كثير من المنحوتات والتماثيل الفنية الرائعة واواني الزينة والتجميل والحلي البديعة . قال البروفسور ديورانت في الفصل النفيس الذي عقده في كتابه قصة الحضارة عن مكتبة آشور بانيبال : اهم ما يخلد ذكر اشور في تاريخ الحضارة هو مكتباتها فقد كانت مكتبة آشور بانيبال تحتوي على ثلاثين الف لوحة من الطين مصنفة ومفهرسة وعلى كل واحد منها رقعة يسهل الاستدلال بها عليه . وكان على كثير منها تلك العبارة التي كانت من شارات الملك الخاصة (فليحل غضب آشور وبليت .. على كل من ينقل هذا اللوح من مكانه .. وليمحوا اسمه واسم ابنائه من على ظهر الارض) وكثير من هذه الالواح منسوخة من اخرى اقدم منها لم يبين تاريخها وتكشف اعمال الحفر في كل يوم. وقد اعلن آشور بانيبال انه انشأ مكتبة ليمنع الآداب البابلية ان يجر عليها النسيان ذيله . ولكن الالواح التي يصح ان تسمى الآن ادباً لا تتجاوز عدداً قليلا منها . اما معظمها فسجلات رسمية وارصاد يقصد بها التنجيم والفأل والطيرة والتنبؤ بالمستقبل ووصفات طبية وتقارير ورقى سحرية . وترانيم وصلوات وانساب الملوك والآلهة . وقل هذه الالواح مدعاة الى الملل لوحان يعترف فيهما آشور بانيبال بحب الكتب والمعرفة وهو اعتراف يزري به في اعين مواطنيه . والغريب ان يكرر فيهما هذا الاعتراف ويعبر عليه اصراراً (انا آشور بانيبال فهمت حكمة نابو . ووصلت الى فهم جميع فنون كتابة الالواح . وعرفت كيف اضرب القوس . واركب الخيل والعربات وامسك اعنتها .. وحباني مردوخ حكيم الآلهة بالعلم والفهم هدية منه ووهب لي إثورت وشرجال الرجولة والقوة والبأس الذي لا نظير له . وعرفت صنعة آداب الحكم ، وما في فن المكتبة كله من اسرار خفية وقرأت في بناء الارض والسماء وتدبرته ، وشهدت اجتماعات الكتبة ، وراقبت البشائر والنذر وشرحت السموات مع الكهنة العلماء ، وسمعت علميات الضرب والقسمة المعقدة التي لا تتضح لاول وهلة . وكان من اسباب سروري ان اكرر الكتابات الجميلة الغامضة المدونة باللغة

السومرية ، والكتابات الاكدية التي تصعب قراءتها ، وامتطيت الامهار ، وأطلقت السهم ، وتلك سمة المحارب ، ورميت الحراب المرتجفة كانها رمارح قصيرة .. وامسكت بالاعنة كسائق المركبات .. ووجهت ناسجي دروع الغاب وبحنانه ، كما يفعل الرائد ، وعرفت العلوم التي يعرفها الكتبة على اختلاف اصنافهم حينما يحين وقت نضجهم ، وتعلمت في الوقت نفسه ما يتفق مع السيطرة والسيادة وسرت في طرائقي الملكية ..(١)

ولم يكن آشوريا بانيبال وحده من ملوك آشور الذين سلكوا مسلك العلم واحياء الفنون بل كان اكثر ملوك هذه الدولة من اهل المعرفة وحب الفضائل وقد قربوا العلماء وساروا على النهج الصالح الذي سنه البابليون في علوم الدين والسياسة والآداب والفنون . والتشريع والنسخ والترجمة .

وليس هذا وحده ما خلفه الاشوريون من اثر علمي بل انهم اشتغلوا اشغالا علمية ميزت حضارتهم ويمكننا اجمال ذلك بالنقاط الآتية :

١) اعتنوا عناية شديده بعلم الطب وعقاقيره ونباتاته وقد حفظت لنا الرقم الطينية التي خلفوها كثيراً من بحوثهم في هذا الباب ، وتجاربهم في العلاج . وقد كان عملهم هذا البداية الصالحة لعلم التاريخ الطبيعي ، وقد افاد اليونان والرومان اجل الفوائد من بحوثهم هذه .

٢) بحثوا بحوثاً عميقة في علم اللاهوت فقد كانوا يعرفون بوجود آله اعظم هو رب السموات والارضين . وانه سبحانه قد خلق آلهة من دونه يتسلسلون في القوة والامكانيات حتى بلغ عددهم في القرن التاسع قبل الميلاد خمسة وستين الف آله (٢) وان لهؤلاء الآلهة انساباً وتواريخ ، وانهم يتناسلون ويكونون مجمعاً خاصاً له نظامه وسياسته ، وقد انتقلت اكثر هذه المعلومات اللاهوتيه والميثولوجية الى اليونان والرومان فبنوا عليها عقائدهم ، ولاشك في ان الصلة قوية بين الآلهة اليونانيين المتعددين وبين الآلهة الاشوريين الذين لا يكادون يحصون (٣)

٣) تفوقوا تفوقاً خاصاً في علوم الهندسة والفلك والتشريع ، وقد ضارعوا بذلك اخوانهم البابليين ، وهم وان لم يبدعوا في هذه العلوم ابداع البابليين فانهم قد اكثروا

(١) قصة الحضارة ترجمة بدران ٢-٢٨٤ .

(٢) انظر قصة الحضارة ٢-٢١٣ .

(٣) « كتاب Groiset - Littérature grepue, 87-118.

من التأليف فيها ، وتمموا بعض بحوثها .

٤) ولقد بذوا البابليين بالاكثار من الكتب،وجعل الخزائن لها،وتأسيس المكتبات، وانشاء دور العلم ، ووضع الفهارس للكتب ، وتنظيم القوانين الخاصة بالمكتبات وبحفظها وتسهيل مراجعتها ، وتشجيع العلماء على وضع الكتب ، والمتعلمين على المطالعة .

٥) اهتموا اهتماماً شديداً بنسخ اثار من قبلهم من علماء السوريين والبابليين . فقد كان آشور بانيبال شبيهاً بحمورابي في هذا الاهتمام فانه كان يبعث البعوث العلمية الى اقاص الامبراطورية والعالم الخارجي ينسخون له الكتب . ويترجمونها .

(٧) : الدولة الكلدانيـــة :

رأينا في الفصل السابق ان نهاية الاشورية في سنة ٦١٢ قبل الميلاد كانت على يد ملك الكلدانيين (بنو بولاسر) الكلداني الذي ولاه الاشوريون فانتهز ضعف دولتهم وقضى عليها واسس الدولة الكلدانية .

وقد ظل حكم الاسرة الكلدانية في وادي الرافدين نحو قرن نبغ فيه عدد من الملوك العظام اجلهم (نابولاصر) وابنه (نابوخذ نصر) و (نابو نائيد) .

والكلدانيون هم من الارميين العرب الذين اتجهوا الى شرقي وادي الرافدين واسسوا لهم مدينة في الجزء الجنوبي من وادي الرافدين سموها (كلدة) واليها نسبتهم وقد كان ذلك في اواسط الالف الثاني قبل الميلاد ، وظل نفوذهم يقوى حتى اضطر الاشوريون ان يولوا الملك الكلداني عليهم فلم يلبث ان قضى على دولتهم واسس الدولة الكلدانية كما سلف .

وقد اغتنم الفراعنة المصريون سقوط الدولة الاشورية فحاولوا غزو سورية الشمالية والجنوبية الا ان (نابوبولاصر) جهز حملة قوية برئاسة ابنه (نابوخذ نصر) والتحم الجيشان الفرعوني والكلداني عند قرقميش (جرابلس) وانكسر جيس الفرعوني . وهكذا ضل سلطان الكلدانيين نافذاً على بلاد الرافدين وسورية بجزأيها ، واحتل الملك نابوبوخدنصر مدينة اورشليم ، وامعن في اهلها قتلا وتخريباً ، واسر ملكها وسبي اهلها وساقهم اسرى ارقاء الى بابل ، وظلت الدولة الكلدانية في عهده ترفل في ثياب العزة ثلاثة واربعين سنة .

فلما هلك خلفه ابنه وكان ضعيفاً استولى عليه رجال الدين وتداخلوا في ادارة الملك واستطاعوا ان يجعلوا احدهم (نابو نائيد) ملكاً ولكنه لم يوفق للامساك بزمام الامور فتضعضعت الدولة واحس الفرس بضعضعتها فاغاروا عليها بزعامة ملكها قورش في سنة ٥٣٨ قبل الميلاد وسقطت الدولة وبسقوطها انتهى حكم العرب في بلاد الرافدين وانتقلت السلطة والسيادة الى الآريين الذين ظلوا يتحكمون فيها الى ظهور الدولة العربية الكبرى في ظل الاسلام

* *

اما آثار هذه الدولة العظيمة في ميادين الحضارة والعلم فلم تكن اقل من آثار سابقاتها في وادي الرافدين . فلقد كان الكلدانيون اصحاب عناية شديدة بالفلك والتنجيم والرياضيات والهندسة والطب والزراعة والطبيعيات والالهات وقد انتفعوا بالحضارة البابلية القديمة ، واضافوا اليها كثيراً من بحوثهم الخاصة . وقد كان للكلدانيين هؤلاء اثر قوي جداً في تثقيف عرب قلب الجزيرة قبل الاسلام فان صلاتهم بهم كانت جد قوية . وقد افادوا منهم كثيراً من معلوماتهم في الانواء والنجوم والطب والطبيعيات والالهيات. ولا ادل على ذلك من قصة ابراهيم (ع) وابيه اللذين كانا من هؤلاء الكلدانيين والتي ذكرها القرآن الكريم مفصلة (١) .

ومن آثار الكلدانيين الخالدة على حضارة وادي الرافدين تأثيرها في لغات اهل هاتيك الاقاليم ، فقد اثرت اللغة الكلدانية في اللغات التي كانت منتشرة في ذلك الوادي ، وطبعته بطابعها ، النحوي والصرفي والبياني ، والادبي . بل انها تغلبت على تلك اللغات جميعاً وغدت لغة التخاطب في الوادي وسورية وفينيقية . وشبه جزيرة سينا وبعض ديار مصر ، والسر في ذلك ان هذه الكلدانية كانت لغة غنية في مفرداتها ، سهلة في تعبيراتها ، مرنة باستعمالاتها ، غنية في ادبانها ، من شعر ونثر ، منيعة في نحوها وصرفها ، منطقية في قواعدها (٢) .

---

(١) انظرها مفصلة في سورة الانعام آية ٧٤ وما بعدها .

(٢) « في تاريخ الادب السرياني للدكتورين مراد كامل ومحمد حمدي البكري ص ١١ .

(٧) : **الدولة الفينيقية** :

الفينيقيون هم من الكنعانيين والارميين الذين تركوا قلب الجزيرة العربية وانساحوا الى بلاد الشام في فجر الالف الثالث قبل الميلاد او قبل ذلك بقليل ، وكانوا قبائل رحلا يقطنون السهول الخصبة في ديار الشام ، ولما توطدت اقدامهم في تلك الديار اسسوا لهم في القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد دولة عريقة ذات حضارة ، فبنى الكنعانيون مدينة صور في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد ، وبنى الاراميون مدينة جبيل في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد كما بنوا مدينة بيروت (بيريت) في القرن الثاني والعشرين ق.م .

وكانت حدود دولتهم تبدأ من حدود جبال طوروس شمالا الى نهر الدامور جنوباً وفي اوائل القرن الاول من الالف الثاني اتحد الشعبان من الكنعانيين والارميين وكونا دولة واحدة هي الدولة الفينيقية العظمى الممتدة من شمالي سورية الى جنوبها .

وقد كانت هذه الدولة مؤلفة من عدة مدن وكل مدينة تكون مملكة مستقلة عن الاخرى ، وأجل هذه الممالك مملكة جزيرة ارواد ، ومملكة مدينة جبيل ، ومملكة مدينة بيروت ، ومملكة مدينة صيدا ، ومملكة مدينة صور . وكانت مملكتا صور وصيدا في عراك دائم وتنافس قوي على السيادة .

وكانت حكومة صيدا في ايام قوتها تحكم الاهلين حكماً مطلقاً استبدادياً الا في بعض الفترات فانها كانت تتقيد بمجلسين احدهما للشيوخ والآخر للنواب ، كما كانت حكومة صور في اول امرها حكومة مستبدة ثم تقيدت بمجالس عامة مؤلفة من اغنياء الشعب ومرتبطه بمشورة رجال الدين والقضاء ، ويذكر بعض المؤرخين انها كانت جمهورية خلال فترة من الزمن وستظل هذه الامور غير واضحة الى ان يكتشف ما يثبتها .

ومن اشهر ملوك هذه الدولة الملك (حيرام) الذي كان في حوالي القرن العاشر قبل الميلاد ، وكان حليفاً للنبي سليمان الحكيم (ع) وهانيبال بطل قرطاجة وقد كان لهذه الدولة سلطان عظيم في البحر واتصلوا عن طريق سفنهم وتجاراتهم باوربة وافريقية وآسية .

اما في اوربة فقد اتصلوا ببلاد الغال في فرنسة وحملوا اليها تجاراتهم ، كما اتصلوا بايطالية واسبانية واليونان ، وكثير من جزائر البحر الابيض المتوسط كقبرص واقريطش وصقلية ورودوس ، وكان لهم في موانئ هذه البلاد مستعمرات ومتاجر واسواق

وممتليات واما في افريقية فقد اتصلوا بمصر ولكن المصريين اقصوهم عنها فساروا الى تونس ، واسسوا فيها مدينة عظيمة هي مدينة قرطاجة التي ضارعت مدائن صور وصيدا وجبيل ، ولعبت دوراً هاماً في تجارة البحر الابيض المتوسط ، وفي السيطرة على اسواق اوروبة وافريقيا .

واما في آسية فقد استولوا على اكثر موانئ اسية الصغرى واتخذوها مراكز لتجاراتهم ونقلوا اليها منتجات بلاد الشام وشمال افريقية واستبدلوها بمنتجات اسية الصغرى وموانيها، من المنسوجات والاوائل البيتية . وقد ظلوا كذلك الى ان تغلب عليهم اليونان وتفوق اسطولهم التجاري عليهم .

لقد ضرب الفينيقيون بسهم وافر في الرقي والسلطان وكانت مملكتهم مشتهرة بالملاحة وعلم البحر ومعرفة السواحل في البحر الأبيض المتوسط والبحر الاسود واجتاز ملاحوها جبل طارق وصعدوا في المحيط الاطلسي حتى وصلوا الى جزر (القصدير) جنوبي انكلتره وكانوا حوالي افريقية من البحر الاحمر الى مضيق جبل طارق وأسسوا المستعمرات العديدة في المراكز التي وطؤوها ، وبرعوا في الصناعات وبخاصة الزجاج الشفاف الملون ، والانسجة الجميلة الملونة المصبوغة بالارجوان .

وكانت بلادهم ممتدة على الساحل السوري الممتدة من مصب الدجلى شمالي مدينة أوغاريت العظيمة الى جنوبي مدينة عكا . واصل مدنهم اوغاريت (رأس الشمرة) و (صيدا) و (صور) و (جبيل)و (ارواد) وطرابلس) و (جبيل) وبيروت و(عكا) .

وكانت مملكتهم على جانب عظيم من المعرفة والتفوق في العلوم والآداب والصناعة والتجارة ؛ اما العلوم والآداب فقد ضربوا فيها بسهم عظيم ووضعوا الحروف الهجائية واختصروها الى اثنين وعشرين حرفاً بعد ان كانت عند البابلين والمصريين تعد بالمئات ، ونشروا ذلك في العالم المتمدن القديم ، فاخذها عنهم اليونان وسائر دول اوربه وآسية ؛ واما الصنائع والفنون فقد اتقنوها وبخاصة فنون التجارة البحرية ، والحدادة ، والنجارة ، وبخاصة نجارة السفن والأساطيل ، واستطاعوا ان يؤسسوا اسطولا تجارياً ضخماً جابوا به البحار ووصلت سفنهم الى شمال اوربة واقصى موانىء الهند والصين ، والمحيط الاطلسي ، وبحر البلطيق وعلى الرغم من انهم لم يكونوا يعرفون (البوصلة) ولا (الخرائط الجغرافية) فانهم كانوا يهتدون في اسفارهم بالنجوم والكواكب لبراعتهم في علمي الفلك والنجوم .

وقد برع الفينيقيون بالتعدين ولا زالت الحفائر والتنقيبات الأثرية التي تجري في الجمهورتين السورية واللبنانية ، تثبت انهم كانوا يقومون بحفريات يستخرجون بها الذهب والفضة والحديد والنحاس في بلادهم وفي جزائر البحر الابيض المتوسط التي سيطروا عليها او اقاموا لهم فيها ممثليات .

وأجل آثار الفينيقيين على الحضارة الانسانيـة هي في نقلهم العلم والحضارة والصناعة الراقية من الشرق الى الغرب ، فهم الذين نقلوا صناعات النسيج . والصباغة والتعدين ، وعمل الزجاج ، والفخار الملون من ديارهم الى اوربة . وكان ذلك بذرة حضارة الدوحة الحضارية الاولى في اوربة .

وقد كشفت حفريات (اوغاريت) في ديارهم قرب اللاذقية عند رأس الشمرة عن تقدم فائق في الهندسة وفنون البناء وعن الابجدية التي يرجع عهدها الى القرن الرابع عشر قبل الميلاد وهي ابجدية فينيقية بحروف مسمارية . كما كشفت حفريات جبيل (بيبلوس) شمالي بيروت عن اقدم المدن الفينيقية عن المقبرة الملكية بسراديبها المحفورة في الصخر حفراً رائعاً ، وقد عثر فيها على ناووس الملك (حيرام)نقشت على جوانبه كتابة بحروف فينيقية ترجع الى عام ١٢٥٠ ق.م ، كما عثر في المدينة على مسرح تمثيلي عظيم كما كشفت حفريات صور (تير) عن انها كانت مدينة منذ الألف الثالث قبل الميلاد مدينة محصنة وانها قسمان احدهما الجزيرة المحصنة ، وثانيهما الساحل التجاري ، وانها كانت ذات صلات تجاريةعريقة متينة مع مصرالفرعونية وان ازهرعصورها كان حوالي سنة ١١٠٠ ق . م. وان منها هاجرت الملكة (اليسا) الى شمال افريقية وأسست مدينة قرطاجة حوالي سنة ٨٠٠ ق.م. وقد حاول الاشوريون والبابليون القضاء عليهم فردتهم على اعقابهم ، وكشفت حفريات على انها كانت مدينة كبيرة منـذ القرن الخامس عشر ق . م. وان الاشورين فتحوها ودمروها سنة ٨٤٠ ق .م كما دمروها في سنة ٦٧٧ ق . م . ثم صارت تحت النفوذ البابلي ثم الفرس ثم استعادت مجدها الغابر في استقلال داخلي اداري الى ان استسلمت للاسكندر المقدومي في سنة ٣٣٣ ق.م.

(٨) : الدولة المصرية :

قامت في وادي النيل حضارة راقية حين توحدت اماراتها المتفرقة في الشمال والجنوب تحت تاج واحد في اواسط الالف الخامس قبل الميلاد ، على يد الملك (مينا الاول) مؤسس الأسرة المصرية الاولى والأسر التي تعاقبت بعدها وبنت الاهرام ، والتي نبغ منها ملوك عظماء امثال (خوفو) و (خفرع) و (رمسيس) و (اخناتون) وغيرهم من عظماء الملوك الذين تعاقبوا على حكم مصر من سنة ٤٤٠٠ ق.م الى سنة ٢٢٦٦ ق.م

وكانت المملكة المصرية على جانب عظيم من الرقي والحضارة في العلم والعمران والفنون ، ثم اخذت تنحط قليلا فقليلا الى ان استولى على الامر ملوك الأسرة الثانية عشرة فضعف امرها بسبب الخلاف الداخلي بين الملوك والامراء والنبلاء من اصحاب الاقطاعات . وقد حكمت الاسرة الثانية عشرة من سنة ٢٤٦٦ ق.م الى عهد الملك (امنمهات الرابع) سنة ٢٢٠٠ ق.م وقد استغل هذا الضعف امراء العمالقة المعروفين باسم الشاسو (اي الرعاة) وباسم (الهكسوس) اي امراء الصحراء وقد كان هؤلاء الأمراء من عرب شبه جزيرة سيناء الأقوياء البارعين بالحرب فاستولوا على أرض مصر وأخضعوها لنفوذهم . وأدخلوا اليها ما كان عندهم من اسباب الحضارة كالعربات الحربية ، والخيول ، وعدد القتال وما اليها من شؤون الحرب والتجارة ، وقد حكم هؤلاء الامراء أرض مصر نحواً من خمسة قرون، يقول المؤرخ جورج دالس يدج في كتابه تاريخ سكان ارض النيل : وكان آخر ملوك الدولة الثانية عشرة امنمها الرابع ، ومن عصره وذلك في نحو سنة ٢٢٠٠ ق.م الى عصر الدولة الثامنة عشرة نحو خمسمائة سنة ملك مصر فيها الهكسوس او الملوك الرعاة ، وهؤلاء هاجروا الى مصر من الشرق ، واقاموا بمنفيس وتسلطوا على كل البلاد المصرية .. (١) ولم يكن هؤلاء الملوك جفاة بداة كما يزعم بعض المؤرخين بل كانت لهم حضارة وكان لهم تاريخ عريق ، وحكومة منظمة ، فقد جاء في آثار بابل ان الملك (نرام سن بن سرجون) حارب بعض سكان جزيرة سينا ، واراد الاستيلاء على مدينة (معان) ، وانه اسر اميرها وحمل بعض آثارها الجميلة الى بلاده حين عاد اليها (٢) وجاء ايضاً في بعض النصوص : ان عرب شبه جزيرة سينا كانوا يحترفون التجارة ونقلها من الشمال الى الجنوب ، وانه كانت لهم صلات تجارية كبيرة مع بابل

(١) كتاب (سواء السبيل في سكان ارض النيل) مطبعة الاميركان بيروت سنة ١٨٨٨ ص ٤٤ .

(٢) راجع **King, Egypte and Westerne Asia in the Light of recents Discoveries London 1907. p. 158.**

ومصر في سنة ٢٥٠٠ ق.م (١)

فسكان شبه جزيرة سيناء في ذلك العصر من هؤلاء الرعاة كانوا على جانب من الحضارة منذ الالف الثالث قبل الميلاد ، وانهم لما احتلوا مصر كانت لهم من القوة ما يمكنهم من الاحتلال من تنظيم عسكري وتدريب حربي . ولايمكن ان يوصفوا بانهم بدو جفاة اجلاف مخربون ، وانهم قد اخروا مصر حين احتلوها ، ثم ان هؤلاء القوم لم يدخلوا مصر الا حين اراد الفراعنة الاستيلاء على مملكتهم في شبه جزيرة سينا فتغلبوا هم على المصريين واخضعوهم لسلطانهم في اواخر عهد الأسرة الثانية عشرة (٢) وذلك انه لما مات الملك (امنمهات الاول) في سنة ٢٤٦٦ ق.م وتملك ابنه (بوسرتسن الاول) لجأ أخوه (سنهات) الى كنف الملك (عم وانشى) ملك سينا فاكرمه وزوجه ابنته وعهد اليه بامارة بعض المقاطعات التابعة له ، ولما كبر سنهات رجع الى مصر وقويت العلاقات بين مصر وسينا ، وفي عهد الملك (يوسرتسن الثاني) شخص الى مصر (الملك الجاشع) ملك سينا ونزل ضيفاً معززاً على الملك (ختو ممنت) امير مصر الوسطى وقويت صلات الود والقربي بين الاسرتين في مصر وسينا وما تزال آثار هذه الصلات مسجلة منقوشة على قبر هذا الملك . وفي عهد الملك (يوسرتسن الثالث) سنة ٢٣٣٣ ق.م. طمع المصريون في الاستيلاء على شبه جزيرة سينا فغضب ملكها وزحف على مصر فاستولى عليها واسس العمالقة الهكسوس ملكهم في مصر سنة ٢٢٦٦ ق.م. الى سنة ١٧٠٠ ق.م. وكونوا الاسرة الرابعة عشرة ، والخامسة عشرة ، والسادسة عشرة ، والسابعة عشرة في اسر التاريخ المصري العريق (٣) ، فلم يكن العمالقة الهكسوس اذن طغاة ولا جفاة ولا غاصبين ولكنهم كانوا ملوكاً حلفاء اوفياء للفراعين ، ولكنهم حين ارادوا السيطرة على ديارهم فتحوا ارض مصر كما فتحها عمرو بن العاص من بعده.يقول المؤرخ يوسيفوس اليهودي المتوفي في اواخر القرن الاول للميلاد نقلا عن المؤرخ الاسكندري المتوفي في اواسط القرن الثالث قبل الميلاد اثناء كلامه عن نشوء دولة الهكسوس ما ترجمته : واتفق على عهد تيماوس احد ملوكنا ان الاله غضب علينا فاذن لقوم لا يعرف اصلهم جاءوا من الشرق وتجاسروا على محاربتنا وغلبونا على بلادنا واذلوا ملوكنا واحرقوا مدننا وهدموا هياكلنا وآلهتنا وساموا الناس ذلا وخسفاً ، فقتلوا الرجال ، وسبوا النساء والاولاد ،

---

(١) راجع Grimme, Weltageschichto in Karakter bilden Muhamed.

(٢) راجع تفصيل ذلك في تاريخ ابن خلدون ٢ص٢٧ .

(٣) » » » » » العرب قبل الاسلام لجرجي زيدان ١ص٥٧ — ٦٠ .

ثم نصبوا عليهم ملكا لهم اسمه سلاطيس اقام في منفيس وضرب الجزية على مصر اعلاها واسفلاها وأقام الحامية في المعاقل لدفع الاشوريين عن وادي النيل اذا طمعوا فيه ، وبنى مدينة (اوارس) في ولاية (صان) لهذه الغاية وحصنها بالابراج والقلاع والاسوار واكثر من حاميتها حتى بلغ عددهم (٢٤٠,٠٠٠) ، وكان سلاطيس يأتي اليها في الصيف لجمع الحنطة ودفع رواتب الجند وتمريسهم بالحرب وبعد ثلاث عشرة سنة من حكمه خلفه ملك اسمه بيون وحكم اربعاً واربعين سنة ، وجاء بعده (ابا خناس) وحكم ستاً وثلاثين سنة ، ثم (ايوفيس) وحكم احدى وستين سنة وشهرين . وهؤلاء الستة هم اول من حكم من ملوكهم ، ولم يكفوا عن محاربة المصريين لانهم كانوا يلتمسون ابادتهم . وكانت هذه الامة تسمى هكسوس (Hyksos) اي الملوك الرعاة لانها مؤلفة من هيك (Hyk) ومعناه باللغة المقدسة المصرية (الهير وغليفيه) (ملك) و (Sos) ومعناه (راع) ولكن البعض يقول انهم عرب (١)

ولقد تعمق في دراسة تاريخهم المستشرق البروفسور بروغش بك Brugcsh في كتابه القيم عن الفراعنة (٢) وخلاصة رأيه فيهم ان الاقوام الذين يسميهم الفراعنة في آثارهم – منتي – والذين حكموا مصر احقاباً طويلة هم الهكسوس . وانهم شيدوا بمصر مدناً اجلها (زوان)و (هواز) و (وأوارس) وجعلوا فيها حصوناً وقلاعاً ، وانهم كانوا اذكياء عقلاء ، اعجبوا بحضارة المصريين وعلمهم ولغتهم فاقتبسوها وتكلموا اللسان المصري وكتبوه ، واقتبسوا من الحضارة المصرية ما لاءمهم ، وانهم كانوا يحبون العمارة والبناء فاستخدموا المصريين في بناء المدن على الاسلوب المصري وامروهم ان يجعلوا لهم التماثيل وان يميزوها عن تماثيل ملوكهم الفراعنة فميزوهم بابقاء شعر الرأس واللحية ، وبثيابهم الخاصة ، وحليهم ، ولم يقبلوا ان يعبدوا آلهة المصريين بل عبدوا آلهتهم (نوت) و (ست) و (سوتخ) وبنوا لهذه الآلهة معابد ضخمة ، واقاموا لها تماثيل فخمة في مديني (زوان) و (اوارس) وكانوا يؤرخون بزمن ملكهم العظيم (نوب) ودام عهد حكمهم من عهده الى ان انقرضوا اربعمائة سنة

وقد افاد الفراعنة المصريون فهم اشياء كثيرة اهمها التغيير في طراز البناء الفرعوني القديم ، ويعد بناء ابي الهول المجنح من مبتكرات الهكسوس ،ويقول بروغش بك : ان الآثار التي عثر عليها مما يتعلق بهم هي اثار قليلة جداً والسبب في ذلك هو ان الفراعنة

---

(١) انظر تاريخ مصر الحديث لجورجي زيدان ١ ص ٤١ و Joseplus, Wars of Iows I, 19

(٢) Brugesh Bey, History of Egypte Under the Phoraon, Lodon 1881

معد ان تغلبوا عليهم محوا اسماءهم عن تلك الآثار الا اسمين اثنين تمكن النقابون المحدثون بن قراءتهما وهي (دوعاكنن) و (نوبتي) .

ويقول بروغش بك ايضاً : ان النبي يوسف (ع) جاء الى مصر في زمن الملك الهكسوسي نوبتي وكان ذلك في سنة ١٧٥٠ ق.م.

وقد ظل هؤلاء الملوك يحكمون ديار مصر الى سنة ١٧٠٠ ق.م. ثم تمكن الفرعون احمس ملك طيبة ان يقضي على آخر ملوكهم وحكم مصر اثنين وعشرين سنة حاول فيها ان يطمس كل آثارهم (١)

وبعد القضاء على حكم الهكسوس ظهرت اسر قوية اعظمها الاسرتان التاسعة عشرة والعشرين واشهر ملوكها (رعمسيس الاول) رأس الاسرة التاسعة عشرة وكان حوالي سنة ١٣١٥ ق.م و (رعمسيس الثاني) حفيده وابن (بسامانيك الاول) وحكم من سنة ١٢٩٢ ق.م الى سنة ١٢٢٥ ق.م وقد حارب الحثيين في سورية وكسرهم في قادش وكان عظيماً ميالا الى العمران فشيد القصور الفخمة ، والهياكل الجبارة واعظمها في بلاد النوبة ، وطيبة ، والاقصر والكرنك . و (رعمسيس الثالث) الذي حكم مصر من سنة ١٢٠٠ ق.م الى سنة ١١٧٩ ق.م. وقد حارب اهل ليبيا وصد هجمات شعوب البحر .

ثم جاءت الاسرة الحادية والعشرون وحكمت من سنة ١١١٠ ق.م الى سنة ٩٨٠ ق.م واولها الكاهن صرصور الذي اختلس الملك من الاسرة العشرين باسلوب دنئ منقوش على هيكل (خوفو) بطيبة وتولى بعده ابيه الكاهن (يعن خي) فتزوج بابنة ملك سورية ووطد العلائق بين الاسرتين . وفي عهد هذه الاسرة قصد غرود ملك آشور في وادي الرافدين ارض مصر مدافعاً عن اسرة رعمسيس فطرد اسرة الكهنة واستولى على مصر وتلقب بملك اشور ومصر واتخذ مدينة (تنيس) عاصمة له وتأسست به الاسرة الثانية والعشرون واول ملوكها ابنه (ششنق بن نمرود) او (شيشق) كما في التوراة وقد ولد في مصر وتربى على التقاليد المصرية واسس لنفسه عاصمة في (تل بسطة) بالشرقية قرب مدينة الزقازيق الحالية ودامت هذه الاسرة من سنة ٩٨٠ ق.م الى سنة ٨١٠ ق.م وقد خلفت آثاراً جليلة في البناء والفتوح

وفي سنة ٨١٠ ق.م تغلب الامير (بتوباستيس) على الحكم واسس الاسرة الثالثة والعشرين وفي ايامه انقسمت ديار مصر الى عشرين اقليماً فتوزع السلطان وضعفت

---

(١) انظر تاريخ مصر الحديث لزيدان ١ص٤٢ ، وتاريخ سورية للدبس ١ص٢٢٠ .

البلاد ودام ذلك الى سنة ٧٢١ ق.م حين قام الامير (تفن خت) احد امراء الاقاليم فاستولى على مصر كلها بحريها وشرقيها ، وخلفه ابنه (باكوريس) وكان ملكاً حازماً عالماً فاضلا اراد النهوض بالبلاد ولكن الاحباش تغلبوا عليه في سنة ٧١٥ واسسوا الاسرة الخامسة والعشرين وكان اولهم الملك (سباقون) فاستولى على البلاد كلها ونظم امورها وابقى حكام البلاد الاصليين باضافة مشاورين احباش وكادت البلاد ان تستقر لولا قيام شلم نصر ملك آشور بالهجوم على الفينيقيين والفلسطينيين فاستنجد هؤلاء بالمصريين فقدم اليهم سباقيون وجنوده ولكنهم انهزموا امام الاشوريين ورجع الى مصر وتعاقب الملك في ابنائه الى سنة ٦٦٥ ق.م

وفي سنة ٦٦٥ ق.م حكمت مصر اسرة قوية عرفت بالاسرة الصاوية واولها الملك (بساماتيك الاول) وقد تولى على الامر والبلاد تئن من العنف والفوضى لما قاسته من الحروب الطويلة مع الاشوريين والاحباش فعمل على احياء معالمها وجدد معابدها ومعاهدها وحصن قلاعها وظفر على اعدائها وحبب اليه الناس في الداخل والخارج ، فقصدها العلماء والفنانون من البلدان المجاورة وبخاصة اليونان الذين اعجبتهم مصر وطاب لهم المقام فيها فتعلموا لغتها وعلومها واعتنقوا ديانتها واصطنعوا لهم آلهة على نمط الآلهة الفرعونية ونبغ منهم علماء فلاسفة عظام كان لهم اثر خالد في الحضارة الانسانية وتاريخ العقل البشري مثل افلوطن ، وفيثاغورس ، وصولون وغيرهم . وكان بساماتيك يحبهم ويقربهم وخلفه ابنه (نخاو) فوسع رقعة البلاد وتعاقب الاملاك من بعده الى سنة ٥٢٧ ق.م

ثم استولى على الحكم قمبيز الفارسي فأسس الاسرة السابعة والعشرين في سنة ٥٢٧ حين سيطر على مصر ودام حكم هذه الاسرة الى سنة ٤٠٦ ق.م حين استرد المصريون بلادهم وطردوا الفرس وقامت الاسرة الثانية والعشرون والتاسعة والعشرون والثلاثون من سنة ٤٠٦ ق.م الى سنة ٣٤٠ ق.م حين استولى على مصر (اوخوس) الفارسي فأعادت النفوذ الفارسي على البلاد الى ان كانت سنة ٣٣٢ ق.م فاستولى اليونان على مصر وطردوا الفرس وكان ذلك على يد الاسكندر المقدوني العظيم .

ولما تغلب الاسكندر الاكبر على الفرس واخرجهم من مصر واستولى عليها شيد مدينة الاسكندرية واسس الاسرة الثانية والثلاثين وقام باعمال عمرانية وثقافية اصلاحية في البلاد الى ان هلك سنة ٣٢٣ ق.م

فلما مات الاسكندر تولى بطليموس الاول على مصر واسس اسرة البطالسة وهي

الأسرة الثالثة والثلاثون وقد دام سلطانها في مصر من سنة (٣٢٣) ق.م الى سنة (٣٠) ق.م وقد كان عهد البطالسة عهداً ميموناً مباركاً عمرانياً ، ازدهرت فيه البلاد ، واختلطت الثقافة المصرية بالثقافة اليونانية فانتجت اطيب النتائج . ومن مآثرهذه الاسرة مدرسة الاسكندرية العظيمة ، وخزانتها الكتبية الخالدة ، وعدد لا يحصى من المعابد والهياكل الرائعة

وفي سنة ٣٠ ق.م استولى الرومان على مصر والحقوها بامبراطوريتهم في روما ودام سلطانهم على مصر الى سنة ٣٨٠ م . وفي عهد الاسرة الرومانية وهي الاسرة الرابعة والثلاثون دخلت المسيحية الى مصر وكان ذلك في سنة ٣٨١ م . وظل ذلك الى الفتح الاسلامي

٨) الدولة التدمرية :

تنسب الدولة التدمرية الى مدينة تدمر (بالميرا) الواقعة في اطراف البادية التي تفصل الشام عن العراق على بعد مائة وخمسين ميلا عن دمشق نحو الشمال الشرقي . وهي من المدن القديمة ، ذكرتها التوراة باسم (تدمر) او (تدمورا) (١) وقد اشتهر امرها في النصف الاول من الألف الاول قبل الميلاد حين كانت القوافل التجارية تجتاز بها حين تخرج من الحبشة واليمن الى العراق ، فتمر بها ثم تقصد العراق ففارس . وكانت مدينة الحجر (بطرا) تنافسها ، ولم يلمع نجمها الا بعد افول نجم الحجر في اوائل القرن الثاني للميلاد فتحولت التجارة العربية اليها وحدها واخذت شهرتها تطبق الآفاق في المشرق كله منذ ذلك الحين ، وتسامع الرومان بها فطمعوا في السيطرة عليها وادخالها تحت حوزتهم ، وتم ذلك للامبراطور ادريان من سنة ١٣٠ للميلاد وذهب اليها وبدل اسمها فسماها باسمه (ادريا بوليس) وقد عثر في التنقيبات التي اجريت فيها على نقوش مؤرخه بسنة ١٣٧ للميلاد ذكر فيها تفصيل الضرائب والمكوس التي وضعتها الحكومة الرومانية المحتلة على التجار وارباب الصنائع فيها .

وكان في تدمر حكومة منظمة لها مجلس شيوخ ، ورئيس و ... ولما نشبت الحروب

---

(١) انظر سفر الايام الثاني .

العظمى بين الفرس والرومان عظم امر تدمر واصبحت مدينة كبرى ذات ثروة ضخمة حتى صارت سيدة مدن المشرق الرومانية ، وتولى زعامتها بنونصر الذين اسسوا فيها اول دولة عربية قوية عرفت بالدولة التدمرية ، وكان اول ملوك هذه الدولة الملك أذينة بن حيران بن وهب اللات بن نصر ، ولكن هذه الدولة لم تستطع ان تتخلص من النفوذ الروماني ، ولما اراد اذينه اقصاء الرومان عن بلاده عملوا على قتله وتم لهم ذلك في اواسط القرن الثالث للميلاد .

وخلفه من بعده ابناه اذينة الثاني وحيران ، وكان اذينة الثاني شديد التحمس لقومه ينتقص الرومان ويعمل على الانتقام من قتلة ابيه ، فجمع نخبة كبيرة من شبان العرب ورجالات القبائل العربية المجاورة لتدمر وجعل منهم فرقاً محاربة قوية ، واتخذ فرصة خروج فاليريان الروماني لمحاربة سابور الفارسي فهيأ نفسه للانقضاض على الرومان على الرغم من ان فاليريان انعم عليه بلقب قنصل وهو من اكبر القاب الدولة الرومانية فتغلب عليه وما زال امره يعظم حتى صار سيد الشرق وامتدت سلطته الى سورية كلها وجميع مدن آسية وفي سنة ٢٦٤ م منحته روما لقب حاكم عام على المشرق من حدود ارمينية الى جزيرة العرب ، كما منحت امرأته السيدة الجليلة الزباء (زينوبيا) لقب (سبتيما) وهو من اجل القاب التشريف والسلطان لدى الرومان .

في سنة ٢٦٧ مات الملك اذينه فخلفه ابنه وهب اللات الذي يسميه الرومان (اثينو دوروس) وكانت امه السيدة الجليلة الزباء هي التي تدير امره وتدير شؤون الدولة وتداري امبراطور روما ، ولكنها لما علمت هي وابنها ان روما تمر بفترة اضطراب داخلية في سنة ٢٧١ م خلعت الطاعة وثارت على اورليان امبراطور الرومان وازالت اسمه من نقودها ، ونصبت نفسها قائدة عليا على الجيش العربي في المشرق ، ولقبت ابنها بلقب ملك الملوك ومحي الدولة وسمته باسم (اغسطس) ، وسارت على رأس جيش كبير فاستولت على العراق والشام ومصر وآسية الصغرى حتى بلغت انقره فلما سمعت تجمع الرومان عليها اضطرت الى الرجوع للشام ولحق بها الرومان والتقى الجيشان عند انطاكية فتغلب الرومان عليها ثم جددت عزمها فلقيهم ثانية عند حمص ولكنها لم تستطع قهرهم فكتبت الى اورليان تعلمه انها لم تخسر احداً من رجالاتها لان الذين قتلوا من جندها كانوا من الرومان الذين انضووا تحت لوائها ، فاثار هذا القول غيظ اورليان وبعث اليها جيشاً قوياً وحاصرها في تدمر فاضطرت ان تنجو بنفسها وهربت الى فارس فلحق بها الرومان وامسكوا بها واخذوها اسيرة واضطر التدمريون الى

الاستسلام في سنة ٢٧٢ م . وقبض اورليان على خزائن تدمر ، واذن للزباء ان تعيش اسيرة في كنفه ، وهكذا قضى على الدولة التدمرية وهي في ابان فتائها

* *

إن لهذه الدولة الفتية اثاراً جليلة في العمران والحضارة وبخاصة في البناء والزخرفة ، فقد اكتشف النقابون في اطلال تدمر الفخمة الضخمة العظيمة تماثيل ونقوشاً رائعة ، كما وجدوا فيها كثيراً من الهياكل والتماثيل ، واجمل هذه الهياكل هيكل الشمس العظيم في بنائه وهندسته وزخرفته ونقوشه .

وقد خلفت هذه الدولة كثيراً من النقوش والكتابات المسطورة باللغة التدمرية وهي من بنات اللغة الآرامية ، الغنية في نحوها وصرفها وقواعدها . وتضمنت هذه النقوش بعض القوانين الشرعية والانظمة التجارية ، لان عاصمتها كانت مركزاً من اهم مراكز التجارة في الشرق ، كما كانت سوقاً من اعظم اسواق الاقتصاد في تلك البقعة وكان تجارها يحملون من جزيرة العرب والحبشة ومصر ما تخرجه ارضوها من الذهب والطيوب والانسجة الفاخرة ، ويستجلبون من العراق والمشرق لآلي البحرين وتحف الهند ، وانواع العطور والبخور والتوابل والفولاذ والعاج وغيرها . وكانوا ينقلونها الى الشام ومصر واوروبة .

حضارات الوسط

•

١٠) الدولة النبطية :

قامت هذه الدولة في جنوبي الشام وشمالي شبه جزيرة سينا ، وكان اليونان يسمونها الدولة العربية الحجرية Arabia Petro ، واول من سكن تلك الديار من العرب هم (الحوريون) الذين كانوا يسكنون الكهوف ، وهم الذين يسميهم اليونان (تروغلوديت Troglodytes) وكانوا على جانب عظيم من القوة ينحتون من الجبال بيوتاً ويتخذون الكهوف مساكن وهياكل ، وليست لدينا معلومات مفصلة عن تاريخهم واحوالهم السياسية والعلمية (١)

وقد انقرضوا وضاعت اخبارهم وخلفهم في تلك الديار (الادوميون) وهم من ابناء ادوم وهو عيصو بن اسحق (ع) بعد ان غلبوهم ، ولا نعرف بالضبط الزمان الذي استولوا فيه على ديارهم الا أن في التوراة اشارات الى ذلك ففي سفر التكوين (١) آيات تدل على ان هؤلاء الادوميين قد حاربوا الاسرائيليين في عهد الملك شاوول (طالوت) وكان ذلك في القرن العاشر ق.م. ولكن طالوت لم يستطع التغلب فلما تولى امر بني اسرائيل (داود) (ع) حمل عليهم واغار على بلادهم واخضعهم ورجع الى فلسطين بعد ان اقام في بلادهم حامية ولكن زعيم الادوميين جمع قواه ، واراد التخلص منهم ، واقصاء النفوذ اليهودي فلم يفلح . قال جرجي زيدان : « وهم قائد من الادوميين في عهد سليمان بخلع الطاعة فلم يفلح فما زالوا تحت سيطرة الاسرائيليين الى ايام (يهوشافاط) فحالفوا اعداءه واعانوهم على حربه فلم يفوزوا ، ولكنهم اغتنموا ضعف الاسرائيليين وعادوا الى الاستقلال .. حتى اذا حمل نبوخذ نصر على اورشليم كان الادوميون عوناً له على اهلها واشتركوا في نهبها وذبح اهلها فكافأهم نبوخذنصر على نصرته بتأييد

---

(١) انظر التوراة ، سفر التثنيه فصل ٢ — ١٢ .

سلطتهم في ادوم وتوسيعها الى حدود مصر وشواطئ البحر المتوسط ..(١) » فقوي منذ ذلك الحين نفوذهم ، واخذوا يتوسعون حتى بلغوا حوران ودمشق وحدود العراق ومصر ، ولكنهم فوجئوا بزحف اخوانهم الانباط على ديارهم فتفاهموا واياهم واندمجوا في صفوفهم وكان ذلك في القرن الرابع قبل الميلاد .

وبهذا الاندماج تم تأليف الدولة النبطية القوية التي ظلت الى اوائل القرن الثاني للميلاد ، حين استولى الرومان عليها في سنة ١٠٦ م فاصبحت خاضعة لنفوذهم .

وقد خلقت دولة الانباط هذه حضارة عريقة وعمراناً وكانت عاصمتهم مدينة سلع (بطرا — البتراء) في وادي موسى عند ملتقى الطرق التجارية بين تدمر وغزة واورشليم ، واليمن والخليج العربي .

وما تزال اطلال هذه المدينة الجبارة ، وبخاصة في (الحجر) شاهداً على ما بلغه اهلها من الرقي العمراني والهندسي والفني ، واجل هذه الاطلال القصر المعروف اليوم (بخزينة فرعون) وهو بناء شامخ منقور في الصخور ذات اللون الوردي البديع وقد نقشت واجهة هذا القصر نقشاً بديعاً ، وزينت بالكتابات النبطية الجميلة (٢) واقيم الى جانب القصر مدرج صخري كان يتخذ مسرحاً للألعاب العامة ، يذكرنا بمسارح روما وأثينا ، ومن آثارها ايضاً (قصر الدير) وهو كهف ضخم بارع الهندسة ، كثير النقوش ، غني الزخارف .

وقد ظلت عاصمتهم (سلع) مركزاً تجارياً عظيماً بين الشرق والغرب والشمال والجنوب منذ عهد ملكهم الحارث الاول الذي حكم من سنة ١٦٩ ق.م. الى عهد آخر ملوكهم مالك الثالث الذي حكم الى سنة ١٠٦ م . (٣) وفي تلك السنة جرد الامبراطور تراجان امبراطور الرومان حملة على الدولة النبطية فخضعت لنفوذه من ذلك الحين .

وقد وصف المؤرخ ديودوروس الصقلي في القرن الاول قبل الميلاد هؤلاء القوم وما كانوا عليه من حضارة ، ماشاهده بنفسه في ديارهم فقال : « ان الانباط يعيشون في البادية الجرداء التي لا انهار فيها ولا سيول ولا ينابيع ، ومن امهات قوانينهم منع زراعة الحبوب او استثمار الاشجار وتحريم الخمر وبناء المنازل ويعاقبون من يخالف ذلك بالقتل مع التشديد في العمل بهذه القوانين ويقتات بعضهم بلحوم الابل والبانها ،

---

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام لزيدان ١ص٦٩ ، وراجع كذلك تاريخ العرب لجواد علي ٢ص٣٥٧.

(٢) انظر تاريخ العرب قبل الاسلام لجرجي زيدان ١–٧٣ .

(٣) « سيرة ابن هشام ٢ص٣٢٠ ، والمقدسي في احسن التقاسيم ص ١٧٥ ، والاصطخري ص ٦٤ .

وبعضهم بالماشية او الغنم . وانهم يشربون الماء المحلى بالمن ، ومنهم قبائل عديدة تقيم في البادية ولكن النبطين اغنى تلك القبائل وان كان رجالهم لا يزيد عددهم على عشرة آلاف ، وثروتهم من الاتجار بالاطياب والمر وغيرها من العطريات يحملونها من اليمن وغيرها الى مصر وشواطئ البحر الابيض المتوسط ، ولم تكن تمر تجارة في ايامهم بين الشرق والغرب الا على يدهم ، ويحملون الى مصر على الخصوص القار لاجل التحنيط ، وهم ضنينون بحريتهم فاذا دهمهم عدو يخافون بطشه فروا الى الصحراء وهي امنع حصن لانها خالية من الماء فلا يدخلها سواهم الا مات عطشاً ، اما هم فيشربون من صهاريج سرية مربعة الشكل منقورة في الصخر تحت الارض يخزنون الماء فيها ..(١)

وكان للقوم عناية شديدة بالآداب من شعر ونثر وحكمة ، وكانوا يعظمون الشعراء واهل المعرفة ، ولكن آثارهم قد ضاعت ، وان كانت النقوش الحجرية التي ابقوها تدل على شيء من ذلك

اما لغتهم فهي اللغة العربية ولاتكاد تختلف عنها ، وبخاصة عن لغة الشعر الجاهلي الا قليلا ، على ما تقتضيه سنن النشوء والارتقاء ، الا انهم لم يكونوا يكتبون بالحروف العربيةوانما كانوايكتبون بحروف ابناءعمومتهم الاراميين لانحروفهؤلاء كانتأشهر (٢) وقد خلفوا مدناً خالدة اجلها :

سلع : وتسمى بطرا والبتراء وهي عاصمتهم وموقعها بين بحيرة لوط والبحر الاحمر وفيها آثار عريقة تبين عن مقدار المدنية النبطية وبخاصة مدافنها ومعابدها ومعاهدها

ومن مدنهم الغنية التي بقيت عامرة الى العصور المتأخرة مدينتا بصرى الشام ، وصلخد وكانت هذه المدن حصوناً وملاجئ ومخازن لتجاراتهم الكبيرة .

١١) الدولة الثمودية:

قامت الدولة الثمودية في فجر الالف الاول قبل الميلاد من شمالي الحجاز الى جنوبي ديار الانباط وقد اشار القرآن الكريم الى شيء من تاريخهم واحوالهم فقال تعالى « والى ثمود اخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من آله غيره قد جاء كم بينة من ربكم ،

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي ١ ص ٧٧ .
(٢) « « « « لجرجي زيدان ١ -٨٢-٨٣ .

هذه ناقة الله لكم آية، فذروها تأكل في ارض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب اليم، واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم من الارض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا الآء الله ولا تعثوا في الارض مفسدين ، قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن معهم اتعلمون ان صالحاً مرسل من ربه قالوا انا بما ارسل به مؤمنون .. قال الذين استكبروا وانا بالذي آمنتم به كافرون فعقروا الناقة وعتوا عن امر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين فاخذتهم الرجفة فاصبحوا في دارهم جاثمين الخ تلك الآيات (١) التي تدل على ان القوم كانوا اشداء ذوي حضارة وبناء ونعم وآلاء . وقد ظل تاريخ الثموديين مجهولا حتى قامت حركة الاكتشافات والتنقيبات الاثرية في القرن التاسع عشر فاثبت ان سلطانهم كان ممتداً من جنوبي الشام الى ساحل البحر الاحمر وانهم كانوا ذوي حضارة وعلم ورقي واهتمام كبير بشؤون التجارة ونقلها من ممالك جنوب العالم المتمدن القديم الى ممالك الشمال المقدنة ، وقد عثر على كتابات ثمودية يرجع تاريخها الى القرن السابع ق.م. في اليمن والحجاز ونجد (٢)

ولكن معلوماتنا – مع الاسف الشديد – عن هؤلاء القوم جد قليلة فان النقوش الكثيرة التي اكتشفت لا تدلنا مع اهميتها عن احوالهم السياسية وانما تدل على احوالهم الشخصية والدينية والاقتصادية واللغوية ، وقد قسم علماء الآثار هذه الآثار المكتوبة بالقلم الثمودي الى قسمين .

الاول : المكتوب باللسان الثمودي القديم

والثاني : المكتوب باللسان الثمودي الحديث

وقد درس علماء المشرقيات هذه اللغة دراسة دقيقة واثبتوا انها كانت لغة رفيعة في نحوها وصرفها وآدابها ، وإنها كانت متناشرة بالخطين المسندالجنوبي ، والارمي الشمالي(٣) وقد كان الثموديون خلفاء لقوم عاد الذين سكنوا ديارهم وضاعت عنا تفصيلات اخبارهم ، كما اشار الى ذلك القرآن الكريم وقال ان الله سبحانه قد احل الثموديين محل قوم عاد لما طغوا وعبدوا الاصنام ، وخرجوا عن طاعة الله ، واستبدوا فبوأهم

---

(١) القرآن الكريم سورة (الآية) .

(٢) انظر كتاب موسيل Musil عن الحجاز Hegaz. p. 291 .

(٣) » كتاب Dussaud عن جغرافية سورية ص ٦٦ .

وكتاب Littman عن اللغات القديمة . Mith .

واعزهم حتى بلغوا درجة رفيعة في الحضارة وشيدوا القصور في السهول ونحتوها في الجبال .

وقد عبد الثموديون الاصنام وألهوها ومن اصنامهم المشهورة (ود) الذي اشار اليه القرآن الكريم ، وقد كانت له مكانة رفيعة عند جميع قبائل العرب الشمالية والجنوبية والظاهر انه كان من الآلهة القديمة جداً ، ولعله كان من آلهة العرب العظمى في الالف الثاني قبل الميلاد . وذهب المستشرق الالماني البروفسور هومل الا انه هو الآله (هدد) او (أدد) الذي عبد في الشمال ايضاً وانه هو القمر ، وقد ظل هذا معبوداً الى ما بعد ظهور الاسلام عند العرب الجاهلية حتى حطمه الاسلام.ومن اصنامهم ايضاً الإلهة(شمس) التي كانوا يعبدونها ، وقد كانت معبودة ايضاً في الشمال عند البابليين ، وفي الجنوب عند اليمنيين ، ومن اصنامهم ايضاً الإلهة (مناف) و (مناة) و (كاهل) و (بعلت) و (يهو) (١)

والحضارة الثمودية حضارة تتجلى اليوم اكثر ما تتجلى في آثارها الكتابية وخطوطها ، وبخاصة الخط المتأثر بالخطين المسند والأرمي ، اما ، عدا الآثار الكتابية ، وبعض الآثار العمرانية فانها تكاد تكون مجهولة حتى الآن .

وقد خلفوا مدناً خالدة أجلها :

الحجر : وهي مدينة عظيمة جنوبي مدينة تيماء وعلى بعد يوم من وادي القرى ويقال لها اليوم (الحريبة) و (فح الناقة (وهي التي يسميها بطليموس بدنتا Badanta ولما احتل سرجون الثاني بلاد العرب في سنة ٧١٥ ق.م. احتلها واراد تهديمها ولكنه لم يتمكن ، ثم تركها بعد ان جلا عن البلاد العربية جمعاء .

وقد ظل الثموديون معروفين الى القرن الخامس للميلاد فقد ورد في بعض المصادر التاريخية الرومانية ان الجيش الروماني في هذا القرن كان يحتوى على فرقة عرفت باسم الثموديين وانها كانت من سكان تلك المدينة (٢)

وصفوة القول ان تاريخ ثمود ما يزال بعد غامضاً ، ولكن التنقيبات الاثرية المستقبلة تكشف لنا عن الكنوز المدفونة المجهولة عن تاريخهم

---

(١) راجع تفاصيل احوال هذه الاصنام في كتاب الاصنام لابن الكلبي الذي نشره احمد زكي باشا ص٣٠-٣٣ وكتاب تاريخ العرب لجواد علي ٢ ص ٣١٥.

(٢) Daughty, Arabia Deserta I. 229

١٢) المملكة الجنوبية :

قامت المملكة في فجر القرن التاسع قبل الميلاد جنوبي شرقي دمشق ، ولا نكاد نعرف شيئاً مفصلا حقيقياً عن هذه المملكة ولا عن احوالها السياسية ، وانما تذكر المصادر التاريخية ان ملك آشور (شلم نصر) لما زحف الى سورية واراد احتلالها تجمع ملوكها ، وامراؤها بزعامة الملك بر أُردي (١) (بن هدد) الثاني ملك دمشق الارمي للوقوف في وجه الملك الاشوري وكان من بين هؤلاء الملوك (جنديبو ملك عريبي) اي جنوب ملك العرب ولما انتصر (شلم نصر) على خصومه هؤلاء ودمر ديار الشام وبخاصة مدينة قرقر الواقعة شمالي حماه ، سجل هذا الانتصار ، وصار في ذلك التسجيل ذكر اسم اثني عشر ملكاً كان ملك دمشق الارمي استغاث بهم لنصرته على شلم نصر وكان من بينهم بن (جنديبو) . ولكن الملك (بن هدد) لم يستكن للاشوريين وظل يقاومهم حتى غلبهم ، واستطاعوا ان يحتلوا سورية ثانية في عهد (تكلات بيلاسر الاول) ٧٤٥ — ٧٢٧ ق.م. (٢) وهذه اول مرة نجد في الوثائق والآثار التاريخية لفظ (عربي) او (عرب) او (عريبي) .

يقول المحقق الدكتور جواد علي في الفصل القيم الذي ذكر فيه صلات العرب بالاشوريين : ان اول اشارة الى العرب وردت صراحة في النصوص هي الاشارة التي وردت في كتابات الملك سلمناصر (شلم نصر الثالث) ملك آشور عن معركة قرقر التي وقعت حوالي سنة ٨٥٣ ق.م. فقد قاد هذا الملك في السنة السادسة من حكمه حملة على ملك دمشق الارمي وعلى حليفيه آخاب ملك اسرائيل وجنديبو (Zundibu) جندب ملك عريبي (اريبي) الذي انضم الى صاحبيه وقدم اليهما الف جمل واشترك في الحرب . انتصر شلم نصر الثالث كما يظهر من كلماته التي سجلها لهذه المناسبة على ملك دمشق وعلى حلفائه فاحرق ودمر مدينة قرقر ودكها دكاً ، واوقع بالجيوش الحليفة خسائر كبيرة ، وقد جاء في كتابته ذكر اثني عشر ملكاً استقدمهم ملك دمشق لمعونته ، وملك دمشق الذي الف الحلف للوقوف في وجه الاشوريين هو الملك برادري

---

(١) يسميه الدكتور جواد علي خطأً (بيرادري) والصواب ما اثبتناه لان (بر) معناها (ابن) و (أدر) او (ادري) هي تحريف (هدد) اله الدمشقيين .

(٢) راجع كتاب موسيل .Musil, Hegaz 287 و Musil, Deserta 477
وكتاب ادي شير في تاريخ (كلدا وآشور) طبع المطبعة اليسوعية بيروت ص ٨٠ وتاريخ سورية المطران الدبس ١ ص ٣٠٦ .

(Biridri) المعروف في التوراة باسم بنهدد Ben Hadad الثاني ، وقد هاله توسع الاشوريين وتدخلهم في شؤون الممالك الصغيرة والمشيخات ودخولهم مملكة حلب التي خشيت المصير السيء الذي لاقته المدن والممالك التي قاومت جيوش شلم نصر الثالث فقررت الاذعان للأمر الواقع وتأدية الجزية والاعتراف بسيادة آشور عليها فعزم على الوقوف امام الاشوريين وتأليف حلف من الملوك السوريين ومشايخ البادية لدرء هذا الخطر الداهم من اثني عشر ملكاً من ملوك سوريا اليه وهم في الواقع مشايخ اقطاعيون وامراء مدن انضم اليهم ملك حماه الذي جثم الخطر امام مملكته وأحاآب ملك اسرائيل وامراء الفينيقيين ومشايخهم وجندب ملك العرب الذي امن الحلف بالف جمل فاغرقت هذه القوة سبيل الاشوريين .. اما النصر فكان حليف شلم نصر ، انتصر عليهم على حد روايته بسهولة ويسر واوقع فيهم (١٤٠,٠٠٠) اصابة او (٢٥,٥٠٠) على رواية اخرى وغنم منهم غنائم كثيرة وتفرق الشمل .. تبين من كتابة سلم نصر هذه ان الملك احرز انتصاراً باهراً حاسماً على الحلفاء وانه اوقع بينهم خسائر جسيمة غير ان اخبار الحروب التي قام بها فيما بعد على سورية ومقاومة (بنهدد) له مراراً كل هذه لا تؤيد اقوال ملك آشور في جسامة الخسائر وفي النصر الحاسم العظيم على الاراميين ومن انضم اليهم من مشيخات ورؤساء . وعلى المؤرخ الحديث الا يثق بهذه الارقام والكتابات التي يسجلها الملوك عامة عن انتصاراتهم واعمالهم فقد عودنا الملوك تدوين المبالغات والزيادات في اخبارهم ، والغض من تدوين اخبار الانتكاسات او الهزائم التي تقع بهم .. و (جنديبو) الذي ملك دمشق وحلفاءه بالف جمل هو اول ملك (عربي) يصل الينا خبره ، وجنديبو هو (جندب) وجندب من الاسماء المعروفة عند الاسلاميين ، ومهما يكن من أمر فأن جندباً هذا كان من الملوك الاقوياء الذين شادوا ملكاً في الجنوب الشرقي من مملكة دمشق على ما يحدثنا به المؤرخ موزيل النمسوي الذي جاب البادية العربية واتصل باعرابها اتصالا قوياً وعرف اخبارهم واخبار ديارهم وعرف بينهم باسمه الشيخ موسى الرويلي لانه اقام طويلا في قبائل الرولة فعرف بهم ..(١)

ولم يكن جندب هذا هو الملك (العربي) الوحيد الذي ورد اسمه في الحملات التي قام بها الملوك الأشوريون على الشام وانما هناك اسم لمملكة عربية تسميها المصادر القديمة زبيبى (زبيبه) وانها كانت ملكة ارض (عريبى) وانها اضطرت ان تدفع الجزية ايضاً للملك (تكلات بيلاسر الثالث) لما زحف الى سورية في سنة

---

(١) تاريخ العرب لجواد علي ٢ص٣٠١ .

٧٣٨ ق. م. كما نجد اسم ملكة عربية أخرى اسمها (شمسة) في تسجيل زحفه على سورية في سنة ٧٣٢ ق. م. ، وان هذه الملكة قد عوقبت عقاباً شديداً من قبل الأشوريين لأنها حنثت بيمينها ألا تتعرض للأشوريين ولكنها حنثت وكفرت بالعهد الذي قطعته على نفسها فاستولى الملك الأشوري على ديارها واخذ منها الجزية ، وأقام في ديارها مندوباً عنه الأمير كيبو (Kepu) وكان هذا المندوب يرسل تقارير عن حالة هذه الملكة الى الحاكم الأشوري العام الذي أقامه الأشوريون في سورية ويذكر النص الأشوري الذي تحدث عن هذه الحملة : ان الملكة شمسة قد أصيبت بخسائر فادحة جداً وهي مئة الف رجل وثلاثون الف جمل وعشرون الفاً من الماشية ، وقد صور على اللوحة التي ذكر فيها هذا الخبر منظر فارسين أشوريين يحملان رمحين يتعقبان بدوياً راكباً جملا ، وتحت أقدام الفارسين وأمامهما جثث القتلى من العرب قد صوروا بشعورهم الطويلة المعقوصة الى الخلف ، ولحاهم الكثة واجسامهم العارية الا من مئزر يستر عورتهم وقد حرص الفنان الأشوري على تصوير العربي الراكب قريباً من الفارسين وهو يمد يده اليمنى اليهما متوسلا ، وصورت الملكة شمسه حافية ناشرة شعرها ، تحمل جرة وقد أضناها الجوع وخارت قواها(١)

والخلاصة ان تاريخ هذه الأسرة ما يزال غامضاً فلعل الحفريات القادمة تكشف شيئاً حقيقياً عن تاريخها .

١٣) مملكة تيماء :

ان تيماء هي على الطريق التجاري الذي كان يقع بين مدن العرب التجارية في الجنوب والمدن التجارية في الشمال ، وقد ذكر في التوراة (تيماء) على انه اسم احد ابناء اسماعيل الاثني عشر (١) وبه سميت المدينه التي سكنها هو وابناؤه من بعده : وعرف اهل هذه المدينة بالتجارة منذ القديم وكانت لأهلها علاقات تجارية قوية مع اهل سبأ كما يفهم من أقوال التوراة « نظرت قوافل تيماء سيارة سبأ رجوها ، خزوا فما كانوا مطمئنين ، جاءوا اليها فخجلوا ، فالآن قد صرتم مثلها رأيتم خربة

(١) انظر تاريخ سورية للدبس ١ ص ٣٠٨ و Almstread, Hist. of assyria p. 199

(٢) سفر التكوين ٢٥، ١٥ ، سفر اخبار الأيام الأول ١، ٣٠ وسفر اشعيا ٢١، ١٤

تفزعتم (١) ، وكان الى جانب تيماء هذه مدينة اخرى تذكر كثيراً معها في التوراة وهي مدينة (ددان) وهي المعروفة اليوم بالعلا (٢) وانها كانت تتاجر مع مدينة صور عاصمة الفينيقيين بالعاج والآبنوس وطنافس الركوب (٣) .

اما المصادر العربية فتذكر تيماء على انها بليدة معروفة في الجاهلية وصدر الاسلام ، يقول ياقوت : تيماء بليدة في اطراف الشام بين الشام ووادي القرى على طريق حاج الشام ودمشق ، والأبلق الفرد حصن السموأل بن عادياء اليهودي مشرف عليها فلذلك كان يقال لها تيماء اليهودي ... ولما بلغ اهل تيماء في سنة ٩ للهجرة وطء النبي وادي القرى ارسلوا اليه وصالحوه على الجزية واقاموا ببلادهم وارضهم فلما اجلى عمر اليهود عن جزيرة العرب اجلاهم معهم ، وقال الأعشى :

ولا عاديا لم يمنع الموت ماله ووِرد بتيماء اليهود ابلق

وقال بعض العرب :

الى الله اشكو لا الى الناس انني بتيماء تيماء اليهود غريب (٤)

فهذا يدلك على انها في الجاهلية كانت بلداً يهودياً سكنه اليهود او متهوّدة العرب.

وأما المصادر التاريخية القديمة فتحدثنا ان الملك (بنونيد) ملك بابل (٥٥٥ — ٥٣٨ ق . م) قد قدم ديار العرب واتخذ تيماء مقراً له في سنة ٥٥١ ق . م (٥) بعد ان قتل ملكها وفتك بأهلها وجعل لنفسه قصراً فيها ، كالقصر الذي بناه ببابل (٦) وقد أقام بنونيد في قصره هذا مدة من الزمن ثم اضطره الملك قورش ان يترك ديار العرب حوالي سنة ٥٣٩ ق. م. فلا شك في ان هذه الإقامة التي أقامها بنو يند في تيماء قد قوت الصلات بين البابليين وأهل تيماء ، كما انها نقلت اليهم كثيراً من الثقافة والديانة والحضارة البابلية . ولا ريب في ان الدافع الذي دفع الملك بنونيد الى احتلال هذه المدينة وما اليها واتخاذه اياها عاصمة لملكه ،

(١) سفر ايوب ٦، ١٩، ٢١

(٢) Margolioth, the Palestine between Arabs and Israelites. Prior. to the Rise of Islam. p. 32.

(٣) سفر حزقيال ٢٥-١٣ ، ٢٧-١٥ ، ٣٨-١٣

(٤) معجم البلدان ، طبع القاهرة ٢-٤٤ .

(٥) راجع كتاب Muzil, Negd 225

(٦) تاريخ العرب لفيليب حتي ص ٤٩ — ٥٠ .

بدل عاصمته في وادي الرافدين - بابل - هو ما كانت تتمتع به من مكانة تجارية هامة في الشرق كله ، فضلا عن مكانتها السياسية وموقعها الحربي المهم من مدن الشرق والغرب .

١٤) دول الحجاز وتهامة ونجد :

أقدم ما عثرنا عليه في المصادر الموثوقة عن تاريخ تحضر الحجاز هو ما تذكره المصادر العربية القديمة من ان قلب الجزيرة العربية كانت تسكنه بعض القبائل من العرب العرباء المعروفين ببني جرهم . وان اسماعيل بن ابراهيم وامه هاجر قد هاجرا من فلسطين في القرن التاسع عشر ق. م. الى الحجاز وتختلف المصادر العربية والتوراة في المكان الذي قصداه بعد ان هاجرا من فلسطين ، فالتوراة تقول انهما خرجا حتى بئر السبع وانه قد نفد ما عندهما من الماء وكادا ان يموتا عطشاً فهدى ملك الله هاجر الى بئر فملأت القربة ، وسقت ابنها ، وان اسماعيل شب في برية فاران (١) ، والمصادر العربية تقول انهما قد قصدا الحجاز وان برية فاران هذه ليست الا مكة ، وان اسماعيل (ع) شب بين قبيلة جرهم وتعلم من أبنائها العربية ، وأعجبهم فزوجوه رعلة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي ، وان الماء الذي اهتدت اليه هاجر انما هو بئر زمزم في مكة المكرمة ، وان اسماعيل بن ابراهيم قد ولد اثني عشر ولداً منهم نابت (نبيت) وقيدار وهما أبوا العرب المستعربة .

يقول جرجي زيدان بعد ان ذكر قصة سفر اسماعيل وامه : يؤخذ من القرائن التي تقدمت ان عرب الشمال في الطور الثاني ، تتصل اخبارهم باقدم تاريخ تلك الجزيرة ولا سيما اذا اعتبرنا حكاية اسماعيل تاريخية وعددناها بدء تاريخ جديد لأولئك العرب ، لأن الاسماعيلية يبدأ تاريخهم في القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، ومع ذلك فليس لدينا من أخبارهم القديمة ما يعوّل عليه كأن اولئك العرب كانوا في سبات لم يستيقظوا الا حوالي التاريخ المسيحي ، والغالب أنهم كانوا خاملي الذكر لأنهم لم ينشئوا دولا ، وكانت دول العرب الأخرى في اليمن ومشارف الشام

---

(١) سفر التكوين ٢١ - ٩ .

والعراق ، وغيرها تستخدمهم في نقل التجارة على القوافل بين ممالك ذلك التمدن ويعبرون عنهم تارة بالاسماعيلية ، وطوراً بقيدار او غيرها ... (١) » وقول زيدان هذا لا يعتمد على نصوص منقولة ، وانما هو بحث شخصي فلماذا لا نعتبر قصة هجرة اسماعيل قصة تاريخية واقعية جاءت بها التوراة ثم القرآن ، وأثبتتها المصادر العربية القديمة ، وان فاران التي ذكرتها التوراة ليست الا اسماً من أسماء مكة او هي على الأصح اسم جبل مكة ، قال ياقوت : (فاران كلمة عبرانية معربة وهي من أسماء مكة ذكرها في التوراة ، وقيل هو اسم لجبال مكة) ، وقال ابن ماكولا ابو نصر بن القاسم بن قضاعة القضاعي الفاراني الاسكندراني : سمعت ان ذلك نسبة الى جبال فاران وهي جبال الحجاز ، وفي التوراة : « جاء الله من سيناء وأشرق من ساعير ، واستعلن من فاران » ومجيئه من سيناء تكليمه لموسى ، واشراقه من ساعير – وهي جبال فلسطين – هو انزاله الانجيل على عيسى ، واستعلانه من جبال فاران انزاله القرآن (٢) » .

فهذا يدل على ان فاران هي مكة او جبالها ، وقد وفق بين الروايتين جرجي زيدان حيث يقول « فالتوراة تقول انه برية فاران ، او جبل فاران ، وكلاهما عند العقبة شمالي جزيرة سيناء ، والعرب يقولون انه مكة بالحجاز ، ويسهل تطبيق الروايتين متى علمنا ان جبال مكة او جبال الحجاز تسمى أيضاً فاران فيكون المراد ان البرية التي أقام فيها اسماعيل برية الحجاز . أو أنه أقام حيناً في سيناء ، ثم خرج الى الحجاز ، وسكن هناك وتزوج ، والتوراة لم يذكر اسماعيل بعد خروجه من بيت أبيه الا عند حضوره دفنه هناك على عادتها من الاختصار فيما يخرج عن تاريخ أمة اليهود وأديانها وليس لدينا مصادر أخرى تنافي هذه الرواية او تؤيدها ولا فائدة من الأخذ والرد فيها فنتركها ونعوّل على الثابت من أخبار عرب الشمال او المتواتر الذي لا يخالف العقل او النقل ... (٣) »

والعرب من قحطانيين وعدنانيين قبل الاسلام وبعده ما زالوا يعتقدون ان ابراهيم هو ابو العرب وان ابنه اسماعيل هو جدهم ، وأنهما قد بنيا الكعبة ، ففي القرآن الكريم « وما جعل عليكم في الدين من حرَج ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم

(١) انظر تاريخ العرب قبل الاسلام لزيدان ١ – ١٦٧ .
(٢) انظر معجم البلدان ٦ – ٣٢٣ .
(٣) سورة الحج آية ٧٨ .

المسلمين (١) » وتجمع المصادر العربية على ان ابراهيم هو الذي بنى الكعبة ، وأن ابنه اسماعيل قد تزوج من جرهم التي كانت تتولى سدانة الكعبة والتي ظلت السدانة فيها حقباً طويلة ، الى ان انتزعتها خزاعة منها ثم انتقلت السدانة الى قريش (٢).

وقد كان لهؤلاء العرب المستعربة ، الذين ولدوا من أم عربية هي السيدة رعلة بنت مضاض بن عمرو الجرهمية ، ومن أب هو النبي اسماعيل بن الخليل ابراهيم ، أعمال جليلة في اقامة مشيخة سامية ترعى الكعبة وتؤمن سبل الحج اليها كما تؤمن طريق التجارة ، وتعمل على اقامة مدن وقرى في ذلك الوادي المقفر غير ذي الزرع ، كما انهم كانوا يعملون على نقل التجارة من الجنوب الى الشمال وبالعكس ، وقد ضاعت تواريخ هؤلاء القوم ، لأن العلماء لم يقوموا بعد بدراسات أثرية أو علمية صحيحة في الحجاز ، كما قامت الدراسات في اليمن والعراق والشام ومصر . ولا شك في ان التنقيبات الأثرية ستكشف حين وقوعها عن آثار حضارة لا تقل عن حضارات الجنوب والشمال . وليس لدينا اليوم من المصادر التي يمكن ان يعتمد عليها في تفهم تاريخهم الا التوراة والقرآن ، اما القرآن فمعلوماته جد قليلة لأنه لم يهتم بالنواحي التاريخية ، وانما اهتم بالنواحي الدينية وما اليها وأما التوراة فمعلوماتها عنهم تكاد تنحصر فيما يلي :

ذكر سفر التكوين شيئاً عن نسب أولاد اسماعيل ، كما أشرنا اليه آنفاً ، وقلنا رأينا فيه ، كما ذكر ايضاً قصة يوسف واخوته وانهم « أخذوه وطرحوه في البئر ، وأما البئر فكانت فارغة ليس فيها ماء ، ثم جلسوا ليأكلوا طعاماً فرفعوا عيونهم ونظروا واذا قافلة اسماعيليين مقبلة من جلعاد ، وجمالهم حاملة كثيراء وبلساناً ولاذنا ذاهبين لينزلوا بها الى مصر (٣) » وكان هذا الحادث في القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، وهؤلاء الاسماعيليون الذين اشارت اليهم التوراة ثم الذين كانوا قادمين من ديار العرب الى مصر للتجارة وانهم الذين اشتروا يوسف وباعوه بمصر كما هو معروف ، وتذكر التوراء ايضاً في سفر القضاة بعد هذا الحادث بنحو ستة قرون هؤلاء الاسماعيليين وتسميهم (بني المشرق (٤)) وتذكرهم بعد ذلك بخمسة قرون

---

(١) سورة الحج آية ٧٨ .

(٢) راجع سيرة ابن هشام ١ — ١٢٣ ، وتاريخ ابن خلدون ٢ — ٢٩ ، وياقوت ٨ — ١٢٩ .

(٣) سفر التكوين ٣٧ ، ٢٤ — ٢٦

(٤) سفر القضاة ٦ — ٣٣ ، ٧ — ١٢ ، ٨ — ٣٤

في سفر اشعياء باسم (قيدار) بن اسماعيل ، وتتنبأ بان مجدهم سيزول (١) ،
ومنذ عهد اشعياء تذكر التوراة ان الاسماعيليين قد انقسموا قسمين : (احدهما)
بنو قيدار (قيذر) والثاني بنو بنيت (بنابوت) ، وبعد عهد اشعياء بقرن
ونصف حوالي القرن السادس قبل الميلاد – اي في عهد ارمياء – جاء الملك
نبوخذ نصر واكتسح ديار العرب ، وغلب بني اسماعيل (او بني المشرق) وقد
جاء هذا الجزء في التوراة على سبيل التحذير والوعظ مما اصاب اهل دمشق وحماة
وبلاد العرب من النبلاء بسبب عصيانهم « ... ارتجت دمشق ، والتفتت للهرب ،
امسكتها الرعدة ، واخذها الضيق والاوجاع كما خض ، كيف لم تترك المدينة الشهيرة
قرية فرحى ، لذلك تسقط شبانها في شوارعها ، وتهلك كل رجال الحرب في ذلك
اليوم يقول رب الجنود ، واشعل ناراً في سور دمشق فتأكل قصور بن هدد ،
عن قيدار وعن ممالك صور ، التي ضربها نبوخذ نصر ملك بابل ، هكذا قال
الرب : قوموا اصعدوا الى قيدار ودمروا ابناء المشرق ، انهم يأخذون اخبيتهم
وغنمهم ، ويستولون على شققهم وجميع ادواتهم وإبلهم ، وينادون عليهم بالخوف
من كل جانب (٢) .

هذا كل ما تذكره التوراة من تاريخ بني اسماعيل ، اما المصادر العربية
فتنقل ذلك عن التوراة وتضيف اليه معلومات تناقلها العرب في الجاهلية وهي
معلومات ممزوجة بالاساطير وكثير من الخرافات .

ويظهر ان هؤلاء العرب قد ظلوا بداة ، وان سلطانهم قد امتد من الحجاز الى
اليمن ومشارف الشام ، وانهم جعلوا مكة مقر دولتهم او مشيختهم لما لها من
المكانة القدسية الرفيعة .

ويظهر انهم قد ضعفوا بعد الغزو البابلي فانه قد كان ظالماً شديداً ، ولا شك
في انهم قد استعادوا استقلالهم بتلك الديار وتكاثروا وعادوا الى الظهور قبيل الميلاد
المسيحي المجيد فقد تناقل المؤرخون طرفاً من اخبارهم في ذلك الحين وذكروا بعض
قبائلهم بالقوة والمنعة وامتدوا الى تهامة ونجد ، وبلاد الشام وأصل هذه القبائل هو
عدنان . وقد اختلف النسابون في عدد من كان بين اسماعيل وعدنان من الآباء

---

(١) سفر اشعياء ٢١ ، ١٦ – ١٧

(٢) سفر ارمياء ٤٩ ، ٢٤ – ٣٠

فبعضهم يعدّهم اربعين جداً ، وبعضهم يجعلهم عشرين ، وبعضهم خمسة عشر ، ويقول آخرون ان المدة بين الاثنين هي طويلة فلذلك يصعب ضبط العدد تماماً (١).

وقد ولد عدنان أولاداً عديدين اشهرهم ، معدّ ، وعك ويقول ابن خلدون ان معداً عاش ايام نبوخذ نصر (بختنصر) وانه خلص الى حيران حينما هاجم اهل حضورا في اليمن (٢) واما عدنان ولده فلقي بختنصر فيمن اجتمع به اهل (حضورا) وغيرهم بذات عرق ، فهزمهم بختنصر ومات عدنان في ايامه ، فلما هلك بختنصر خرج معدّ من حرّان الى مكة فوجد أخويه وعمومته قد لحقوا بطوائف اليمن وتزوجوا منهم فرجع بهم الى بلادهم .

وتذكر المصادر العربية ان معداً قد ولد ثلاثة نفر وهم نزار وقضاعه وقنص . ويجعلهم بعض المصادر اربعة فيضيف اليهم اياداً (٣) . على ان الاكثرين على ان اياداً هو ابن نزار لا اخوه .

ومن اولاد معد تسلسلت القبائل العدنانية او النزارية في تهامة ونجد والحجاز ومشارف الشام ، واصلهم القبائل الآتية :

قضاعة : واكبر بطونها جُهينة وبَليّ ، وتنوخ ، وسليخ
واياد : « « أفصى ، ودعمى وغاره
وربيعة : « « اسد ، وبكر ، وتغلب ، وحنيفة ، وسجل ، وشيبان
ومضر : « « قيس واسد ، وكنانة ، وتميم ، وثقيف

قد اقام بنو سليخ الذين نزلوا الشام دولة في بلاد مؤآب من ارض البلقاء . ومن مشاهير ملوكها النعمان بن عمرو بن مالك ، وابنه مالك بن النعمان ، وابنه عمرو بن مالك . ولما غلبوا على امرهم في الشام ارتحلوا الى العراق وشادوا دولة الحضر (Atra) قرب تكريت التي قامت منها حضارة عظيمة . ستكشف التنقيبات عن جلائل آثارها .

كما اقام بنو تنوخ دولتين (احداهما) في مشارق الشام وجنوبي العراق وهي دولة جذيمة الابرش التي قامت على انقاضها دولة المناذرة اللخميين املاك الحيرة

---

(١) انظر تاريخ الطبري ٢ – ١٩١ ، وابن خلدون ٢ – ٢٩٨ ، وكتاب نسب عدنان وقحطان للمبرد ص ٢
(٢) انظر تاريخ ابن خلدون ٢ – ٩٩٩ ، ومعجم البلدان (مادة حضورا)
(٣) انظر سيرة ابن هشام ١ ، ٥٧

و (الثانية) في الشام وهي التي قامت على انقاضها دولة الغساسنة في منطقة حوران ودمشق .

وقد كان للقبائل الاخرى كبني اسد وتميم وبكر وتغلب وشيبان وقيس وثقيف دويلات او مشيخات او امارات ازدهرت بعض الوقت ولكن معلوماتنا عنها ما تزال جد ضئيلة فلعل الزمن يكشف عن حقائق تاريخها .

حضارات الجنوب

•

١٥) الدولة المعينية :

هي أقدم دول العرب في الجنوب ، وقد ازدهرت حضارتها في زمن سحيق جداً قبل الميلاد واختلف العلماء المحققون في تحديد زمان نشوئها فذهب البروفسور ادوارد كلاسر Glasser الى انها كانت في الألف الثالث قبل الميلاد (١) ، وذهب المستشرقون جوزيف هاليفي Halevy ومولر Müller وشبرنجر Sprenger (٢) الى انها كانت في أواخر الألف الثاني وأوائل الألف الأول قبل الميلاد . وقال فلبي PhilbY انها حكمت من سنة ١١٢ الى سنة ٦٣ ق. م. (٣) . وحجة معارضي رأي كلاسر ان الكتابة المعينية كانت ذات ألفباء وهي المعروفة بألفباء المسند ، وقد اتفق العلماء على ان الألف باء الفينيقية او ألفباء رأس الشمرة لا يتجاوز تاريخها القرن الثاني عشر قبل الميلاد فكيف يمكن جعل ألفباء المسند أقدم من الألفباء الفينيقية فلا بد اذن من القول انها قد ظهرت في أواخر الألف الثاني قبل الميلاد ، اما قبل ذلك التاريخ فلا يعقل وهو قول مقبول في رأينا .

وان أقدم منطقة قامت فيها هذه الحضارة المعينية هي منطقة الجوف التي تقع فيها معظم خرائب المعينين وأطلال مدنهم مثل (معين) و (براقش) و (قرن) و (نشق) وغيرها (٤) .

---

(١) راجع كتاب E. Glasser, Skizze 110 — 330

(٢) راجع كتاب Müller, Beilag Zur Munch. Allgen Halevy, Journal Asiatique 1872, 74. Sprenger, Bemerkungen s. 502.

(٣) راجع كتاب Philby. Background 141 .

(٤) راجع كتاب تاريخ العرب قبل الاسلام لزيدان ١ — ١١٢ .

وقد ظلت أخبار هذه الحضارة مجهولة او كالمجهولة حتى زار ديارها العلماء الأثاريون ، والنقابون الأوربيون في القرن الماضي وفي طليعتهم المستشرق الفرنسي آرنود Arnaud الذي زار اليمن وجمع عدة نقوش من منطقة سبأ في عام ١٨٤٣ ، ثم جاء من بعده المستشرق الفرنسي جوزيف هاليفي الذي استطاع ان يدخل اليمن في سنة ١٨٦٩ م ويقوم برحلته المشهورة الهامة فدخل مناطق الجوف ونجران وسبأ بتكليف من الاكاديمية الفرنسية ، واستطاع ان يجمع في زيارته هذه ستمائة وخمس وثمانين نقشاً أثرياً من النقوش العربية الجنوبية المكتوبة بالقلم المسند ، وكانت رحلته تلك من اعظم الرحلات العلمية ، لانه اكتشف في تلك النصوص كثيراً من آثار المدن واسماء الملوك ، وعادات البلاد ، وعبادات السكان وغير ذلك .

وفي سنة ١٨٨٢ ذهب الى اليمن العلامة النمسوي كلاسر فزار سبأ وظفار وتوغل في اليمن بمساعدة الحكومة العثمانية وظل الى سنة ١٨٩٢ وجمع نقوشاً عديدة صححت بعض اخطاء هاليفي .

ولم تجر بحوث صحيحة ، ولا رحلات اكتشاف علمية بعد هذا التاريخ الا في سنة ١٩٤٢ ثم في سنة ١٩٤٥ حينما زار اليمن العالم المصري محمد توفيق فانه زارها موفداً من جامعة فؤاد الاول بمصر – جامعة القاهرة اليوم – ودخل بلاد الجوف فكان اول عالم وصفها وصفاً علمياً دقيقاً ، واعطانا معلومات عن اطلالها وآثارها (١)

والمصادر العربية القديمة تكاد تجهل هذه الدولة واخبارها ، اما المؤرخون والجغرافيون اليونان فقد ذكروا بعض المعلومات الهامة مثل سترابون وبلينوس وسربيلوس وبطليموس وديودوروس (٢) ، اما المعلومات الحقيقيه فهي التي اكتشفها المستشرقون المحدثون الذين اسلفنا الحديث عنهم قبلا .

وقد توصل هؤلاء المستشرقون الى بعض الحقائق التاريخية عن الدولة واليك مجمل ذلك :

---

(١) راجع كتابه (آثار معين في جوف اليمن) وهو من منشورات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة طبع سنة ١٩٥١ .

(٢) راجع كتاب زيدان ، تاريخ العرب قبل الاسلام ص ١٠٧ ، ١١١ ، وتاريخ العرب لجواد علي ١ ، ٢٨١

استطاع المؤرخون المستشرقون ان يثبتوا بعض اسماء الملوك المعينين والسبأيين واحوالهم السياسية والاجتماعية ولكنهم لم يستطيعوا ان يؤرخوا ازمنتهم واحداً بعد واحد كما انهم لم يستطيعوا ترتيبهم ترتيباً منتظماً ، متسلسلا . وقد حاول بعض العلماء ان يصنفهم الى اسر وطبقات فلم يوفق ، وأرى ان الوقت لم يحن بعد لتقرير ذلك ولا بد من اتمام الحفريات حتى يستطاع عمل تصنيف عملي صحيح .

وقد كانت لهذه الدولة آثار جليلة في العمران والحضارة على الرغم من ان آثارها لم يتح لها ان تدرس بعد درساً علمياً فان ما اكتشف وكتب عنه الى اليوم ليدلنا على تقدمهم في مضمار العمران والحضارة تقدماً ظاهراً . فقد كانت لهم قدم راسخة في هندسة المباني وزخرفتها ، وبناء القصور والجسور والحصون والقلاع والاسوار ، وتنظيم الخنادق والأقنية وغير ذلك من الأبنية العامة ، كما كان لهم شرائع عادلة في فرض الضرائب وتوزيعها ، وفي تنظيم العقود والبيوع والايجار ، والميراث . والتجارة والاقتصاد .

وكانت للمعينين صلات تجارية قوية مع المصريين فقد اكتشفت بعض الكتابات التي تدل على ان بعض الجوالي المعينية قصدت الى مصر للتجارة كما لهم صلات تجارية وسياسية مع سيناء والحجاز ومشارف الشام ولبنان وسورية .

وكان نظام الحكم عندهم ملكياً . ويجوز ان يتولى الملك اكثر من ملك واحد ، وكان النظام في الولايات لا مركزياً تتولى الحكم في ولاية او مدينة حكومة مستقلة لها آلهتها وكهنوتها الذين كان يقال لهم (عم) ولها نائب ملك يسمى (كبر) ، ولها مجلس نيابي يقال له (مسود) يدير شؤونها . ويجتمع فيه الاشراف للحكم بين الناس واعلان الحروب وتقرير القوانين والضرائب ، وكانت الضرائب عندهم على ثلاثة انواع :

١ : ضرائب لمنفعة خزانة الملك .

٢ : « « الكهنة والمعابد ومن يلحق بها .

٣ : « « الشيوخ والحكام . وكان هؤلاء مع الاقطاعيين هم الذين يتولون جمع هذه الضرائب ، لتقديمها الى الملك او الكهنة او للقيام بالانفاق على المؤسسات العامة وقد كانت للأقطاع أنظمة فلا تسلم لصاحبها الا بعد ان تحدد حدودها وتذكر شروطها وما يجب على مستغلها من الضرائب .

كما كان لسكان البادية الملحقين بالدولة أنظمة خاصة ، وكان شيوخهم ينوبون لأنفسهم دوراً في الصحراء يتخذونها مجالس ويجتمع فيها الوجوه والنبلاء للبحث في شؤون القبيلة .

١٦) دولة سبأ وحمير :

هذه الدولة هي من أقدم دول الجنوب العربية ، ويكاد المؤرخون الثقاة يجهلون الى اليوم مبدأ نشؤها الا انهم يجمعون على ان كلمة (سابو) او (سابوم) الواردة في بعض النقوش السومرية والتي ترجع الى الألف الثالث قبل الميلاد اي حوالي سنة (٢٥٠٠) ق. م. يراد بها دولة سبأ اليمنية (١) . ولكن معلوماتنا عن هذه الدولة وتاريخها وتطورها معلومات لا تكاد تفيد لعدم القيام بالحفريات الدقيقة .

ولعل أقدم فترة يمكننا تأريخها تأريخاً صحيحاً لهذه الدولة هي فترة (المكارب) جمع (مكرب) ومعناه (الأمير الكاهن) ، فقد سيطر هؤلاء المكارب على ديار سبأ منذ سنة ٨٢٠ ق. م. الى سنة ١١٥ ق. م. (٢) وأقدم مكرب عرفنا اسمه هو (المكرب سمه علي ذمر علي) الذي حكم حوالي سنة ٨٢٠ ق. م. ، ثم خلف من بعده عدة مكارب اختلف المؤرخون في تعدادهم وترتيبهم ومدد ملكهم ، وقد بلغ عددهم سبعة عشر ، وكانوا يتخذون مدينة صرواح عاصمة لهم (٣) .

وقد كانوا على جانب عظيم من الرقي الصناعي والزراعي والعمزاني والثقافي والسياسي ، وانهم ظلوا يقوون أنفسهم ودولتهم حتى استطاعت ابتلاع دولة معين التي كانت تجاورهم .

وكان نظامهم السياسي نظامياً ديناً ومدنياً ، وكان لكل مدينة وقرية الهها وأعظم آلهتهم اسمه (المقه) ، وكانت كتاباتهم على الطريقة الحلزونية **Boustrophedon**

---

(١) راجع كتاب تاريخ اليمن تأليف اوليري O'Leary, ص ٨٧ .

(٢) راجع كتاب تاريخ العرب قبل الاسلام لزيدان ص ١١٩ .

(٣) راجع وصف اطلالها في كتاب نزيه المؤيد ورحلته الى العربية السعيدة من مصر الى صنعاء ٢ — ٣٤٠ .

أي أنها تبدأ من اليمين الى الشمال فاذا انتهى الكاتب من السطر الأول وأراد كتابة السطر الثاني كتب من الشمال الى اليمين وهكذا دواليك . وقد عثر على طائفة من الكتابات الحلزونية المنقوشة على الحجارة والطين او الجص ، وهي ما تزال موضع دراسة العلماء الاختصاصيين . وقد كان للغتهم السبأية نحو وصرف وبيان رفيع ودقيق ، وأجل ما روي عن هذه الدولة هو بناء السدود والقلاع ، وأجل سدودها وأعظمها شهرة هو سد مأرب الدال على براعتهم بعلم الهندسة وعلم تنظيم الري وحسن الاستفادة من مياه المطر وهو من أهم المشروعات العالمية التي قام بها العالم في ذلك الحين ، وانها لثورة في عالم الهندسة والفكر مكنت الانسان من الاستفادة من الطبيعة ، وقد ظل هذا المشروع قروناً عدة مصدر خير ورفاه ، ولسنا نجد في التاريخ القديم سوى ممالك قليلة فكرت في مثل هذا المشروع (١) ، وقد توسع ملك السبأيين حتى سيطروا على أكثر بقاع الجزيرة العربية فاستولوا على مملكتي حضرموت ، وقتبان (٢) .

ومهما يكن من أمر فان تاريخ هذه الدولة ما يزال محتاجاً الى توسع في دراساته .

١٧) الدولة القتبانية :

هي دولة عربية جنوبية ولكن أخبارها ما تزال مجهولة ولم يتفق العلماء الأثريون حتى الآن على تعيين مبدئها ونهايتها ، ولكنهم جزموا بأنها قد عاصرت دولتي (معين) و (سبأ) وذهب المستشرق الأثري هومل الى انها وجدت في الألف الأول قبل الميلاد (٣) ويرى المستشرق كلاسران أن نهايتها كانت بين سنتي (٢٠٠) و (٢٤) ق. م. (٤) ويرى المؤرخ الأثري الرابت : « ان بداية القتبانيين كانت في القرن السادس ق. م. ، ونهايتها على أثر خراب مدينة (تمنع) المعروفة الآن بكخلان حوالي سنة (٥٠) ق. م. ويرى الدكتور جواد علي (ان الوقت لم

(١) تاريخ العرب للدكتور جواد علي ٢ – ١٣٠ .

(٢) تاريخ العرب للدكتور جواد علي ٢ – ١٣٣ .

(٣) راجع Hommel, Grundriss I, S. 139

(٤) راجع Glasser, Die Abessinier in Arabien und Afrika S, 114

نحن بعد للحكم بأن المكرب الفلاني او الملك الفلاني قد حكم في سنة كذا او قبل هذا او ذاك لأننا لا نزال نطمع في العثور على أخبار حكام لم تصل أسماؤهم الينا لعلها لا تزال في باطن الأرض) ... وان خير ما يستطاع عمله في الوقت الحاضر هو جمع كل ما يمكن جمعه من أسماء حكام (قتبان) على أساس الصلة والقرابة وذلك بأن يضم الأبناء والاخوة الى الآباء على هيئة جمهرات ثم تدرس علاقة هذه الجمهرات بعضها ببعض ، وترتب على أساس دراسات نماذج الخطوط التي وردت فيها أسماء الحكام وطبيعة الاحجار التي حفرت الحروف فيها ... ولانتفاء ذلك أصبحت القوائم التي وضعها علماء العربيات الجنوبية لحكام قتبان او حضرموت او معين هي في نظري قوائم غير مستقرة (١) » .

وكان حكام (قتبان) ، لا قطبان كما ورد في تاريخ العرب المطوّل (٢) ، يلقبون بلقب (مكرب) ثم بلقب (ملك) ، ومعنى كلمة (مكرب) الوسيط والشفيع والمقرّب الذي يتوسط بين الآلهة والناس وهكذا كان أولئك المكارب وسطاء بين الناس والآلهة ، ولما قوي سلطان هؤلاء المكارب وتعدى حدود قبائلهم الى القبائل والمدن المجاورة تلقبوا بلقب (ملك) .

وأقدم مكارب القتبانيين هو (سمه علي وتر) وابنه (هون عم يهنعم) الذين حكما في حوالي القرن التاسع قبل الميلاد (٣) وقد عثر في حفريات اليمن على كتابات حلزونية Boustrephedon أي يبدأ السطر فيها من جهة اليمين فينتهي في جهة اليسار ثم يبدأ السطر الثاني من جهة اليسار وينتهي في جهة اليمين وهكذا ...

ويظهر ان هذه الدولة قد عاصرت حكومة (معين) وقد ذكرها بطليموس وقال انها تقع على ساحل تهامة ويقول سترابون نقلا عن ايراتو ستينس الذي كان في سنة ١٩٤ ق. م. ان القتبانيين كانوا يقطنون في الاقسام الغربية من العربية الجنوبية وفي جـ ب أرض السبأيين (٤) .

أما المؤرخو عرب فلا يذكرون شيئاً موثوقاً عنهم ويقول ياقوت الحموي في

---

(١) تاريخ العر ١: — ١٣ .

(٢) تاويخ العر . . فيليب حتي وزملائه ١ — ٧١، ٧٢، ٧٣ .

(٣) راجع كتا . Philby, Back gronud,

(٤) 16 , 768

معجم البلدان . ان قتبان موضع في نواحي عدن (١) ، ويقول الفيروزآبادي : ان قتبان بالكسر موضع بعدن ويتقل الزبيدي في تاج العروس عن مراصد الاطلاع ان قتبان بعدن تبعاً للبكري . ويقول في موضع آخر : ان قتبان بالكسر بطن من رعين من حمير، كذا في كتب الانساب (٢) وهذا قول غير صحيح لانه لا صلة في النسب بين حمير وقتبان وقد كان للقتبانيين اصنام ومعابد وهياكل شيدوها على اسم تلك الأصنام ومنها (عشتر) (ابنى) (ودّ) و (عمّ) كما كانت لهم مجالس وندوات سياسية يجتمعون فيها للدراسة قوانين الحرب وادارة الحروب وقوانين التجارة والزراعة والقتل والضرائب وكانوا يسمون هذه المجالس (مشود) . وكان اعظم هذه المجالس في عاصمتهم (تمنع) على ان المدن الأخرى لم تكن تخلو من هذه المجالس وقد ارتفعت الفنون عندهم وبلغت درجة رفيعة لا تقل عن الفنون الأغريقية وبخاصة فن النحت وقد عثر في خرائب العاصمة (تمنع) على تمثالين لأسدين كتب على قاعدتيهما كتابات قتبانية ورد فيها اسم الفنان (ثوبم) ، وهذان التمثالان مصنوعان باسلوب لا يقل روعة عن الأسلوب اليوناني ويرجع عهدهما الى القرن الثاني قبل الميلاد (٣) . ومن عظم نفوذ قتبان السياسي والعسكري انها سيطرت حوالي سنة ٨٢٠ ق.م على الدولة السبأية (٤) كما عظم تقدمها الزراعي وقد وضعت قوانين خاصة لاستغلال الأرض ، وقد وصل الينا بعض الوثائق او الاعلانات التي كان يعلنها الملوك القتبانيون للشعب في العاصمة او غيرها فيما يتعلق بادارة الأراضي في وادي لبخ وهو من الأودية الخصيبة عندهم ، وكذلك وصل الينا صور اتفاقيات معقودة لاستثمار بعض الأراضي الزراعية (٥) وأما اعظم مدنهم فهي مدينتا :

تمنع ، وتقع في وادي بيحان الخصيب المنظم في ريه وتقسيم اراضيه ، وتعرف لآن باسم كحلان ولا تزال اطلال الأقنية ونظم الري موجودة ، كما لا تزال الحفريات فيها تكشف عن كثير من النقود الذهبية ، والتماثيل ، والخزفيات الجميلة ، التي جعلت علماء الآثار يقولون ان الصلة بين (تمنع) والهيلينية والرومانيه كانت

(١) معجم البلدان ٧ – ٣٣ .
(٢) تاج العروس ١ – ٤٢١ ؛ ٤٣١ .
(٣) راجع تاريخ جواد علي ٢، ٣٣
(٤) Hommel. Grundriss I. S. 139
(٥) راجع تاريخ جواد علي ٢، ٤٢

قوية وان الرومان قد أثروا في العرب . وأرى ان العكس قد يكون صحيحاً ، فالقتبانيين كانوا قوماً بارعين جداً في الفنون كما رأيت ، وقد عثر في حفريات (تمنع) على آثار رائعة من المرمر والنحاس والبرونز (١) .

شوم او (شور) وهي مدينة كبيرة كانت تسكنها قبيلة (هرية) وقد بنت فيها حصوناً وقلاعاً وسوراً ومعابد وذلك في عهد الملك (دروال غيلان بهنعم) (٢)

وكان نظام الحكم في قتبان مثله في معين اي انه نظام ملكي ديني وراثي ، وكان يدير شؤون المملكة حكام نيابة عن الملك كما يسمى احدهم كبر اوكبير وكانوا يجتمعون في (المشود) وان ملوكهم كانوا عادلين ديموقراطيين بل كانوا يشاورون الشعب في المجالس والمشاود . اما نهاية عهد الدولة فلا نستطيع تحديده بالضبط كما قلنا ، وانما نستطيع ان نجزم بأن الدولة السبأية قد استولت عليها كما استولت على الدولة المعينية والحضرمية بعد ان جرت حروب عديدة بين القتبانيين والسبأيين :

١٨ ـ **الدولة الحضرمية** : حضرموت هي دولة عربية عريقة عاصرت دولتي معين وقتابن وذكرها في كتاب ايراتوستينس واسترابون باسم Ehatromotitae (٣) وفي كتاب التوراة باسم حضرموت على انها سميت باسم حضرموت بن يقطان بن عابر بن شالخ (٤) . وليست معلوماتنا عن بداية هذه الدولة ونهايته جزءاً من معلوماتنا عن دولة قتبان ، فان الدراسات العلمية التي جرت حتى الآن دراسات محدودة ضيقة ، وقد عكف بعض المستشرقين الأختصاصيين بدراسات تاريخ جنوب الجزيرة العربية على دراسات تاريخ الدولة الحضرمية وتوصل البروفسور (البرايت) ان يحصي قائمة باسماء ملوكها وان يجعل في طليعتها اسم الملك (يدع ايل) الذي حكم حضرموت حوالي نصف القرن الخامس ق. م (٥) ويعارضه المستشرق فيلبي فيقول ان طليعة ملوك هذه الدولة هو (صدق ابل) وانه قد حكم في سنة (١٠٢٠) ق. م (٦) ومن مشاهير ملوك هذه الدولة (معدي كرب) الملك

---

(١) راجع تاريخ جواد علي ٢، ٤٤

(٢) جواد علي ٢، ٤٥

(٣) Strabo 16, 4, 2

(٤) سفر التكوين الاصحاح العاشر ٢٦ ، وسفر اخبار الايام الاول ٢٠ .

(٥) البرايت W. F. Albright, in Boasoor, Nº 119, 1950, p. 14

(٦) فيلبي Philby; Background p. 144

القوي ، العمراني ، أخو الملك (أب يدع يثع) الذي كان ملكاً على معين . ويظهر انه في عهد هذه الاسرة القوية خضعت الدولتان الحضرمية والمعينية لها . وكان ذلك حوالي سنة ٩٨٠ ق. م ومن اشهر ملوكها العذيلط الاول .

قد كانت مدينة شبوة العاصمة الجديدة لهذه الدولة وكانت زاخرة بالمعابد الفخمة ، والقصور الشامخة وقد كانت في الاصل مقراً للمكاربة ثم صارت مقراً للملوك وهي معروفة عن المؤرخين القدماء باسم Sabratho او Sabato وقد ورد اسمها في التوراة باسم سبت (١) وقد ذكرها الهمداني في صفة جزيرة العرب وعدها من حصون حضرموت ومحافدها (٢) وقد زارها المستشرق فيلبي وعثر على آثار معابدها وقصورها القديمة وسدود واديها . وذكر المؤرخ القديم بلينوس : ان في اليمن توجد Ostramitae وانها منطقة من ارض شبوة Saboei وان عاصمتها مدينة شبوة Saboei وتسمى ايضاً Sariba ، وانها غنية بمناطق كثيرة الغابات . . ومنها يصدر اللبان ، وان شعب Minaei هو الشعب العربي الذي احتكر تجارة اللبان والطيب (٣) .

اما العاصمة القديمة للدولة فهي (ميفعة) وهي المعروفة عند اليونان باسم (Mapharites) وقد كانت مدينة محصنة ذات معابد وقصور .

وقد كانت الدولة الحضرمية دولة قوية برياً وبحرياً وتجارياً وكانت تعبد الاوثان وتقيم لها المعابد وأجلها عندهم هو الاله (سين) وهناك آلهة غيره منها عشتر ، وصول ، وحويل ، وشمس .

ومن اشهر ملوك هذه الدولة :

معدي يكرب بن اليفع الذي حكم البلاد حوالي سنة ٩٨٠ ق.م
ديدع ابي غيلان 〃 〃 〃 〃 〃 ١٤٠ ق.م
العزيلط 〃 〃 〃 〃 〃 ٢٩ ب.م

١٩ — **دولة اوسان :** كانت أرض أوسان جزء من المملكة القتبانية ثم انفصلت عنها وكونت دولة مستقلة وهي على الرغم من صغر الرقعة التي كانت تحتلها كانت

---

(١) راجع Montgomery, Arabia in the Bible
(٢) صفة جزيرة العرب ٨٧ ، ٩٨
(٣) Plivy, N. H. 4 , 39

دولة غنية عريقة في الحضارة وقد خلفت لنا عدداً من التماثيل الرخامية الرائعة التي تمثل لنا ملوك تلك الدولة وهي من اروع ما عثر عليه من نفائس التحف الفنية في جزيرة العرب وقد كتب على قاعدة كل تمثال اسم الملك الذي يعلوها . ونحن على الرغم من عدم عثورنا على كتابات أثرية تكشف لنا النقاب عن تاريخ هذه المملكة واحوال ملوكها فاننا قد افدنا فوائد جليلة من طراز لباس الناس في ذلك العهد ، وطرائق زينتهم وتنظيم شعورهم وحلق لحاهم ، كما عثر في الحفريات على عدد من التماثيل الذهبية ، والآثار الخزفية الرائعة .

وعلى الرغم من قلة المعلومات ، الآن ، فان الآمال معقودة على كشف تاريخ هذه الدولة وآثارها في العمران والسياسة . وقد ظلت هذه الدولة الى وقت ظهور الاسلام حتى ان الجغرافي العربي الهمداني ذكر لنا في الأكليل : انه نقل بعض اخبار اليمن وتاريخه القديم من محمد بن احمد الأوساني وزعم انه كان يحسن قراءة العربية الجاهلية المدونة بالقلم المسند (١) .

ولا نعرف من احوال هذه الدولة إلا معلومات قليلة منها ان الملك (كرب آل وتر) بعد ان استولى على مدينة شرجب بن الحوف ونجران ساق جيوشه الى اوسان فقتل من رعاياها ستة عشر الف رجل وأسر أربعين الفاً واحتل اماكن من المملكة الأوسانية وهي : حمان ، وانضم ، وجن ، ودياب ، ورشا وجردان ودتنت وتفذ الى ساحل البحر ، وان قتبان كانت حليفة لسبأ في هذه الحرب وان السبأيين احتلوا ديار اوسان بعد انتهاء الحرب . وقد استعادت الدولة الأوسانية سلطتها واستمرت الى وقت ظهور الاسلام ولكن معلوماتنا عنها جد ضئيلة .

---

(١) االأكليل ٨ ، ٦٥ طبعة نبيه فارس

القسم الاول من عصر الانطلاق

ايام النبي (ص) وخلفائه الراشدين

مقدّمة

●

انبثق سيل تاريخ الأمة العربية قبل عصر النبي الكريم محمد (ص) ، فلما جاء محمد وخلفاؤه الراشدون (انطلق) العرب من جزيرتهم ينشرون دينهم ولغتهم وحضارتهم في أرجاء المعمورة ، ولم ينقض عصر الخلفاء الراشدين حتى (اتسق) نور الأمة العربية — في عهد بني أمية — يشعّ في الخافقين وينشر نوره في المشرقين ، وامتد سلطان العرب من أقصى بلاد المشرق الى أقصى بلاد المغرب فحكموا العالم وساسوا الشعوب ونفّذوا مطامع أمتهم وآمالها ، وفرضوا على أهل الخافقين احترامها : ثم جاء بنو العباس (فازدهرت) بهم الحضارة العربية ، وتم على أيديهم تكوين السيادة الاسلامية . ثم خلف من بعدهم خلف فرّطوا بالقيام بأعباء الملك ، وانصرفوا الى اللهو واللعب ، فانكسف نور الحضارة ، وركدت حركة التقدم والرقي (فانحلت) الدولة ثم توالت المحن واشتدت ظلم الليل وحنادسه عليهم وتمكن أعداؤهم منهم فقضوا على ملكهم وأذلوا بني قومهم (فاندحروا) وزحف اليهم الليل بعساكره ، وضرب عليهم بخيله ورجاله ، وتمطى بصلبه وناء بكلكله ، وخرب بجرانه وقضى العرب ردحاً من الزمن الطويل وهم يغطون في نوم طويل وليل مسودّ ، وجهل مظلم ، وتعصب مدلهم ، وتفرق مطلخم ، حتى ذاقوا من الذل ألواناً ، وشربوا من كؤوس المهانة والعار أقداحاً ، ثم نبغ فيهم من نفضوا عن عيونهم غبار الوسن ، وأحسوا بوطأة الذل والمحن ، فدعوا قومهم بدعوة الصلاح ، وحثوهم على الانعتاق من ربق العبودية ، والعمل على استعادة المجد القديم وإحياء الماضي الأثيل ، فكدّوا وجدّوا حتى ابتسم لهم الدهر ، وأشرق نور الفجر وآن أوان (الانبعاث) فقاموا قومة رجل واحد ، آخذين بأسباب العمل والنشاط والفلاح وهم بحول الله بالغون غايتهم ، واصلون الى أهدافهم بمدد الله وقوته وبمعونته وبركته .

الباب الاول

وفيه فصول

●

الفصل الأول : في البيئة العربية قبل البعثة النبوية

كانت بلاد الحجاز (ويراد بها الحجاز وتهامة معاً) قبل البعث النبوي قلب البيئة العربية في جزيرة العرب ، ففيها الكعبة مهوى قلوب العرب اجمعين وموضع عزهم . وفيها مكة ، أم القرى العربية ، ومسكن قريش سيدة القبائل العربية وأعزها سلطاناً في الدين والدنيا ، وفيها يثرب أخصب اراضي الجزيرة وأطيبها تربة وأعمرها بقعة ، وفيها جدّة والجار خير فُرَض الجزيرة وأغناها تجارة وربحاً ، وفيها الطائف مدينة العلم والنشاط الفكري والتجارة ، وفيها أفصح قبائل العرب واكثرها شعراً وفيها أجل أسواق العرب شهرة كعكاظ ومجنّة وذي المجاز .

والحجاز بلد عريق في استقلاله وسيادته منذ اقدم العصور لمكانه الحصين ، وحرمته المقدسة ، وصموده امام النكبات والاحتلال الاجنبي وما ذلك إلا لمكانة مكة المكرمة ؛ قال ياقوت : انها — اي مكة — كانت لقاحاً لا تدين لدين الملوك ثم لم يُؤَدِّ أهلها اتاوة ولا ملكها ملك قط من سائر البلدان ، تحج اليها ملوك حمير وكندة وغسّان ولخم فيدينون للحُمس من قريش ويرون تعظيمهم والاقتداء بآثارهم مفروضاً وشرفاً عندهم عظيما وكان أهله — أي البيت — آمنين يَغزون ولا يُغزون ، ويَسبون ولا يُسبون ولم تُسب قرشية قط فتوطأ قهراً (١) :

وسكان الحجاز هم العرب واليهود ؛ وأما العرب فهم سكانه الأصليون وهم منتشرون في جميع مدن الحجاز قراه وبواديه ومن أشهر القبائل الساكنة فيه بطون

(١) معجم البلدان « مكة » .

قريش وسُليم ، ومزينة ، وهوازن ، وثقيف ، وخثعم ، وطي ، وأشجع ، وغفار ، وفزارة ، وغطفان ، والأوس ، والخزرج . وأما اليهود فكانوا يسكنون في يثرب وخيبر والطائف ووادي القرى ومن أشهر القبائل اليهودية بنو النضير ، وبنو القينقاع ، وبنو قريظة وبنو َهدَل .

وأجلّ مدن الحجاز (مكة) وهي من أقدم مدن بلاد العرب سكنها العمالقة ثم خلفتهم قبيلة جرهم عليها . وفي عهدها قصدها ابراهيم (ع) وبنى الكعبة وصاهر ابنه اسماعيل بني جرهم وسكن الحجاز واستمر أولاده فيها من بعده (١)؛ وكانت سدانة البيت لآل مضاض بن عمرو الجرهمي خال ولد اسماعيل الى ان بغوا واستحلوا أموال الكعبة فغلبتهم خزاعة عليها وهي قبيلة يمنية قدمت الحجاز إثر سيل العرم (٢) .

ووليت البيت نحواً من ثلاثمائة سنة الى أن نبغ قصيّ بن كلاب بن مُرّة وكان يقيم هو وابناؤه حوالي مكة فعظم سلطانه وانتزع حماية الكعبة من خزاعة وتملك مكة وبنى بها دار الندوة ونظم أمور اهلها فلا تُزوّج امرأة إلا في دار الندوة ولا يعقد لواء ولا يعذر غلام ولا تدرّع جارية إلا فيها ، وكأنه أراد بذلك تسجيل حوادث الأحوال الشخصية ، وجعل تلك الدار مقراً للقوم يتشاورون فيه في كافة شؤونهم من خير وشر وكانت قبائل خريش تؤدي الرفادة الى قصي وهي أموال يؤدونها اليه يترافدون فيها فكان يصنع الاطعمة والاشربة للحجاج ايام الموسم ، ورتب سائر أمور مكة من حجابة وسقاية ولواء وما الى ذلك مما فيه تنظيم شؤون المدينة كما سترى تفصيل ذلك بعد .

ومن مدن الحجاز الكبيرة (يثرب) وهي مدينة قديمة سماها المعينيون (يثرة) والبيزنطيون (يثريبا) وهي مدينة حصينة كثيرة القلاع والآطام كثيرة الخيرات والمزارع عذبة المياه وافرة النخيل (٣) . نقل الألوسي عن كتاب نشر المحاسن اليمانية ما نصه : كانت مدينة يثرب للعرب فخرج اليها قوم من بني اسرائيل في زمن موسى بن عمران فغنموها من العرب العاربة وقتلوا ملكاً لهم يسمى الأرقم وأقاموا فيها ما شاء الله حتى افترقت الأزد من مأرب في حادثة سيل العرم فنزل

(١) معجم البلدان « المسجد الحرام . مكة . كعبة » واخبار مكة للارخي ص ٣٦ .
Scolillot. Hulogenucole les arabes I. 41.
(٢) ابن خلدون ٢ – ٣٢٢ والمروج ١ – ١٨٦ .
(٣) معجم البلدان لياقوت مادة (يثرب) وبلوغ الأرب للآلوسي ١ ، ١٩٦ الطبعة الاولى

الأوس والخزرج يثرب على الاسرائيليين (١) » ثم جرت بين الاوس والخزرج والاسرائليين حروب انتهت بانخذال اليهود وفي الكتب العربية واليهودية تفاصيل وأقاصيص عن أحوال هؤلاء اليهود فليرجع اليها من يريد التوسع في هذا (٢) ، وقد كان لليهود حين هجرة النبي الى المدينة أثر كبير سنرى آثاره فيما بعد. وأشهر البطون اليهودية (بنو القينقاع) وكانوا يسكنون المدينة ويمتهنون الصياغة والصيرفة كما كانوا ذوي نفوذ كبير في المدينة ، و (بنو قريظة) وكانوا زراعاً يسكنون في وادي مهزوز ووادي بُطحان وهما واديان يهبطان من حرة يهبط فيها مياه عذبة (٣) و (بنو النضير) وكانوا زراعاً في وادي يُطحان ويقول اليعقوبي : إنهم في الأصل من بني جذام ثم تهوّدوا.

ولكن بعض المؤرخين يذكرون ان السيدة صفية أم المؤمنين – وهي من بني النضير – كانت منحدرة من نسل هرون بن عمران ، وقد كانت لهم معابد ومدراسات وربانيون ، وكان الي جانب هؤلاء اليهود ، متهوّدون من العرب.

ولم يكن المتهودون في خصومتهم للنبي (ص) مثل اليهود في خصومتهم اياه ، وقد اكتسب هؤلاء اليهود جميع التقاليد والأخلاق والأسماء واللهجات العربية ، كما ثقفوا اللغة العربية الى جانب لغتهم الأصلية ، وظهر منهم شعراء وخطباء بالعربية ، وتقول الروايات العربية ان هؤلاء اليهود كانوا هم المسيطرين على المدينة المنورة ، وانهم كانوا ملوكها وان آخرهم كان يسمى القيطون او القيطوان او الفيطون (بالقاف ، والفاء) وانه كان عاتياً جباراً قتله مالك بن العجلان الخزرجي ، ثم اضمحل أمر اليهود من بعده وصارت السيادة للعرب (٤) ولكن الخلافات ما عتمت ان نشبت بين العرب اي الأوس والخزرج فاستفاد اليهود من ذلك وأصبحوا يرجحون كفة احد الجانبين على الآخر ، ويظهر ان عرب المدينة من الأوسين والخزرج كانوا أقل ثقافة من عرب مكة . فقد كان اليهود المدنيين مسيطرين على الأحوال المالية في المدينة ، أما عرب مكة فقد كان منهم كتاب ومعلمون وتجار وأغنياء .

---

(١) بلوغ الأرب ١ ، ١٩٦ ومثله (ياقوت) مدينة يثرب.

(٢) راجع معجم البلدان لياقوت (يثرب) وبلوغ الارب ١ ، ١٩٦.

(٣) راجع معجم البلدان لياقوت ، مهزوز .

(٤) راجع معجم البلدان لياقوت « مادة يثرب » وبلوغ الأرب للالوسي ١ – ١٩٦ .

ومن مدنه (الطائف) وهي بطن من جبل غزوان بشرقي مكة ، نزه كثير المياه والفواكه والبساتين وسكانها من ثقيف ؛ ومن قرى الطائف (وَجّ) و (النخب) و (العَرْج) و (ليّه) و (جلدان) و (عكاظ) و (ذو المجاز) و (مجنة) وكلها قرى كثيرة النخل والفواكه وللعرب فيها أسواق مشهورة ومواسم مسماة .

ومن مدنه (خيبر) وهي مدينة كبيرة كثيرة الحصون والمزارع ، قال أبو عبيد البكري : انها باسم احد العماليق واهلها يهود ، وكانت لبني غزة بن أسد ، ومن قراها المشهورة (فدك) .

ومن مدنه (جدّة) وهي الفرضة الكبرى للقطر ، وهي تابعة لمكة المكرمة .

ومنها (الجار) وهي فرضة حسنة تابعة للمدينة المنورة .

ومنها ينبع وهي مدينة صغيرة قريبة من الساحل آلت لبني الحسن .

ومنها تبوك وهي مدينة تجارية حسنة الاسواق .

وفي الحجاز كثير من الجبال اشهرها (خندمة) و (اجياد) و (أبو قبيس) و (ثور) و (ثبير) و (عرفات) وكلها قرب مكة .

الحالة الدينية

كانت الحالة الدينية في بلاد الحجاز قبل البيعة النبوية متعددة النواحي ففيها الحمس الحنفاء ، وفيها المشركون ، وفيها الزنادقة ، وفيها المعطلون ، وكان لكل فريق طقوسه وتقاليده التي اخذها عن رجال دينه واسلافه الا انهم كانوا جميعاً يجمعون على شيء واحد وهو تقديس الكعبة واحترام مشاعرها ، فقد جعلوا لها حرماً مقدساً يحيط بمكة من دخله كان آمناً ، وحدّه من جهة المدينة دون (التنعيم) عند بيوت بني نفار على ثلاثة أميال ، ومن جهة العراق على ثنية جبل بالمنقطع على سبعة اميال ، ومن طريق (الجعرانة) بشعب ابي عبدالله ابن خالد على تسعة اميال ، ومن طريق (الطائف) على عرفة . ومن بطن (غرة) على سبعة اميال ، ومن طريق (جده) عند منقطع العشائر على عشرة

اميال (١) . وقد كان الناس منذ اقدم عصور (الجاهلية) يقدسون هذه البقعة فلا يسفكون فيها الدماء ، ولا يقطعون الشجر والقصب ، ولا يطردون الصيد ، ولا يقتلون الطير ، قال ياقوت : ومن شرفها انها كانت لقاحاً لا تدين لدين الملوك ... ومما زاد في فضلها اهلها ومباينتهم للعرب انهم كانوا حلفاء متألفين ومتمسكين بكثير من شريعة ابرهيم ، ولم يكونوا كالاعراب الاجلاف ولا كمن لا يوقره دين ولا يزينه ادب (٢) .

والحمس هم المتشددون في الدين وحفظ التقاليد الموروثة عن ابراهيم (ع) وهم بنو (خزاعة) و (كنانة) و (جديلة قيس) و (ثقيف) و (عامر بن صعصعة) ، وكان من سنة الحمس ان لا يخرجوا ايام المواسم الى عرفات وانما يكتفون بالوقوف عند المزدلفة ، ولا يشتكون ولا يأقطون ولا يرتبطون عنزاً ولا بقرة ، ولا يغزلون صوفاً ولا وبراً ، ولا يدخلون بيتاً من الشعر ، والمدر ، انما يكتنّون بالقباب الحمر في الاشهر الحرم ، ثم انهم فرضوا على العرب قاطبة ان يطرحوا ازواد الحل اذا دخلوا الحرم وان يخلوا ثياب الحل ، ويستبدلوها بثياب الحرم إما شرى وإما عارية واما هبة ، فان وجدوا ذلك والا طافوا بالبيت عرايا ، وفرضوا على نساء العرب مثل ذلك ، وكلفوا العرب ان تفيض من مزدلفة ، وكانت تفيض من عرفة ايام كان الملك في جرهم وخزاعة وصدراً من ايام قريش ، فلولا انهم امنع حي في العرب لما أقرتهم على هذا العز والامارة مع نخوة العرب في ابائها (٣) ، يقول العلامة الالوسي : كانت قريش ابتدعت رأي الحمس رأياً رأوه وارادوه فقالوا عن بنو ابراهيم واهل الحرمة وولاة البيت وقطان مكة وسكانها فليس لاحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا ، فلا تعظموا شيئاً من الحل كما تعظمون الحرم فانكم إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمتكم ، وقالوا قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحزم فتركوا الوقوف بعرفة والافاضة منها ، وهم يعترفون ويقرون انها من المشاعر والحج ودين ابراهيم ، ويرون لسائر العرب ان يقفوا عليها وان يفيضوا منها ، الا انهم قالوا نحن اهل الحرم فليس ينبغي لنا ان نخرج من الحرمة

---

(١) راجع بلوغ الارب للالوسي ١ ، ٢٥٣ .
(٢) راجع معجم البلدان مادة (مكة) .
(٣) راجع معجم البلدان مادة (مكة).

ولا تعظم غيرها كما نعظمها نحن الحمس (١) .

وقد كانت قريش وبطونها والحُمس وقبائلها يقومون بالشعائر الدينية التي كانت تربط جميع من كانوا يقصدون البيت الحرام برباط ديني وثيق على اختلاف قبائلهم ، وما ذلك إلا لمكانة مكة وقدسية الكعبة واحترامهم لقريش التي كانت تتمتع بمكانة مرموقة بينهم . وكان للعرب اشهر مقدسة حُرُم يعقدون فيها الاسواق التجارية حول الحرم ، وهي شوال وذو القعدة ، وذوالحجة والمحرم ، فكان لا يجرؤ احد على الاخلال بحرمة تلك الأشهر .

ومما تجدر الأشارة اليه ان العرب على الرغم من احتفاظهم ببعض الطقوس الدينية الحنيفية الموروثة عن ابراهيم واسماعيل فان الوثنية قد دخلت عليهم وامتزجت بديانتهم ، ويقال ان عمرو بن لحي الخزاعي هو أول من ادخل عبادة الأوثان مع الطقوس الدينية العربية ، وانه نقلها حينما زار الشام وانه وضع بعض الأصنام في الكعبة ، يقول الشهرستاني في الملل والنحل : « اول من وضع فيه – اي في البيت الحرام – الأصنام عمرو بن لحي لما ساد قومه بمكة واستولى على أمر البيت ثم سار الى مدينة البلقاء بالشام فرأى قوماً يعبدون الأصنام فسألهم عنها فقالوا هذه ارباب نتخذها على شكل الهياكل العلوية والأشخاص البشرية نستنصر بها فننصر ونستسقي فنسقى فأعجبه ذلك وطلب منهم صنماً من اصنامهم فدفعوا اليه (هُبَل) فسار به الى مكة ووضعه في الكعبة » ويقال ان هبل كان من العقيق على هيئة انسان ، وقد كثرت الأصنام في بلاد العرب عامة وفي الكعبة خاصة حتى ان المسلمين اخرجوا منها يوم فتح مكة (٣٦٠) صنماً (٢) .

وكان الى جانب هؤلاء (نصارى) جاءتهم النصرانية من بلاد الشام وشبه جزيرة سيناء واشهر القبائل التي دخلتها النصرانية بنو تغلب ، وطي ، وبعض عرب الحجاز ، وقد اثرت النصرانية في البيئة العربية تأثيرات واضحة وأوجدت بعض الفكرات التي كان لها علاقة بالنصرانية مثل فكرة اتخاذ الله البنين والبنات ، ومثل فكرة الشفاعة والشفعاء ، ومثل فكرة الرهبنة وطقوسها .

وكان في العرب نفر من المتهودة كانوا يسكنون في (فدك) و (وادي القرى)

---

(١) بلوغ الارب للالوسي ٢ ، ٣٢٠

(٢) بلوغ الأرب للالوسي ٢،٢١٢،٣٨١ .

و (تيماء) و (المدينة) (١) وقد أثر هؤلاء المتهودة في بعض العرب فأخذوا عنهم بعض الطقوس الدينية كالختان ، واعتزال النساء في المحيض ، وبعض المعلومات التاريخية والدينية والأخبار والقصص .

وكان في العرب مجوس اخذوا المجوسية عن الفرس في رحلاتهم التجارية الى فارس ، وكان فيهم (الحنفاء) او (الصابئة) الذين نزهوا نفوسهم عن اوضار الوثنية ، واستخلصوا لانفسهم مذهباً نقياً اخذوه من اليهودية والنصرانية والحنيفية فكانوا يستقبحون عبادة الأصنام ووأد البنات وشرب الخمر ولعب الميسر والمقامرة ويؤمنون بوجود إله واحد عادل يحاسب الناس على اعمالهم في يوم القيامة ، ومن هؤلاء امية بن ابي الصلت الشاعر ، وورقة بن نوفل ، وقس بن ساعدة ، وزيد ابن عمرو بن نعثل وعثمان بن الحويرث وغيرهم (٢) .

وكان فيهم معطلون دهريون يقولون ، ما هي الا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيى ، وما يملكنا إلا الدهر ، فأنكروا الخالق سبحانه ، ونفوا البعث ، ولم يقروا بالحشر ، وقالوا بالطبع المحيي ، والدهر المفني .

وكان فيهم زنادقة وثنوية ، وكانت الزندقة منتشرة في قريش قال ابن قتيبه في كتاب المعارف : « وقد كانت الزندقة في قريش اخذوها من الحيرة (٣) »

والمراد بزندقة قريش ان الزنادقة فيها كانوا ينكرون الحشر ولا يؤمنون بالآخرة ويثبتون اكثر من إله ، وقد ينكرون الألوهية .

وعلى الرغم من هذا التعدد الديني عند العرب قبل الاسلام فقد كانوا مشتركين في امور ، وكأنهم قد ورثوها عن ابيهم ابراهيم فمن ذلك تعظيم الكعبة – كما أسلفنا – ومن ذلك تقديس الأشهر الحرم ، ومنه محافظتهم على طهارات الفطرة التي ابتلى بها ابراهيم وهي المضمضة والاستنشاق وقص الشارب والفرق والسواك والاستنجاء وتقليم الأظافر ونتف الأبط وحلق العانة والختان ؛ ومنه الاغتسال من الجنابة وتغسيل الموتى وتكفينهم والصلاة عليهم ورثاؤهم ، وصوم عاشر المحرم ، والحج ، والعمرة ، والاحرام ، والطواف ، ومسح الحجر الأسود ، والسعي

(١) فجر الاسلام لاحمد امين ص ٢٧ و عصر النبي لعزة دروزة ص ٤٣٦ .
(٢) بلوغ الأرب للألوسي ٢، ٣٦٨ ، وعصر النبي ص ٤١٩ .
(٣) بلوغ الارب للالوسي ٢، ٣١٦ .

بن الصفا والمروة ، والتلبية ، وكانوا يقفون المواقف كلها ، ويهدون الهدى ويرمون الجمار وغير ذلك من مشاعر الحج . وكانوا يصلبون قاطع الطريق ، ويقطعون السارق ويحكمون باعتزال الحائض وأمور أخرى كثيرة أقرها الاسلام (١) :

وهناك أمور دينية أخرى اشترك العرب جميعاً في الاعتقاد بها على الرغم من تباين مذاهبهم الدينية ، ويمكننا إجمال ذلك في النقاط الآتية :

الملائكة : اعتقد العرب بوجود الملائكة وقالوا انها بنات الله ، وان الله سبحانه قد أصهر الى الجن فكانت الملائكة بناته منهم ، وانهم أجسام نورانية ، يرسلها الله الى الناس رسلا مبشرين ومنذرين ، وقد غالى بعض العرب فعبد الملائكة تقرباً الى الله ، وذهب آخرون الى أنهم أجسام كاللات والعزى ومنات ، وانها رموز وهياكل مادية تجسدت فيها الملائكة وقد أشار القرآن الى بعض هذه الاعتقادات الجاهلية بقوله (ويومَ يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ، قالوا سبحانك انت ولينا من دونهم (٢)) وقوله (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن أناثاً ، أشهدوا خلقهم ، سنكتب شهادتهم ويسألون (٣))

الجن : كان العرب يعتقدون بوجود الجن والمردة (٤) ويزعمون انهم مخلوقات هوائية لطيفة قادرة على التشكل بما تريد ، ويرون أنهم أقوياء يفعلون ما يعجز عنه البشر كأنهم شركاء الله فخافوهم وعبدوهم ، وفي القرآن الكريم والشعر القديم كثير من الأقوال التي تؤيد اعتقاد العرب بالجن وتبين طرفاً من اعتقاداتهم فيهم ففي للقرآن (جعلوا لله شركاء الجن وخلقهم ، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه (٥)) وفيه (ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الجن ، وقال أولياؤهم من الأنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا (٦) وقال راجزهم :

---

(١) راجع بلوغ الأرب للألوسي ٢ - ٣١٦ .

(٢) سورة سبأ آية «٤٠» .

(٣) سورة الزخرف آية « ٢٨ » .

(٤) بلوغ الأرب للألوسي ٢ - ٣٦٠ .

(٥) سورة الانعام آية «١٠٠» .

(٦) سورة الانعام آية ١٢٨ .

من قد استعذنا بعظيم الوادي   من شرّ ما فيه من الأعادي
فلم يُجرنا من هزبر عادي

وكان من عاداتهم في (الجاهلية) اذا ركب أحدهم مفازة ، وخاف على نفسه من الجن والشياطين ان يُنيخ راحلته الى واد ذي شجر ويقول : أعوذ بصاحب هذا الوادي أو عظيمه ، وقال آخر :

قد بتّ ضيفاً بعظيم الوادي   المانعي من سطوة الأعادي
راحلتي في جاره وزادي

وكانوا يعتقدون ان الجن والشياطين هم اصحاب نفوذ قوي واعمال عجيبة وان لهم صلات ببعض بني الأنس من السحرة والكهان والشعراء وانهم كانوا يفعلون الأعمال الخارقه ، ويعلمون الأمور المغيبة ، وربما سمى العرب الملائكة (جناً) لاستتارهم كما يسمونهم (حنا) بالحاء وفي القرآن الكريم والأدب الجاهلي ، والخرافات والأساطير الموروثة كثير من اخبار الجن والشياطين والمردة واحوالهم واعتقادات العرب فيهم (١) .

الحالة السياسية :

لم يعرف أن الحجاز خضع لحاكم اجنبي طول عهوده ولم يعبث بحريته الملوك الفاتحون في الوقت الذي عبث فيه كيرش وقمبيز وغيرهما من ملوك الفرس باستقلال كثير من الامم ، كذلك ظل محافظاً على استقلاله أيام الاسكندر المقدوني حين أغار على دارا ملك الفرس وكان من أثر تمتع أهل الحجاز بالاستقلال طول حياتهم أن ظهرت فيهم طبائع خاصة بهم من حيث عراقة أصلهم وشرف أهلهم وآبائهم وشهامتهم التي كانت ولا تزال مضرب الامثال ولغتهم التي حافظت على نقائها

---

(١) نقل العلامة الألوسي في بلوغ الأرب ٢، ٣١٩ عن ابن عبد البر الأندلسي ان من عقائدهم في الجن انهم اذا ذكروا الجن خالصاً قالوا (جنى) فان ارادوا انه ممن يسكن مع الناس قالوا (عامر) والجمع عمار فان كان ممن يعرض للصبيان قالوا (روح) والجمع ارواح فان خبث ولؤم قالوا (شيطان) فان زاد على ذلك قالوا (مارد) فان زاد على ذلك وقوي امره قالوا عفريت فان طهر ولطف وصار خيراً فهو ملك .

وصفائها (١) . وكان النظام القبلي يسيطر على الحالة العامة في الحجاز فكان لكل قبيلة كيانها السياسي المستقل ، ولكل قبيلة شيخها وأهل العقد والحل كما كان لها حكيمها وحكمها وكاهنها وشاعرها ، وكان لأهل مكة وقريش بصفة خاصة مكانة مقدسة رفيعة تجعلهم يمتازون عن بقية العرب بأنهم اهل بيت الله واهل الحكم المسموع في القبائل العربية جميعاً . وقد نبغ في العرب قبل الاسلام عدد من العقلاء والحكام والنبلاء الذين فرضوا طاعتهم على القبائل العربية كبني سهم ، وبني هاشم وبني عبد مناف (٢) وكان بنو سهم هم أصحاب الحكومة قبل الاسلام ويظهر ان المراد بذلك أنهم كانوا اصحاب القول والفصل في المشاكل والخصومات التي تقع بين العرب .

ولما سيطر قصي بن كلاب على مكة نظم أمور البلد ورتب شؤونه وكان حازماً داهية . نقل السيوطي عن ابن سعد قال : روي عن عباس ان قصي بن كلاب اول ولد لكعب بن لؤي أصاب ملكاً اطاع له به قومه فكان شريف اهل مكة لا يُنازع فيها فابتنى دار الندوة وجعل بابها الى البيت ، ففيها كان يكون أمر قريش كله وما ارادوا من نكاح او حرب او مشورة فيما ينوء بهم تشريفاً له وتيمناً برأيه ومعرفة بفضله ويتبعون امره كالدين المتبع لا يعمل بغيره فكان اليه الحجابة والسقاية والرفادة واللواء ، والندوة وحكم مكة كله وقد قام بأمر مكة بعد قصي ابنه عبد مناف ثم ابنه هاشم ثم ابنه عبد المطلب وفي عهده اراد ابرهة الاشرم الحبشي صاحب الفيل ان يستعمر الحجاز ومكة فخذله الله ورجع خاسراً عن مكة والبيت الحرام وقد اشار القرآن الكريم الى هذه الحادثة بقوله « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل » .

يذكر المؤرخ الفرنسي سديو ان أبرهة الاشرم الحبشي المتغلب على اليمن أراد فرض سيطرته على الحجاز وسائر الجزيرة ورأى أن حرمة الكعبة هي التي تجعل العرب أجمعين يخضعون لصاحب مكة فأراد السيطرة عليه وقد كاتب قيصر الروم أنه يري أن يبني كنيسة كبرى في صنعاء فهو يسأله المعونة وأن يبعث اليه الصناع والعمال والفسيفساء والرخام فبعث اليه بما اراد — لما كان بينهما من رابطة النصرانية — ولما تم ما أراد كتب الى النجاشي انه يريد أن يحول حجاج العرب الى صنعاء

(١) انظر تاريخ العرب لسديو ، ترجمة زعيتر ١ ، ٤١
(٢) صبح الأعشي ٢ ، ٣٢٦

وبذلك تنحصر تجارة الجزيرة في اليمن . وشاع ذلك بين العرب فثارت حفيظتهم وخرج رجل من بني مالك بن كنانه فقدم اليمن ودخل كنيسة صنعاء وعبث فيها وانتهك حرمتها وأفسد أثاثها فلما علم أبرهة بذلك غضب وآلى ليهدمنّ الكعبة ثم جرد جيشاً، يذكر المؤرخ سديو أن قوامه أربعين ألفاً . ويقول أخرون بل ستين ألفاً (١) ولما وصل أبرهة المنمّس – وهو مكان على ثلثي فرسخ من مكة في طريق الطائف – بعث القائد الأسود بن مقصود فأتى مكة واخذ أموال أهلها من قريش وغيرهم وأصاب مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم فأراد أهلها قتاله ولكنهم وجدوا أنفسهم ضعافاً أمامه . ثم أن أبرهة بعث رسولا أسمه حناطة الحميري الى مكة وقال له : سل عن سيد هذا البلد ثم قال له أن الملك يقول لكم أني لم آت لحربكم أنما جئت لهدم البيت فان لم تعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لي بدمائكم فان لم يُرد حربي فاتني به فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها فقيل له هو عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف فخابره وقال له ما أمره بقوله أبرهة فقال عبد المطلب : والله ما نريد قتاله وما لنا بذلك طاقة هذا بيت الله وبيت خليله أبراهيم . فقال له حناطة . فانطلق معي إلى الملك فانه قد أمرني أن آتيه بك فانطلق معه هو وبعض بنيه فلما أتى المعسكر وتقابل مع أبرهة قال لترجمانه : قل له : قد كنت أعجبتني حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتني . أتكلمني في مائة بعير قد أصبتها لك وترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه فقال عبد المطلب : أني أنا ربّ الابل وان للبيت رباً سيحميه . ثم أنه عرض على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن مكة ولا يهدم البيت فأبى فخرج عبد المطلب حانقاً وجاء إلى الكعبة ومعه جماعة من قريش وقال :

يا رب لا أرجولهم سواكا	يا رب فامنع منهم حماكا
أن عدو البيت من عاداكا	أمنعهم أن يخربوا قراكا

ثم أن أبرهة صمم على دخول مكة وهدم الكعبة فسار نحو مكة وعلى رأس جيشه فيله – وكان اسمه محموداً فيما رووا – فلما وجه الفيل نحو مكة برك ولم يتحرك فضربوه فلم يقم ثم وجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك فطاش صواب ابرهة . ثم أن الله أرسل عليه وعلى جنده طيراً من جانب البحر أمثال الخطاطيف مع كل طائر ثلاثة أحجار يحملها حجر في منقاره وحجران في رجليه أمثال الحمص

(١) Hist . Géné . des arabes I , 14

والعدس وأحذت الطير تلقيها عليها فكانت لا تصيب أحداً إلا هلك (١) فتراجع أبرهة وجيشه ووقف عبد المطلب على باب الكعبة وهو يقول :

لا هُمَّ أن العبد يمـ ـنع رحله فامنع رجالك ، لا يغلبنَّ صليبهم ـ ومحالهم عدواً محالك
فلئن فعلت فربما ـ أولى فأمرما بدالك ، ولئن فقلت فانه ـ أمرتمٌ به مقالك

وكانت سنة الفيل حدثاً تاريخياً كبيراً حفظه العرب وارخوا به ولو اتيح لأبرهة النصر لانتشر دين الاحباش في الجزيرة وانصرف الناس عن مكة إلى صنعاء ويأبي الله إلا أن تتم رسالته .

قال الطبري : ولما رد الله الحبشة عن مكة عظمت العرب قريشاً وقالوا اهل الله قاتل عنهم الله فكفاهم مؤونة عدوهم(٢) والحق أن الحالة السياسية في الحجاز قبل عصر النبي كانت حالة بسيطة غير معقده ليس لها ما للدول من مشكلات سياسية أو قضايا دولية هي حالة قريبة الشبه بالنظام الجمهوري الشوري الذي يعتمد على النظام القبلي وتحكم البلاد حكماً يديره شيوخ قريش ووجوه القبائل الكبرى في الحجاز وأن هذه القبائل وقريشاً كانت تتوارث الحكم ، ولعل أبرز هؤلاء الشيوخ في الجاهلية هو قصي وعبد مناف وهاشم وعبد المطلب وابو سفيان في مكة وعبد الله بن أبي في المدينة .

الحالة الاقتصادية :

الحجاز بلد فقير وصفه ابراهيم (ع) بقوله (ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون (سورة ابراهيم آية ٣٧) على أن فيه بقاعاً خصبة هي يثرب ورياضها ، والطائف وضواحيها ، ففي هذه البقاع سهول خضرة وبساتين مثمرة وجنات وارفة ونخيل واثمار وزرع ، كما ان فيه مدناً ساحلية اتصلت بالعالم الخارجي فكثرت تجاراتها وربت خيراتها ، كما ان مواسم الحجاز واسواقه جعلت منه بقعة تجارية يقصدها العرب اجمعون ليشهدوا منافع لهم . وقد كانت لقريش رحلتان تجاريتان احداها في الصيف الى الشام وثانيتها في

(١) أنظر الطبري ٢ – ١١١ – ١١٣ والسيرة لابن هشام ١ – ٤٣ – ٦١
(٢) الطبري ٢ – ١١٥

الشتاء الى اليمن (لإيلافِ قريشٍ أيلافهم رحلة الشتاءِ والصيفِ فليعبدوا ربَّ هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) وقد رأينا سبب حملة أحباش اليمن كانت حملة تجارية الاهداف فقد رأى أبرهة وصحبه ما لقريش من اثر في حياة الجزيرة العربية الاقتصادية فأراد تحويل ذلك الى اليمن وحصره فيه ولكنه فشل وظلت لمكة خاصة والحجاز عامة سيطرته التجارية ومكانته المالية .

فقد كانت مكة مقر حركة تجارية واسعة تمتد الى اليمن ومصر والحبشة وسواحل أفريقية كما تسير الى الشام والعراق وفارس والمشرق البعيد وكان تجار مكة يذهبون بالبضائع ويجيئون بالسلع . وقد كان بنو عبد مناف جميعاً يهتمون بشؤون التجارة والاقتصاد ، والمؤرخون يذكرون ان هاشماً كان يتوجه الى الشام ، وعبد شمس كان يقصد الحبشة ، والمطلب كان يتاجر الى اليمن ، ونوفل الى فارس ، وكان تجار قريش الآخرون يختلفون مع بني عبد مناف الى هذه البلاد ولا يتعرض لهم احد بسوء (١) وكل واحد منهم يأخذ من البلد الذي يقصد بلاده أماناً له ولقومه فكان عملهم هذا اشبه بالمعاهدات التجارية بين امراء مكة وتجارها وبين ملوك تلك الأقطار ، وقد كانت هذه التجارات احتكاراً للقريشيين لمكانتهم ووجاهتهم عند العرب اجمعين ، ولأن اراضي الجزيرة وعرة صعبة المسالك لا يتيسر ورودها على من ليس اهلها فلذلك لم ينافسهم أهل تلك الديار من فرس وروم وأحباش فيها . وقد أثرت قريش بهذه التجارات إثراء عظيما ومن أشهر من عرف بذلك ابو سفيان والوليد بن المغيرة وعبدالله بن جدعان وخديجة بنت خويلد وغيرهم ، وقد كان كثير من الناس يوفدون عنهم من يتاجر باموالهم إذا هم لم يقدروا على ذلك او كن نساء كما فعلت السيدة خديجة في ارسال النبي (ص) قبل البعثة متاجراً بأموالها وقد كانت قوافل القرشيين معروفة في البلاد التي تمر بها كما كانت محترمة المكانة مرهوبة الجانب لمكانتهم الاجتماعية وحمايتهم للكعبة التي يقصدها العرب اجمعون ، وكانت لهذه القوافل محطات في كل من الأمكنة التي كانوا يقصدون في غزة هاشم وحوران ودمشق وبيت المقدس في الشمال ، وصنعاء وعدن وعمان وحضرموت في الجنوب . اما البضائع التي كانوا يتاجرون بها فهي التوابل والطيب والبخور والمنسوجات الحريرية والأسلحة والجلد يأتون بها من موانيء عمان وأسواق الحبشة

(١) صبح الأعشى ١، ٣٥٨ ، وتاريخ اليعقوبي ٢، ٢٨٢

وافريقية وصنعاء الى بلاد الشام التي كانوا يأخذون منها الحبوب من القمح والشعير وزيت الزيتون والأخشاب والفواكه والمصنوعات النحاسية والحديدية والزجاجية . كانوا يشترون من الموانئ اليمنية بضائع الهند والصين وغيرهما من اقطار اقصى المشرق واهمها المنسوجات الحريرية والمعادن النفيسة والحجارة الكريمة والتوابل والعاج . وقد استفادت قريش من هذه التجارات فوائد جليلة مادية ومعنوية أما المادية فجعلتهم ينعمون بحياة رخصة رخية ، وأما المعنوية فجعلتهم اصحاب ثقافة وافق عقلي واسع ، ولا غرو فأن مخالطتهم لأرباب تلك المتاجر من روم وفرس وأحباش وانباط وهنود وصين وغيرهم من ارباب الحضارات القديمة والعلوم العريقة قد جعلتهم اوسع مدارك من غيرهم وأعظم مفكورات واجل نظرات كما جعلتهم على اطلاع واسع بكثير من آداب التجارة والسياسة وانظمة العلاقات التجارية ، كما عرفتهم بكثير من احوال المكاييل والموازين ودقائق علم الحساب التجاري .

ثم إن يهود الحجاز قد لعبوا دوراً تجارياً هاماً في الحياة الاقتصادية الحجازية فكانت لهم مزارع وحصون وآطام وقصور وثروات ، وكانت لهم متاجر ومصارف وحوانيت ومصانع ، وكان منهم الصناع والصياغ والصياقلة والحدادون والنجارون وغيرهم من أرباب الحرف ولا شك في ان هذا كله قد رفع من مستوى الحجاز الاقتصادي وجعل أهله يتمتعون بحياة رخصة وحركة اقتصادية نشيطة ، وقد عرف العرب في الحجاز كثيراً من ضروب المتاجرة من الصيرفة والربا والنسيء والتطفيف في البيع والحيل التجارية ولا شك في ان العرب قد أخذوا كثيراً من هذه الأمور عن اليهود المقيمين بين ظهرانيهم او من تجار الشام والعراق واليمن ومصر حينما كانوا يرحلون اليها متاجرين ، وفي القرآن الكريم كثير من الآيات التي تشير الى هذه الأمور والى تحريم الاسلام إياها وتهديد من يتعاطاها من المسلمين .

وكما كانت التجارة مزدهرة فكذلك كان شأن الصناعة والزراعة ، اما الصناعة فقد ورد في الشعر الجاهلي والقرآن الكريم أشياء كثيرة عن صناعات العرب وحرفهم وتفننهم في بعض أنواعها من نسيج ونقش وحدادة وصياغة وبناء وتجارة ودباغة وما الى ذلك قال تعالى (والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً الى حين « سورة النحل ٨٠ ») وقال (يُحلّوْن فيها من أساور من ذهب ويلبسون أثواباً خضراً من سندس واستبرق متكئين فيها على

الأرائك .. « سورة الكهف ٣١ ») وقال (يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجنان كالجواب وقدور راسيات « سورة سبأ ١٣ ») .

وأما الزراعة فقد كانت في المدينة والطائف وخيبر وما اليها وكانوا يعنون بالزروع والكروم والنخيل والفواكه والبقول وغير ذلك مما أشار اليه الشعر الجاهلي والقرآن ، ولا غرو فان للجوالي اليهودية ورحلات العرب الى الشام واليمن وغيرهما من الأقطار الزراعية أثراً كبيراً في تقدم الزراعة الحجازية وقد أشار ابن هشام في السيرة الى ان بعض أهالي العراق كان يعمل في بستان أحد زعماء الطائف (١) وقد يكون هناك آخرون غير هذا يعملون في حدائق الحجاز وبساتينه .

الحالة الاجتماعية :

ان معلوماتنا عن الحياة الاجتماعية في العصر الذي سبق البعثة المحمدية يمكن استقاؤها من الشعرين الجاهلي والاسلامي والقرآن والحديث ويمكننا اجمال تلك الحياة بالامور الآتية :

(١) **العصبية القبلية** : فقد كان الفرد متعصباً لقبيلته في البادية والحاضرة وكانت القبيلة شديدة التعصب لافرادها ، وقد استمرت هذه الروح التعصبية في الاسلام على الرغم من محاولة الرسول (ص) القضاء على التعصب القبلي الاعمى الذي كان يسيطر على الحياة الاجتماعية أملاً في ايجاد وحدة أممية مشتركة بين المسلمين بقطع النظر عن مصلحة القبيلة او العشيرة او البطن او الفخذ قال تعالى : (ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض) « سورة الأنفال آية ٧١ » وقال (فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم في الدين) « سورة التوبة آية ٢٣ » وفي القرآن والحديث أقوال كثيرة تنهى المسلمين عن العودة الى العصبية القبلية الجاهلية المقيتة وقد استطاع الرسول وخلفاؤه الراشدون وخصوصاً أبا بكر وعمر أن يقصوا العرب عن هذه الروح ولكن هذا لم يدم طويلا فرجع الوضع الى ما

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ — ٣٠ .

كان عليه في الجاهلية بعدها .

كان العرب في الجاهلية يعتبرون القبيلة هي المرجع الأساسي الذي يرجعون اليه في الدفاع عن حقوقهم والاستنصار على عدوهم والتعاون على أعداء بني قبيلتهم سواء كان محقاً او مبطلا ، ولم يكن الدين ليحول بين هذا التناصر ، ولما قدم الرسول بدعوته نصره كثير من قرابته لا لأنهم آمنوا به وصدقوه في دعوته حقاً بل انتصاراً له لأنه فرد من افراد قبيلتهم وبذلك استطاع ان يبقى في مكة على الرغم من شدة خصومه عليه ، وكان شذوذ عمّ النبي (ص) عبد العزى الملقب بأبي لهب شذوذاً فردياً على ان ابن هشام يروي ان ابا لهب قد ثارت عصبيته لأخيه ابي طالب وهدد زعماء قريش بأنه سينضم الى اخيه اذا هم لم يحترموا شيخوخته وجواره وانه جاء الى الرسول (ص) بعد موت ابي طالب وقال له : أمضِ لما اردت وما كنت صانعاً اذ كان ابو طالب حياً فأصنعه وحلف له بأنه لا يوصل اليه حتى يموت (١) . وقد أقر الاسلام بعض تقاليد الجاهلية التي تمت الى العصبية القبلية بسبب ، فمن ذلك انه ابقى لولي القتيل حقه في طلب دم صاحبه . قال تعالى « وَمَنْ قُتِلَ مَظلوماً فقد جعلنا لِوَلِيهِ سُلطاناً فلا يُسرِفْ في القتل أنه كان منصوراً » (سورة الاسراء آية ٣٣) ولا يشترط في هذا الولي ان يكون ابن القتيل او اخاه او من ذوي قرباه ، بل ربما كان شيخ القبيلة او رئيس العشيرة ومن ذلك حق « العقل » وهو توزيع دية القتيل على القبيلة بسبب الصلح او القضاء كما ان مستحقي حق العقل هم الذين يجب عليهم الدفع فيما لو انعكست الآية. ومن ذلك بعض حقوق الميراث وحقوق اولي الارحام واليتامى والمساكين في الاسره ، وقد كانت للعصبية القبلية درجات يتلو بعضها بعضاً فأولها العصبية للأسرة ، ثم العصبية للقبيلة ، ثم العصبية للأحلاف . أما العصبية للأسرة فقد رأينا بعض احوالها فيما سبق ، وأما العصبية للقبيلة فتتجلى في ان افراد القبيلة الواحدة تتضامن امام القبائل الأخرى في الحروب او المصالح المشتركة وتتعاون في المغانم والمغارم ، واما العصبية للاحلاف فهي ان يتعصب الفرد لاحلاف قبيلته فيحارب معهم ويتعاون واياهم ويتحمل تبعة اعمالهم ومن امثلة ذلك ما يروى من ان بعض يهود المدينة كانوا احلافاً للأوس وبعضهم كان احلافاً للخزرج وكان كل فريق ينصر حليفه وقد استمر هذا الى ما بعد الاسلام وإليه الاشارة في الآية :

---

(١) ابن هشام ١ . ٣٣٢

« لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء » (سورة آل عمران آية ٢٨) وتحالف اليهود مع قريش ضد النبي فكونوا حزباً واحداً مقابل الجبهة الاسلامية وقد كان لهذه الأحلاف والأحزاب طرق متبعة في عقدها وفي فسخها ، ومما يلحق بالعصبية القبلية عصبيات اخرى يمكننا اجمالها فيما يلي : عصبية الولاء ، وعصبية الجوار ، وعصبية الأجيال ، اما عصبية الولاء فهي ان يلحق فرد أو بطن او فخذ او قبيلة بقبيلة أخرى فيكونون مواليهم ويقطعون صلاتهم بقبيلتهم السابقة ، وليس هذا الولاء كولاء الرق والعبودية ولكنه ولاء الاستنصار والاعتزاز والتقوى وقد كان لهؤلاء الموالي كافة الحقوق التي للقبيلة ، واما عصبية الجوار فهي ان يلتحق فرد او بطن ضعيف بآخر قوي ويستجير به ويطلب حمايته ودفع الظلم عنه ، فاذا قبل المستجار ذلك أعلنه في المواسم على الاشهاد واصبح المستجير في حمى المجير كأنه فرد من أفراد عشيرته ويظل حق الجوار محفوظاً إلى أن يتخلى المستجير عنه على الملأ . وأما عصبية الاجيال فهي التعصب للتقاليد والموروثات التي وصلت إلى الأخلاف عن الاسلاف من أمور الدين والدنيا وتقاليدها وقد تجلى هذا واضحاً في عزوف كثير من عرب الجاهلية عن الدعوة الاسلامية لبعض التقاليد الموروثة لا غير ولما قوي أمر الاسلام ودخل العرب في دين الله وجاء نصر الله والفتح أبقى الرسول جزءاً من هذه التقاليد التي كان يتعصب لها العرب لتغلغلها في النفوس من جهة وعدم معارضتها للمبادىء الاسلامية الرئيسية كبعض تقاليد الحج من رمي الجمار والطواف بين الصفا والمروة واستلام الحجر الاسود وتقبيله والوقوف بعرفة . وذبح الضحايا والقرابين وتحريم لبس المخيط وتحريم الصيد ، ومن تقاليد الاجيال التي نص عليها الاسلام حرمة الأشهر الحرم و الابقاء على الرضيعة والتسري بالاماء بدون تحديد والزواج بأربعة نساء .

ومما حرمته من تقاليد الاجيال الزواج بأمرأة الأب والجمع بين الاختين والزنا والسفاح والمخادنة وطواف العاري حول الكعبة والذبح على الانصاب والازلام واعتزال النساء في المحيض ودخول الرجال الى بيوت النساء بدون اذنهن والتبرج وكشف الزينة لغير المحارم والتبني .

٢ ـ أحوال الاسرة :

كان الرجل هو القائم بأمر الاسرة وصاحب المنزلة الممتازة فيها والمسئول عن اسباب الحياة والمعيشة والحماية لها ، وهو الذي يعول الأهل والمحارم ، وهو المسئول عن حفظ كيان الاسرة ، اما المرأة فهي ثانوية المكانة عليها القيام بخدمة البيت وربه وأولاده ، ولم تكن حالتها حسنة ولا حقوقها مصانة إلا قليلا ، وكانت مغبونة في المواريث والحقوق والمكانة قال تعالى « وقالوا ما في بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ، ومحرم على أزواجنا وان يكن ميتة فهم فيه شركاء » (سورة الانعام ١٣٩) وقال « وإذا بُشِّرَ أحدُهم بالأنثى ظل وجهه مُسوَدا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّر به أيمسكه على هون أم يدُسُّه في التراب ألا ساء ما يحكمون » (سورة النحل ٥٧ ـ ٥٩) ، وفي القرآن والشعر الجاهلي شواهد تبرهن عن سوء حالة المرأة وعلى وأد البنات وحرمانهن حقوقهن في الحياة والمال والمكانة على ان هذا لا يمنع من بروز بعض النوابغ منهن ممن أوتين بسطة في العقل والجسم ففرضن احترامهن على الرجال ولمع اسمهن في البيئة العربية من الحكيمات والشواعر والنبيلات وهناك امور تتعلق بأحوال الاسرة في العصر الجاهلي نجملها في النقاط التالية :

١ ـ **الزواج والنكاح** : كان للعرب طرق للازدواج (منها) ان يخطب أحدهم الفتاة الى وليها فان قبلوا به زوجوه على مهر مسمى وهذا هو الطريق المتعارف وهو الذي اقره الاسلام و (منها) ان يقول الرجل لامرأته إذا ظهرت من حيضها اذهبي الى الشريف فلان واستبضعي منه فتذهب إليه ولا يقربها زوجها حتى يتبين أنها حملت وانما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد و (منها) أن يجتمع الرهط دون العشرة فيدخلون على المرأة فاذا حملت ووضعت سمت من أحبت أن تُلحق ولدها به وتصبح له زوجاً و (منها) أن يأتي الرجال بعض ذوات الرايات ـ وهن البغايا ـ فاذا ولدت ذهبت إلى القائف فألحق ولدها بالذي يراه شبيهاً بأبيه و (منها) أن يتبادل الرجلان زوجتيهما فيتنازل الواحد للثاني وتصبح زوجته و (منها) أن يزوج الزجل ابنته أو أخته على أن يزوج أخته اوأبنته مقابل ذلك بلا مهر وهو المسمى نكاح الشغار (١) و (منها) نكاح المتعة وهو زواج مؤجل . . . . وقد حرم الاسلام

---

(١) بلوغ الارب ٢ ـ٣ـ ٤ .

هذه الانكحة كلها وأعتبرها من الفواحش وكان العرب في الجاهلية يحرمون نكاح الامهات والبنات والخالات والعمات وقد كانت للجاهليين أحوال زواجهم (فمن ذلك) ألتماس الابكار والشوابِّ والأصيلات والجميلات . و (البعد) عن زواج الأقارب الشديدات القرابة :

فمن لم تَلِدْه بنتُ عمٍ قريبةٌ فيضوى وقد يضوى رذيل الاقارب

الطلاق والفراق

كانت عقدة الزواج بيد الرجل يمسك المرأة إن شاء ويسرحها متى شاء وكان بعض الازواج يتخذون ذلك وسيلة إلى ابتزاز الاموال من النساء والتنازل عن حقوقهن المفروضه كما كان منهم من (يظاهر) زوجته فيقول لها : أنت علي كظهر أمي فتحرم عليه مجامعتها ولكنها لا تطلق ، ويظهر أنهم كانوا يفعلون ذلك إذا ولدت المرأة بنتاً وانهم لا يريدون أن تتزوج المرأة بعدهم برجل آخر ، ومنهم من كان (يهجر) زوجته أذا ما أتت بعمل لا يرضيه ، وكان من عادة عقلاء العرب وحكمائهم في الطلاق أن يجعلوه ثلاثاً متفرقات ويقولون أن أسماعيل (ع) هو أول من فعل ذلك . ومن عاداتهم في ذلك (الخلع) وهو فراق الزوجة على مال يأخذونه منها وقد أقره الاسلام لانه من نوع من الشرط ومن عاداتهم (الايلاء) وهو الحلف على ترك قربانها مدة قال أبن عباس : كان أيلاء الجاهلية السنة والسنتين فوقت الله لهم أربعة أشهر فمن كان أيلاؤه أقل من أربعة أشهرفليس بايلاء (١) وكانت النساء في الجاهلية تعتد من الطلاق والموت وكن يبالغن في أحترام حق الزوج القديم ، وكانت المرأة إذا مات زوجها تربصت سنة بشرّ ثيابها وحفش بيتها ولم تمس طيباً ولا ماءً ولا تقلم ظفراً ولا تزيل شعراً وقد جعل الاسلام العدة أربعة أشهر وعشراً ومن العادات الذميمة التي كان العرب في الجاهلية يفعلونها وحرّمها الاسلام أنهم كانوا إذا قرب موعد عدة الطلاق (راجعوهن) لا عن حاجة ولا لمحبة بل لقصد تطويل مدة العدة وتوسيع مدة الانتظار أضراراً بهن وكان أحدهم يطلق أو يتزوج ثم يقول : عدلت عن هذا أو أني كنت أمزح أو

---

(١) بلوغ الأرب ٢ — ٥٤ .

العب فحرم الاسلام ذلك . وفي الحديث النبوي : ثلاث جدّهن جد واهتم لهن جد النكاح والطلاق والرجعة ، ومن عادات أشرافهم أنهم كانوا يمنعون مطلقاتهم أن يتزوجن بعدهم من آخر وقد حرّم الاسلام هذا الأمر إلا لنساء النبي (ص) .

البُنوّة : كان العرب في الجاهلية يرعون حق البنوّة لأنه حق طبيعي بشري قال قائلهم : وانما اولادنا بيننا اكبادنا تمشي على الأرض . ولكنهم كانوا يفضلون في الغالب الذكور على البنات كما كان منهم من يقتلون اولادهم ويئدون بناتهم خوف الفقر والعار قال تعالى « ولا تقتلوا اولادكم من إملاق نحن نرزقكم واياهم » (سورة الأنعام ١٥١) وقال تعالى « اذا الموءودة سُئلت بأيّ ذنب قُتلت » (سوره التكوير ٨ — ٩) وكان من عاداتهم أسترضاع ابنائهم في البوادي ليتاح لأطفال المدن وأبناء سراتها أن يعيشوا في جو البادية الصافي الصحيح الفصيح قال تعالى : « وان أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جُناح عليكم » (سورة البقرة ٢٣٣) كما كان من عاداتهم أن لا يستعجلوا في فطم أبنائهم قال تعالى « والوالدات يُرضعن ولادَهُن حولين كاملين لمن أراد أن يُتم الرضاعة (سورة البقرة ٢٣٣) . ومن عاداتهم التبني وهو ان يستلحق الرجل أبن غيره بنسبة فيصبح بمثابة أبنه فيرثه ويعطى كافة الحقوق وقد تبنىً الرسول (ص) زيد بن حارثة فصار يُدعى زيد بن محمد حتى قال الله « وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق ويهدي السبيل أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فأن لم تعلموا آباءهم فاخوانكم في الدين ومواليكم (سورة الاحزاب آية ٤ — ٥) .

المـــيراث : لم يكن للعرب نظام محدود في الميراث يعرف به صاحب كل سهم مقدار حصته ، فالزوجات والبنات والأخوات لم يكن لهن حق في الميراث تبعاً للقاعدة العامة في حقوق المرأة الجاهلية وكان الاولاد هم أول من يستولي على التركة ثم الاجداد والاعمام وذوو القرابة واخيراً النساء . على ان وصية الميت كانت تلعب دوراً خطيراً في الأمر وصاحب المال هو أحق الناس به يوزعه كيفما شاء ولكن الورثة قد لا يُقيدون بالوصية فيتصرفون كيفما يشاءون وسبب ذلك كله هو عدم وجود الوازع الديني والقانوني ونحن إذا ما تتبعنا آيات الميراث في القرآن نخلص الى ما أسلفنا .

٣ — **الحج** : ذكرنا بعض شؤون الحج في الفصل الخامس بالحياة الدينية ونتوسع

هنا في بيان أحوال الحج ومناسكه وتقاليده لأنها تتعلق بالحياة الاجتماعية تعلقاً قوياً لان الحج لم يكن مقصوراً على طائفة بعينها أو نحلة مخصوصة وإنما كان للعرب أجمعين على اختلاف مذاهبهم واديانهم وكانوا يتخذون موسمه فرصة للاجتماع والاتجار والتعارف والتشاور والتفاخر والتناصر والتناصح وحل المشكلات وكان العرب أجمعون يقصدون مكة يمارسون مناسك الحج ويشهدون منافع لهم مشاة ورجالة ، نساء ورجالا . وكان لمكة وحرمها قدسية عامة عندهم كما كان لاهلها مكانة خاصة عندهم لمجاورتهم البيت الحرام وكان اهلها بالمقابل يحسنون الى الحجاج ويكرمونهم لانهم ضيوف الله ، وكان الحجاج يحرمون على انفسهم اعمال الشر والفسوق والرفث والجدال في الموسم وكانت اشهر الحج هي شهر شوال وذي القعدة وذي الحجة وقد ابتدع العرب بدعة انساء اشهر الحج أي تأخيرها أو تحريم بعضها وتحليل بعضها فتارة يصبح شهر ذي القعدة مكان شهر ذي الحجـــة وشهر ذي الحجة مكان المحرم والمحرم مكان صفر ، او يصبح شوال مكان ذي القعدة . وقد حارب الاسلام هذه البدعة فقـــال (إنمّا النّسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلّونه عاماً ويحرّمونه عاماً ليواطئوا عدّة ما حرّم الله فيحلوا ما حرّم الله ..) (سورة التوبة آية ٣٦) .

وأجلُّ شعائر الحج : الإحرام وخلع المخيط والوقوف في عرفة في اليوم التاسع من ذي الحجة . وعرفة أرض منبسطة محاطة بجبال يقف فيها الناس يصلّون ويكبرون ويدعون الله سبحانه ويستغفرونه ويخطبهم رئيس الموسم فيعلن ما يريد اعلانه وينسئ اذا اراد النسيء (١) ثم يفيض الناس من عرفات الى المزدلفة ويظلون هناك الى الفجر ثم يفيضون الى منى . وهاتان الافاضتان قد أبقاهما الاسلام . وكان الُحمس يرون لأنفسهم امتيازاً على سائر الحجاج فلا يفيضون من حيث افاض الناس ويكتفون بالوقوف بمزدلفة وقد حرّم الاسلام ذلك وأمرهم بالإفاضة من حيث افاض الناس (سورة البقرة آية ١٩٨ — ١٩٩) . ومن التقاليد الجاهلية التي اقرها الاسلام رمي الجمرات بالحصى في منى بعد الافاضة من عرفات والمشعر الحرام ، والجمرات هي ثلاثة امكنة الجمرة الاولى ، والجمرة الوسطى ، وجمرة العقبة ويجب على الحاج أن يرميها في ثلاثة أيام ففي كل يوم سبع حصي ثم ينصرف من مكة الى منى وسبب ذلك فيما نقلوا ؛ أن أبراهيم (ع) فعله ليرمي الشيطان

---

(١) انظر السيرة لابن هشام ١، ٤٣

الذي جاء ليشوّشه على المناسك . ومن أجل مناسك الحج الطواف حول الكعبة في اوقات متعددة ؛ منها طواف القدوم او التحية – والواجب على كل قادم الى مكة أن يطوف حولها طواف التحية سواء أكان في موسم الحج او غيره ويسمىً طواف غير الموسم (العمرة) – ومنها الطواف قبل الوقوف بعرفة ثم الطواف بعد ذلك وهو دوران الحاج سبعة أشواط حول الكعبة يبدأ كل شوط من ركن الحجر الاسود فيستلم الحجر ثم يطوف بها ، و (الحجر) هو حجر من النوع الصواني اللامع تذكر العرب انه نزل من السماء ، وإذا أتم المرء أداء المناسك المشار اليها تحلل من أحرامه بذبح هدية الى الله تعالى ثم يقصُّ شعره ويلبس المخيط وأقر الاسلام ذلك كله .

ومن تقاليد الحج (الطواف) بين الصفا والمروة وهما هضبتان قريبتان من الكعبة تبتعدان عن بعضهما نحو اربعمائة متر وكان للجاهليين عندها اصنام يقربون لها القرابين عندها ، وقد أبقى الاسلام هذا الطواف وعدّه من شعائر الله . ومن تقاليد الحج (إهداء) البدن والهدي الى الله ومن تقاليده (تحريم الصيد) حالة الاحرام وتحريم القتال في الاشهر الحرم وهي رجب وذو القعدة وذو الحجةوالمحرم والاشهر الثلاثة الاخيرة هي أوقات الحج واما رجب فهو شهر مقدس عندهم واسمه مشتق من الترجيب اي من التقديس وقد كان لهم فيه عيد يحتفلون به وكانت مضر اكثر العرب احتفالا به حتى سمي (رجب مضر) وقد أقر الاسلام هذه التقاليد وحفظ لهذه الاشهر حرمتها .

وأرى قبل ان انتقل من الكلام عن الحج ان أبين بايجاز طقوس الحج الاسلامي ليتبين القارىء هل كانت ثمة فروق بين الحج في الجاهلية والحج في الاسلام ؛ قال المسلمون إن الحج واجب في العمر مرة على كل مسلم او مسلمة حر بالغ صحيح مالك للنصاب وله فروض وواجبات وآداب اما فروضه فهي : الاحرام والوقوف بعرفة وطواف الزيارة ، واما واجباته فالوقوف بمزدلفة والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار وطواف الصدر والحلق ، واما آدابه فما عدا ذلك . وكل من يريد الحج عليه بالاحرام وهو دخول الحرم المكي في الموسم ولبس إزار ورداء طاهرين غير مخيطين وان يتقي الرفث والفسوق والجدال وقتل الصيد والتطيب وقلم الاظفار وقص الشعر ويكثر التلبية واذا دخل مكة كبر وهلل واستقبل الحجر الاسود واستلمه ثم طاف طواف التحية ثم يصعد نحو الصفا ويدعو ربه ثم يسعى نحو المروة فيصعدها

ويدعو بفعل ذلك سبع مرات ثم يسكن بمكة محرماً ثم يطوف بالبيت نفلاً متى شاء وفي ثامن ذي الحجة يخرج الى منى فيمكث الى فجر يوم عرفة ثم يذهب الى عرفة في اليوم التاسع وعند الغروب يأتي المزدلفة فاذا أسفر الصبح أتى منى ورمى جمرة العقبة بسبع حصوات وكبر لكل حصاة ثم حلق شعره وحلّ له كل شيء إلا النساء ثم يطوف طواف الصدر فطواف الزيارة بعد طلوع فجر يوم النحر وبه تحل له النساء . ثم يأتي منى ويرمي الجمرات الثلاث بسبع حصوات بعد زوال ثاني يوم من ايام النحر ثم يأتي مكة فيطوف طواف الوداع . وهكذا ينتهي

فانت ترى ان الاسلام قد ابقى على كثير من التقاليد التي كان العرب يفعلونها قبل الاسلام وذلك مما توارثوه عن ابيهم اسماعيل ، كما انه الغى ما اخترعوه مما لا أصل ديني له .

(٤) **القضاء** : ليست لدينا معلومات وافرة ثابتة عن أحوال القضاء والخصومة لدى العرب في العصر الذي سبق عصر النبي وإنما نستطيع أن نفهم من بعض الاخبار المنشورة في تاريخ الجاهلية القليل المضطرب وشعرها وبعض نصوص القرآن وحكاياته لاحوال القوم قبل عصر الاسلام أن الناس كانوا يتحاكمون في حل مشكلاتهم القضائية والجنائية الى قضاة سمتهم البيئة العربية إلى هذا المنصب لما امتازوا به من علم وعقل وحكمة وحنكة . وقد كان هؤلاء الحكام الحكماء يقضون في القضايا الحقوقية والقضايا الاجتماعية من ميراث ونكاح وديون وديات ودماء وأموال وأنساب ومفاخرات ومناظرات وقد حفظ لنا التاريخ اسماء نفر من قضاتهم وحكمائهم وحكيماتهم امثال اكثم بن صيفي وحاجب بن زرارة ، وخمعة بنت حابس وخصيلة بنت عامر .

(٥) **نظام الطبقات الاجتماعية** : العرب ديمقراطيون لطبيعة البداوة ولكن هذا لم يمنع من وجود نظام طبقي فهناك طبقة الارقاء وطبقة الموالي وطبقة العامة وطبقة الاشراف وطبقة الحمس وطبقة الحكام وطبقة الزعماء – اما الارقاء فهم العبيد والاماء المسبيون او المجلوبون وكانوا يعاملون بقسوة وقد ابقى الاسلام الرق ولكنه دعا الى رحمته وفك رقبته واما الموالي فهم طبقة من العرب المستضعفين الذين التجأوا لبعض القبائل القوية كما اسلفنا واما العامة فهم سواد الامة العربية كالرعاة والعمال والزراع . واما الاشراف فهم الرؤساء والشيوخ والسراة وقد كانت لهم الوجاهة على الطبقة العامة ولهم تمثيلها في النوادي والمجالس ولهم الحقوق والمزايا التي توارثوها كابراً عن

كابر . واما الحمس أو الاحماس فهم رجال كانوا من أشرف القبائل العربية توارثوا عن ابائهم بعض الخصائص الدينية فترفعوا عن الناس في المواسم الدينية في مكة والطائف في الطواف والافاضة والإنساء ، واما طبقة الحكام فهم عقلاء القبائل وحكماؤها وقضاتها يدين الناس بفضلهم وعقلهم ويخضعون لحكوماتهم وآمرائهم ويقدمون إليهم الهدايا والعطايا . واما طبقة الزعماء فهو السادة الأعلون توارثوا زعامة قبائلهم وفرضوا طاعتهم على قبيلتهم وعلى أحلافهم وذاع صيتهم في الجزيرة العربية .

الحالة العقلية :

مقدمة : ان معلوماتنا عن الحركات العقلية في (الجاهلية) هي معلومات ضئيلة لأسباب كثيرة (منها) أنه لم يصلنا اي أثر مكتوب موثوق عن ذلك العصر وعن مدارك اهله في النواحي العقلية أو العلمية الا الشعر وبعض الاقوال والحكم المنثورة التي لا تغني كثيراً في هذا الباب (ومنها) ان كل من كتبوا عنه من المسلمين أو أكثرهم صوروا ذلك العصر صورة قبيحة مغرقة في الجهالة ليبيّنوا فضل الاسلام وعمق أثر الحركة الاسلامية (ومنها) أن دراسات علمية صحيحة تعتمد على علوم الاركولوجيا والانتوغرافيا والفيلولوجيا لم توجد بعد و (منها) طول العهد وامتزاج التاريخ العربي بالاساطير والخرافات مما جعل تمييز الصحيح من المدخول أمراً عسيراً (ومنها) أن كتابات المستشرقين كتابات لم تخل من الغرض – ككتاب المسلمين – ولم يكتب من كتب منهم في هذا الموضوع الا وهو مغرض وعلى راسهم كاتبان وغولدزيبر وماسينيون وديمومبين وغيرهم من اعلام المستشرقين لهذا كله أرى أن القرآن هو خير ما يمكن الاعتماد عليه – الآن – في تبيين الحياة العقلية قبل البعثة النبوية عند العرب قبل الاسلام كما أرى أن نتريث الآن في أحكامنا على تاريخ العرب قبل الاسلام إلى أن توجد الأدلة والبحوث الصحيحة ونكتفي الآن بدراسة القرآن والتنقيب داخل سطوره وتحتها والاستعانة بما نقل إلينا من شعر الجاهلية وشعر صدر الاسلام لانه قوي الارتباط (بالجاهلية) معتمد على ثقافتها قائم بمقوماتها وسيرى القارئ لهذا البحث أن أكثر الصور التي صورها المؤرخون والباحثون (للجاهلية) هي صور مغلوطة خاطئة وان من الجناية على الحقيقة والتاريخ أن نسمي هذا العصر (بالجاهلية) لانه بعيد كل البعد

عن (الجهل) و (الجهالة) .

يذهب بعض الباحثين من المستشرقين مثل البروفسور كولدزيهر في كتابه (العقيدة والشريعة في الاسلام) (١) و (ومثل البرنس كابتاني) في كتابه (سني الاسلام) (٢) إلى أن نمو الاسلام وتكونه متأثران تأثراً عميقاً بالافكار والآراء الهيلينية وأن نظامه التشريعي متأثر بالفقه الروماني ، وان تصوفه وفلسفته ليس إلا تمثلا لتيارات الأفكار الهندية والافلاطونية الحديثة وأن الاسلام قد صهر ذلك كله وأخرج للناس مجموعة أفكار نشرها بين الناس باسم دين جديد . ويغالي كولدزيهر فيقول : إن تبشير النبي العربي ليس إلا مزيجاً منتخباً من معارف وآراء دينية عرفها أو أستقاها بسبب أتصاله بالعناصر اليهودية أو المسيحية وغيرها التي تأثر بها تأثراً عميقاً والتي رآها جديرة بأن توقظ عاطفة دينية حقيقية عند بني وطنه .. لقد تأثر بهذه الافكار تأثراً وصل إلى أعماق نفسه وأدرك بايحاء قوته التأثرات الخارجية فصارت عقيدة أنطوى عليها قلبه كما صار يعتبر هذه التعاليم وحياً إلهياً وأصبح – باخلاص – على يقين بأنه أداة لهذا الوحي (٣) .

ويقول المستشرق الفرنسي البارون كار ادي فو : « يرى المسلمون ان التشريع الاسلامي – الفقه – ذو علاقة قوية بالدين بل هم يذهبون الى أنه جزء منه ، وأن الفقه مأخوذ كله من الوحي – اي القرآن – كسائر أجزاء الدين ولما كان في القرآن شيء من الايجاز فقد عمدوا إلى توضيحه بالآثار – أي بسنة النبي والصحابة والتابعين – هذه هي النظرية الاساسية وبناء عليها ذكر الفقه في الكتب الاسلامية على أنه بعد القرآن والآثار الاسلامية من غير اشارة إلى أصولها الاجنبية قط . وهذه النظرية لا تثبت عند النقد وإذا قرأ أنسان بعض آيات الاحكام ثم قرأ صحيفتين من أصل مبسوطات الفقه رأى الفرق الواضح بين الاثنين ،فذلك نص ساذج عليه مسحة البداوة وهذا تحليل منطقي علمي دقيق عليه آثار الثقافة ، ذاك شبه مسودة جافة بالية قائمة في صحراء،وهذا بحث ممحص معقول متسق مع التطور المدني ، هاتان هما حالتا الاسلام اللتان ينبغي شرحهما فمن أين جاءت قوانين القرآن ، ومن أين جاءت قوانين الفقهاء .. ولست أريد أن أنكر – باديء الرأي – طرافة القرآن ولكني لا ارى مساغاً من الاشارة إلى أن تلك القوانين

---

(١) انظر الترجمة التي نشرتها دار الكاتب المصري ص ٤–٥ .
(٢) هو كتاب طبع روما سنة ١٩٢٣ Annali del Islam
(٣) العقيدة والشريعة في الاسلام ص ٥ – ٦ .

الفقهية متأثرة بالتلمود والقانون المسيحي وقد تكون بقايا العادات العربية القديمة قد وجدت لها منفذاً في بعض الاحوال (١) »

وهناك أقوال لمستشرقين آخرين أمثال ديموين في كتابه (النظم الاسلامية) وكد لبزير في مقاله عن الفقه الاسلامي في دائرة المعارف الاسلامية ، وساتتلانا المستشرق الايطالي في مشروعه للقانون المدني التونسي الذي وضعه سنة ١٨٩٩ ، وفون كرامر في (مباحثه الاسلامية) وواضح من هذه الاقوال أن روح التعصب المقيت السخيف قد أملتها لأن صلات النبي (ص) وصحابته (رض) باليهود والنصارى لم تكن صلات قوية بحيث يتدارس النبي وصحابته مع اليهود والنصارى ويفيدون منهم هذه الفوائد العقلية التي تجلى أمرها في القرآن والحديث والآثار . ثم أن يهود الجزيرة ونصاراها كانوا يهوداً مستعربين أو بداة يعيشون مثل معيشة العرب ويفكرون مثل تفكيرهم ولم يكونوا أرقي منهم مستوى ولا أفضل منهم درجة ، وإذا قرأنا الشعر اليهودي العربي الذي خلفه يهود الجاهلية أو صدر الاسلام نرى أنه شقيق الشعر العربي الذي قاله العرب في أفكاره والفاظه ومعانيه وفي هذا دليل على أن القوم — من عرب ويهود بل ونصارى — كانوا على صعيد فكري واحد وان تمسك اليهود والنصارى بدينهم لم يكن تمسكاً مشيناً ولا معرفتهم بدينهم إلا معرفة ضحلة وإلا ظهر ذلك في اقوالهم وأشعارهم وحكمهم .

هذه مذاهب المستشرقين في تبيين العقلية العربية الاسلامية ولم يفكر واحد منهم بدراسة أوضاع العرب قبل الاسلام والفحص عن حالتهم العقلية ومستواهم الفكري وأنه من المعقول جداً ان يتأثر النبي (ص) وكبار صحابته ببيئتهم العربية قبل ان يتأثر بالبيئات الأجنبية الغريبة عنهم لهذا كله نرى ان من واجب الباحثين ان ينصرفوا الى دراسة عصر ما قبل الاسلام ليبينوا حقيقة ما كان عليه القوم والدرجة الثقافية والعقلية التي كانوا عليها . ان أركان الدين المحمدي هي خمسة : الشهادة بالتوحيد والصلاة والصوم والزكاة والحج .

أما التوحيد فقد عرفه العرب في الجاهلية لاخاصتهم فحسب مثل خالد بن حسان العبسي الحكيم المتأله (٤٠ ق.هـ (٢)) وأكثم بن صيفي الواعظ الراشد (٩ هـ) ..

---

(١) Les penseurs de l'islam III ,270

(٢) الاصابة ١ ، ٤٦٦ .

بل عامتهم وليس هذا بالقول العجيب فأن الحقيقة التي جاء بها أبراهيم وابنه أسماعيل (ع) والنبيّ تقول بتوحيد الله وتصفه بالكمال والجلال والقدرة وغير ذلك من صفات التنزيه ، كانت معروفة بل وشائعة بين العرب ، وإن الاصنام والاوثان والآلهة المتعددة وما اخترعته عقول العرب ما كانت إلا ليقربهم إلى الله زلفى و (لئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن العزيز العليم) سورة الزخرف اية ٩ (و) يعبدون من دون الله مالا يضرهم ومالا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله (سورة يونس آية ١٨) (و) هو الذي يسيركم في البر والبحز حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبه وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين (سورة يونس) آية ٢٢ .

(ولئن سألتهم من خلق السموات والارض وسخر الشمس والقمز ليقولن الله فأنى يؤفكون الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له أن الله بكل شيءٌ عليم ولئن سألتهم من أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون (سورة العنكبوت آية ٦١ ــ ٦٣) فهذه الآيات تدل على أيمانهم بالله القوي الجبار الخالق الضار النافع الخالق الأعظم الرزاق وأن هذه الاصنام والتماثيل وسائط وشفعاء لديه .

واما الصلاة فما هي إلا أدعية وحركات تعبديه مع التوجه إلى الكعبة وقد كانت للعرب قبل الاسلام صلوات ذات طقوس وحركات وادعية كما تدل عليه الآية « وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون (سورة الانفال آية ٣٥) قالوا والمكاء هو التصفير والتصديه هي التصفيق ، وكلمة (الصلاة) في هذه الآية تعني أن العرب كانت لهم في جاهليتهم صلات ذات طقوس دينية معينة . وليس هذا صحيحاً ما يقرره الفقهاء من أن كلمة (الصلاة) كانت تعني في الجاهلية الدعاء وحسب وأنها خصصت في الاسلام فقط لهذا النوع من العبادة ، ثم إن ذكر المكاء والتصديه يفهم منه انه كانت لهم حركات وانغام في صلواتهم وليس هذا غريباً فقد أمر الله أبراهيم واسماعيل (ع) أن يطهرا بيته للطائفين والعاكفين والركع السجود (سورة البقرة آية ١٢٥) وسورة الحج آية ٢٦ (فلعل بعض هذه الطقوس الصلاتية قد بقيت عند عرب الجاهلية بل تكاد تؤكد ذلك لما روي من أن زيد بن عمرو بن نفيل أحد العباد الموحدين الحنفاء في الجاهلية كان (يسجد) أمام الكعبة .

واما الصوم فهو الإمساك عن الطعام والشراب والحديث وقد روينا سابقاً أن العرب في الجاهلية كانوا يصومون في العاشر من المحرم ونضيف هنا ما رواه الامام الخازن في تقريره أن عائشة روت في حديث لها أن قريشاً كانت تصوم في الجاهلية يوم عاشوراء أي اليوم العاشر من المحرم وأنه كان يوم ستر الكعبة وأن النبي (ص) كان يصومه كذلك قبيل بعثه ويروي السيوطي أن أول من صام آدم عليه السلام صام ثلاثة أيام في كل شهر ، وعن ابن أبي حاتم عن الضحاك : أن الصوم الاول صامه نوح فمن دونه حتى صامه النبي محمد (ص) وأصحابه وكان صومهم في كل شهر ثلاثة ايام الى العشاء وهكذا صامه النبي (ص) (١) .

واما الزكاة فهي صدقة وتعطي لبيت المال كما تعطى للفقراء والأيتام وابناء السبيل بشرائط معينة وقد كانت للعرب قبل الإسلام أنواع من الصدقات يعطونها للفقراء أو الحكام قال المجد الفيروز آبادي في القاموس : « مكس في البيع إذا جبى مالا، والمكس الظلم ودراهم كانت تؤخذ من بائعي السلع في الأسواق في الجاهلية . أو دراهم يأخذها المصدق بعد فراغه من الصدقة . »وقال أبن الاثير في النهاية « في شرح قوله (ص) (إذا لقيتم عاشراً فاقتلوه) أي أن وجدتم من يأخذ العشر على ما كان يأخذه اهل الجاهلية مقيماً على دينه » (٢) وأخرج ابن أبي شيبة عن سعد بن زيد انه قال سمعت رسول الله (ص) يقول : [يا معشر العرب أحمدوا الله الذي وضع عنكم العشور] . وقال رسول الله (ص) : [ليس على المسلم عشور إنما على اليهود والنصارى (٣)] وفي هذا دليل على ان العرب في الجاهلية كانوا يدفعون جزءاً من اموالهم للحكام .

واما الحج فقد رأينا مفصلا ما كان عليه في الجاهلية وما أخذه الاسلام واستبقاه من طقوسه . وبعد فاذا كانت هذه حال أركان الاسلام الخمسة تبين ضعف نظرية هؤلاء المستشرقين المغرضين الذين يريدون ان ينسبوا كل شيء جاء به الرسول العربي الى تقليد اليهود والنصارى ومن كان من الامم السالفة ناسين او متناسين انه نشأ في أقليم وتربي في بيئة فيجب ان يظهر أثر اقليمه في تعاليمه كما يجب ان يتجلى طابع

---

(١) الوسائل الى مسامرة الأوائل ص ٣١ .
(٢) النهاية في غريب الحديث ٣، ١١٠ .
(٣) الوسائل للسيوطي ص ٣٠ .

بيئته في طقوس ديانته وليس في هذا ما يضر الدين الجديد ولا يضع من مكانة النبي الكريم فان لله سنناً ونواميس لا تخالف .

بعد هذه المقدمة ننقل الى بيان الحالة العقلية عند العرب قبل الاسلام فنقول : أن أبرز ما تتجلى فيه العقلية العربية هو الامور الآتية :

١ – **الألوهية وما يتعلق بها** : قد بينا مفصلا في المقدمة أنهم كانوا يؤمنون باله قاهر نافع ضار ولكنهم كانوا (يشركون) به فيعبدون آلهة متعددة شاركوا (الله الاعظم) في ألوهيته وربوبيته وقد أختلف العرب في هؤلاء الشركاء فبعضهم جعلهم (الملائكة) وبعضهم جعلهم (الشياطين) وبعضهم جعلهم (الشمس والقمر) وبعضهم جعلهم (الأصنام والتماثيل) وبعضهم جعلهم غير ذلك . وقد جعلوا لهؤلاء (الشركاء) أو (الانداد) أو (الآلهة) ما لله سبحانه من صفات القدرة والربوبية وقد ذكر القرآن الكريم كثيراً من عقائد هؤلاء المشركين وحمل عليهم لهذا الاعتقاد السخيف وانذرهم بسوء العاقبة ومما تجدر الإشارة إليه أن العرب لم يكونوا متساوين في شركهم فقد كان للعقلاء والخاصة اعتقاد يخالف أعتقاد العامة والبدو فالأولون كانوا يعتقدون بأن الله هو المعبود الأعظم وأن شركاء من الاصنام أو المخلوقات الاخرى ليسوا إلا وسائل ووسائط بينهم وبينه وأن هؤلاء الشركاء ليسوا إلا أولياء او شفعاء يشفعون له عنده ولاشك عندنا في أن لأهل الكتاب من اليهود والنصارى والبقايا الحنيفية تأثيراً في ايجاد هذه العقيدة أو بعضها . أما العامة من سكان البادية الحواضر فقد انحطت قواهم العقلية إلى درجة أعتقدوا معها أن هذه الأصنام والتماثيل والمعبودات الاخرى من روحية ومادية هي التي تضر وتنفع وهي التي تمنع الشر وتمنح الخير وهي التي تحيي وتميت . ومن أشهر هذه الاصنام (عم أنسى) وكان لبني خولان (وسعد)لبني ملكان و (والعزّى) لقريش وكنانة و (اللات) لثقيف بالطائف و (مناة) بيثرب للأوس والخزرج و (ذو الخلعة) لدوس وخثعم وبجيلة و (الفلس) لطي و (ذوالكعبات) لبكر بن وائل و (أساف ونائلة) لقريش في الكعبة و (هبل) وهو أعظم أصنام الكعبة لقريش جميعها .. وهناك أصنام أخرى غير هذه عدّدها ابن الكلبي (١) وقال إن أجل الاصنام مكانة عندهم (منات واللات والعزى) أما منات فكانت منصوبة على ساحل البحر من ناحية المشلّل بقديد بين المدينة

(١) الاصنام لابن الكلبي والسيرة لابن هشام ١، ٧٥ – ٨٠ .

ومكة ، ويليها المكانة (اللات) فكانت صخرة مربعة في الطائف ثم (العزى) وهو أحدث الثلاثة وهي شجرة بوادي نخلة على بعد تسعة أميال من مكة وكانت أعظم أصنام قريش ينذرون لها ويذبحون عندها (١) ، وهناك رواية تقول : إن هذه الاصنام الثلاثة كانت منصوبة في فناء الكعبة (٢) ، وكانوا يستفتحون عندها ويستقسمون بالأقداح لديها لحل مشاكلهم أو الاستخارة وما إلى ذلك ويظهر أن أكثر أصنام الكعبة حظوة في الاستخارة هو (هبل) (٣) ويظهر أن العرب أخذوا — من أواسط القرن الخامس للميلاد حينما قوي أتصالهم بأهل الكتاب — يتحسسون بحطة الوثنية المادية التي كانوا عليها ويحاولون السمو بأفكارهم إلى تنزيه الاله الاعظم ، وقد كان (لليهود) والنصارى وحنفاء العرب أثر فعلي في ايجاد هذه الروح ويفهم من تتبع آي القرآن وبعض الآحاديث النبوية والروايات والاخبار الجاهلية أن مجادلات ومناقشات كانت تقوم بين العرب وأهل الكتاب وأن شيئاً من التبجح والخيلاء كان يبدو من أهل الكتاب وبخاصة اليهود — على العرب وقد أثارت هذه الأمور غيرة العرب وعزتهم وأذلت فيهم روح الحماسة الدينية وجعلتهم يتطلعون إلى رسالة من السماء ترفع من قدرهم وتعلمهم الكتاب « ربنّا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم أنك أنت العزيز الحكيم (سورة البقرة آية ١٢٩) » وقد كان اليهود يخبرون العرب بقرب بعثة نبيّ منهم ويقولون لهم إنه سيكون منهم نبيٌ ولكنهم أخذتهم العزة حينما جاءهم على يد محمد « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين» ، وصفوة القول أن العرب في جاهليتهم كانوا على مستوى عقلي رفيع وبرهان ذلك ما رأيناه في نظرتهم الى الألوهية وما سنراه في لغتهم الرفيعة وحكمتهم الموروثة ، وأشعارهم المتناقلة وأمثالهم المتداولة

٢ — **تفوقهم اللغوي**: أن من يدرس اللغة العربية بنحوها وصرفها واشتقاقها وعروضها وفنونها البلاغية يرى أن القوم قد بلغوا درجة رفيعة في الرقي العقلي والمستوى اللغوي .

اللغة العربية هي أحدى اللغات المعروفة باللغات السامية وهي الآشورية والبابلية والكنعانية والفينيقية والسريانية والآرامية والعبرية والحميرية والحبشية — وعلى الرغم من كون هذه اللغات توالدت من أم واحدة في عصور متباعدة — أقدمها الاشورية

(١) الاصنام لابن الكلبي ١٣، ٢٨
(٢) راجع الطبري والخازن في تفسير سورة (النجم) .
(٣) الأصنام لأبن الكلبي ص ٢٨ .

والبابلية التي ترجع إلى الألف الثالث قبل الميلاد ، وأحدثها العربية التي ترجع الى ما قبل القرن الثالث بعد الميلاد فانها تختلف أختلافاً كبيراً فيما بينها ، كما أنها تختلف فصاحة ورقاً ، ويظهر أن أرقى اللغات السامية وافصحها وأوسعها هي اللغة العزبية ، وان أقدم النصوص العربية الفصيحة التي عثر عليها ترجع الى الفترة التي تمتد من القرن الثالث بعد الميلاد إلى القرن الخامس وهذه النصوص هي الشعز الجاهلي والحكم الجاهلية ولكن من يدقق في هذه النصوص يجدها كاملة مهذبة ذات نمو متسق وصرف منظم وقواعد عروضية وشعرية راقية ، ولاشك في أن اللغة العربية قد مرت بأطوار بعيدة العهد تطورت فيها وتدرجت إلى هذا الكمال الذي وجدناه في الشعر الجاهلي ثم في القرآن ومما يؤيد هذا أن المستندات الكتابية الحجرية التي عثر عليها الاستاذ ليتمان Littmann — في جبل الصفا بحوران — والبرفسور وتسيتين Wetzstein قنصل ألمانيا في أواسط القرن الماضي بالشام (١) وهي نصوص تتعلق بتاريخ تلك البقعة وسكانها وأنسابهم وقبائلهم وعقائدهم وهي مكتوبة بلغة عربية قريبة جداً من الفصحى ومسطرة بحروف الخط الصفوي المشتق من الخط السبئي في القرن الثاني والثالث بعد الميلاد ، والذين كتبوا هم قوم من القبائل العزبية من أخوان الغساسنة وأكثرها يتعلق بأنسابهم واعمالهم المجيدة وحياتهم وطريق رعيهم للأبل والماشية ، وحزوبهم مع الرومان والفرس كما أنها تضمنت كثيراً من عقائدهم الدينية وآرائهم في الآلهة والملائكة والجن وما إلى ذلك . ولغة هذه النصوص عربية تشبه لغة الشعر الجاهلي مع وجود بعض الاختلافات النحوية التي تجمع بينها وبين اللغات السامية الاخرى (٢) ويظهر أن هذه النصوص هي صورة لما كانت عليه اللغة العربية في

---

(١) يقول زيدان في تاريخ العرب قبل الاسلام ١، ٢٢٠ : « حوران واقعة شرقي الشام تنتهي في الشرق بجبال حورانووراءها نحو الشرق بقعة وعرة يسمونها (الحراء) ووراءها نحو الشرق الشمالي جبل بركاني الشكل يقال له جبل الصفا وفيه وجد الرواد الآ ثار التي يسمونها الصفوية وسموا(خطها) القلم الصفوي وأول من عثر على تلك الآ ثار كريلوس غراهم سنة ١٨٥٧؛ فنبه الأذهان اليها . وفي السنة التالية خرج وتستين قنصل بروسيا في دمشق لارتياد حوران وما جاورها وكتب رحلته سنة ١٨٦٠ وفيها نحو (٢٦٠) شكلا من النقوش الصفوية التي وقف عليها هناك . وبعد سنتين فرغ (وذنتون) و (قوجيه) من رحلتهما الى سوريا وكانت خاتمتها وصول (قوجيه) الى الصفا ونشر فى تلك الرحلة نحو (٤٠٠) نقش .. وآخر من عني بارتياد ذلك المكان رينه روسو فجمع سنة ١٨٩٩ نحو (٤١٢) نقشاً وجمع مع مكلير سنة ١٩٠١ نحو (٩٠٠) نقش وفعل نحو ذلك ليتمان استاذ اللغات السامية في ستراسبورغ فبلغ عدد النقوش التي جمعها الى سنة ١٩٠٥ (٧٥٠) نقشاً .

(٢) محاضرات غير مطبوعة للاستاذ البروفسور شاخت ألقاها في الجامعة المصرية ٩٣٤ — ٩٣٥ .

هذه العصور وأنها ما زالت تتطور وترقي حتى بلغت تمامها في الشعر الجاهلي أيام أمرئ القيس ومن بعده . وهذا طبيعي فان اللغة كسائر الكائنات الحية تمر بأدوار كثيرة ويدخلها كثير من أحوال الحياة من نشوء ، ونمو وارتقاء وتفرُّع وأنقسام ، وإن أرقى عصور اللغة العربية كان في القرن السادس وفي الحجاز فقد ارتقت فيه اللغة وزادت المفردات وأتسعت اخيلتها ودخلها كثير من الألفاظ الاجنبية مما اقتضته الحضارة العالمية والتقدم ونظام النشوء على النمط الذي نراه في شعر المعلقات وغيرها من عيون الشعر الجاهلي الاسلامي . ولما ظهر الاسلام أتسعت اللغة العربية لتعاليمه وسعة مصطلحاته ومعانيه . وقد كانت هذه اللغة متحضرة في جزيرة العزب وجزيرة سينا وديار الشام وبادية الجزيزة وما بين النهرين وقد كان لسكان هذه الديار الواسعة لهجات ولُهيجات تختلف قرباً وبعداً عن اللغة الام الفصيحة فلهجات أواسط الجزيرة كانت أفصح اللهجات لبعدها عن الاعاجم من فرس وأحباش وروم وقبط ونبط ، ويليها في الفصاحة لهجات عزب مشارف الشام قال الاستاذ جرجي زيدان : « أكثر سكان أواسط جزيرة العرب من قبائل مضر وكانت أعظمها يومئذ (تميم) في شرقي نجد وشمالها ، و (غطفان) عبس وذبيان و (سليم) وغيرها في نجد وأرقاها قريش في مكة وكان من القبائل القحطانية هناك — طي — في نجد — ومذحج — في أطراف الحجاز واكثر سكانها في الشمال من — ربيعة — وفيهم (بكر) و (تغلب) في بادية العراق في الجزيزة فلغات هذه القبائل كانت تختلف بعضها عن بعض باختلاف أحوالها ومساكنها وكان الاختلاف على معظمه بين لغات اليمن ولغات الحجاز ونجد أي بين جنوب الجزيرة وشمالها ، وأحسن مثال للغات الجنوبية ما خلفه الحميريون من الآثار بالحرف المسند وأحسن مثال للغة الحجاز لغة القرآن وشعر الجاهلية ، والفرق بين اللغتين كبير (١) » . ولاشك في أن الرقي اللغوي دليل على الرقي العقلي ونحن إذا دققنا لغة الشعر الجاهلي نجدها لغة ممتازة في نحوها وصرفها وأفكارها ودقة تعبيرها

٣ — **مستواهم العلمي والأدبي** : النظرية الشائعة لدى أكثر من كتب عن عزب الجاهلية هي وصفهم بالأمية وجهلهم الكتابة والقراءة (٢) وانحطاطهم العلمي وقلة بضاعتهم في المعزفة لأنهم كانوا بداة جفاة أميين يعيشون في الصحراء ، لا حضارة

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ١ ، ٢٤ .

(٢) كتب كثير من المؤرخين القدامى إن الاسلام جاء ولم يكن في مكة إلا سبعة عشر كاتباً وان اليمن لم يكن فيها كاتب واحد، وقال مثل هذا القول استاذنا المرحوم محمد كرد علي في كتابه الإسلام والحضارة العربية ١ ، ١٢٤ .

ولا مدنية عندهم وغاية ما أمتازوا به هو إجادتهم في القول من شعر وخطابة ، وبراعتهم في رصف الجمل المتناسقة ، والاسجاع الموفقة ، وهذا الوصف على الرغم من تناقضه وتهافته لا يستند على حقيقة ولا يقوم أمام المناقشة فلا يعقل أن يكونوا فصحاء شعراء إذا لم يكونوا مثقفين كتاباً ذوي مستوي علمي حسن وتفكير منطقي معقول وذوق فني راق أما أميتهم فوصف خاطئ لا ينطبق على الحقيقة وتنقضه نصوص موثوقة قديمه وأدلة علمية حديثة أما النصوص العلمية القديمة فأجلها ما في القرآن الكريم من آيات كثيرة تذكر الكتاب والكتابة وأدوات الكتابة والصحف والسجل والمداد والاقلام وما اليها مما يتعلق بالخط حتى أن الاستاذ العلامة محمد عزة دروزه قد أحصى كلمات الكتابة ومشتقاتها في القرآن الكريم فوجدها أكثر من ثلاثمائة كلمة كما أحصى كلمات القراءة ومشتقاتها فوجدها نحو تسعين مرة ونيف بأساليب متنوعة وقد علق الاستاذ العلامة على هذا بقوله « فورود هذه الآيات الكثيرة في القرآن تحتوي أسماء ووسائل وأدوات القراءة والكتابة وتحتفي بالقرآءة والكتابة هذه الحفاوة الكبيرة دليل واهن على أن العرب في بيئة النبي (ص) وعصره قد عزفوا تلك الوسائل والأدوات راستعملوها ، وعلى أن القراءة والكتابة فيهم كانتا منتشرتين في نطاق غير ضيق فكثرة الترديد تدل على الألفة وهذه لا تكون إلا حيث يكون المألوف ذائعاً ذيوعاً غير يسير ، واذا لاحظنا أن أولى آيات القرآن هي .. (إقرأ بأسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق أقرأ وربك الاكزم الذي علم بالقلم .) باسلوب يدل على حفاوة عظيمة ، وأن ثانية أيات نزلت بعدها على ما عليه كثير من الرواة هي آيات سورة القلم الاولى التي أقسم الله فيها بالقلم والكتابة (ن والقلم وما يسطرون)مما يدل كذلك على حفاوة بالغة ازداد قولنا قوة وتأييداً (١) فهذا يدلك على كثرة الكتاب بين الناس في صدر الاسلام وان الأمر لم يكن كما ذهب اليه المؤرخون القدامى من ان كتاب مكة يوم جاء الاسلام لم يتجاوزها السبعة عشر . وأما الادلة العلمية الحديثة فقد بحثها المستشرق المؤرخ الايطالي البرنس كايثاني في الفصل الذي كتبة نشأة الخط العربي وأثبت فيه بالأدلة المادية والاكتشافات النقشية والوثائق الخطية وبخاصة في الشام والجزيرة أن الخط العربي قديم الوضع وأن الكتابة كانت رائجه في الجزيرة ومشارف الشام قبل البعثة النبوية بكثير (٢) ثم إن وجود الكتابيين بكثرة في الحجاز

---

(١) عصر النبي ص ٢٦٩ .

(٢) انظر كتابه Annali del Islam I, 294

واليمن ومشارف الشام من يهود ونصارى وصلتهم القديمة بالعزب بجعل العرب من متهودين ومتنصرين يفيدون من أخوانهم وجيرانهم فيتعلمون الكتابة والقراءة حتى الكتابة غير العربية من عبرانية وسريانية ورومية وقد أمر النبي (ص) كاتبه زيد بن ثابت (رض) بتعليم العبرية، كما روى البخاري في صحيحه في كتاب بدء الوحي أن ورقة بن نوفل كان قد تنصر في الجاهلية وكان يكتب العبرانية . ويظهر أن الكتاتيب كانت معروفة في الجاهلية في البدو كما كانت معروفة في الحضر ، فالمؤرخون يذكرون ان يوسف الثقفي أبا الحجاج كان معلم كتاب في الطائف (١) ونقل السيد الكتاني عن الماوردي في أدب الدنيا والدين نقلا عن أبن قتيبة « أن العرب كانت تعظم قدر الخط وتعده أجل نافع حتى قال عكرمة بلغ قراء أهل مكة أربعة آلاف حتى أن الرجل ليغاوي على أنه يعلم الخط لما هو مستقر في نفوسهم عن عظم خطره وظهور نفعه وأثره قال الله لنبيه (إقرأ باسم ربك الأكرم الذي علم بالقلم) فوصف نفسه بأنه علم بالقلم كما وصف نفسه بالكرم عد ذلك من نعمه العظام ومن آياته الجسام حتى أقسم به في كتابه فقال (ن والقلم) فأقسم بالقلم وما يخط بالقلم .. هذا يبطل ما قاله أبن خلدون من جهلهم بالخط فان عكرمة كان يتكلم عن مشاهدة وابن خلدون قال ما قال عن تخمين (٢) ويشير السيد الكتاني بهذا إلى ما قاله ابن خلدون من أن الخط والكتابة من عداد الصنائع الانسانية وان العرب كانوا بعيدين عنها لأنهم كانوا بداة بعيدين عن الحضارة غير مجيدين لها شأن الصنائع إذا وقعت بالبدو فلا تكون محكمة المذاهب ولا مائلة إلى الاتقان والتنميق (٣) الى آخر ذلك الكلام الطويل المبني على التخمين والزعم البعيد عن التحقيق العلمي الصحيح . هذا وقد كان للنبي كتاب بلغ عددهم ما ينيف على الأربعين (٤) وكان أكثرهم من الشبان المكيين والمدنيين ولاشك في أنهم قد تعلموا الخط والقراءة وما إليها في بعض كتاتيب البلدين ، والكتاتيب كانت معروفة في بلاد الشام ومصر والعزاق قبل الاسلام فلا غرابة إذا نقل القريشيون ذلك عنهم في رحلاتهم التجارية كما أن الجوالي النصرانية واليهود في الجزيرة قد كانت تعلم أبناءها في مدارسها وكنائسها وليس بعيداً أن يكون جيرانهم العرب قد أفادوا

(١) سيرة ابن هشام ٢، ٢٧–٢٨ .
(٢) التراتيب الادارية ١، ٤٩ .
(٣) المقدمة ص ٤٩٤ .
(٤) التراتيب الادارية ص ١١٤، ١٢٤ .

ذلك منهم .

أما ما كان يعلم للأطفال في الكتاتيب فليست لنا به أية معرفة جازمة به ولم ترمز آثار إليه ولكن بالقياس على ما كانت عليه الكتاتيب في العصر الاسلامي نذهب إلى أنهم كانوا يتعلمون مع القراءة والكتابة شيئاً من مبادئ الحساب ورواية الشعر القديم والحكم المأثورة وأخبار الماضين وقصصهم وأنساب العرب الاقدمين واحوالهم (١)

بعد أن بينا أن الكتابة والقراءة كانتا منتشرتين أنتشاراً ملموساً في الجاهلية في الحواضر وأن بعض أهل البادية كانوا قد ألموا بها بعض الالمام وأن العرب كانت لهم في جاهليتهم كتاتيب يعلمون فيها أبناءهم تنتقل إلى بيان علوم العرب وثقافتهم فنقول إنها كانت :

معرفة أخبار الماضين وأنسابهم من العرب والأعجميين : ففي القرآن والشعر الجاهلي وكتب الأخبار كثير من النصوص التي تعرفنا شيئاً عن معرفة أهل الجاهلية بأخبار الامم الماضية وبخاصة أخبار عرب الجزيرة من ملوك اليمن وحضرموت ومدائن صالح وشبه جزيرة سينا والاحقاف وعرب العراق والشام وقصص الانبياء والزسل وتواريخ الامم والشعوب وقد قص القرآن من هذه المعلومات وفصل في اخبارها واحوالها وحضاراتها وغيرها ، والقصص القرآني التاريخي رائع بأسلوبه دال على سمو منزلة القصة عند العرب ، وقد أحتوت كتب السيرة الشريفة والحديث النبوي والتفاسير كثيراً من الزوايات والقصص التفصيلية التي أجملها القرآن او أشار إليها أشارات خفيفة على الرغم من أن بعضها قد وضع بعد الاسلام إلا من الكثرة الكاثرة التي تشتمل عليها هذه الكتب لتدل على أن العرب كانوا ملمين بهذه الاخبار مطلعين على أحوالها وامورها . وفي القرآن إشارات إلى معرفة العرب قبل الاسلام بهذه الاخبار ففي سورة هود آية (٤٩) جاء ما يلي بعد ان سرد أخبار قصة نوح « .. تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا » وفي سورة يوسف آية (١٠٢) (ذلك من أنباء الغيب نوحيها اليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمزهم) . وقال أبن هشام في السيرة : أن النضر بن الحارث كان ذهب إلى فارس وتعلم قصص اسفنديار ورستم ثم رجع إلى الحجاز وأخذ يقصها على الناس(٢)

(١) راجع تفصيل ذلك في كتابنا عن (تاريخ التربية والتعليم عند المسلمين) المطبوع في بيروت بدار العلم للملايين سنة ١٩٥٦ .

(٢) روي ابن هشام ١ – ٣٢٣ ان النضر كان يقول في الرد على محمد (واللها حديثه احسن حديثاً مني وما حديثه إلا أساطير الأولين أكتبها كما أكتبها) .

ويظهر أن العرب كانوا قد دونوا بعض هذه الاخبار والتواريخ القديمة ومن عبارة القرآن (أساطير الأولين اكتبها) و (تلك أساطير الاولين) (١) يفهم ذلك ، وقال أبن هشام أن سويد بن صامت لقي النبي (ص) في موسم فدعاه إلى الاسلام فأجابه لعلك تدعو إلى ما في هذه المجلة ثم اخرج (مجلة لقمان) وعرضها عليه (٢) » ومما يتعلق بهذا الباب من العلم أخبار العزب وحروبهم وأيامهم وفرسانهم وأسماؤهم ومن أشهر قصصهم المتوارثة قصص مأرب وسيرة أصحاب الاخدود ، وقصة الفيل ، وقصة ذي يزن الحميري ، وقصة عمرو بن لحي صاحب عبادة الاصنام في الجزيرة وقصص عاد وثمود ، وبلقيس وما إليها . ومما يتعلق بهذا الباب أيضاً أخبار أنساب العرب وقد كان للناس بها عناية شديدة ، منذ أقدم العصور للتناصر والتفاخر ، وكثر النسابون في الجاهلية ، ولم تخل قبيلة أو بطن ، أو فخذ ، او فصيلة من عالم أو نسابة ، ومن أشهز علماء النسب عميرة أبو ضمضم ، وابن لسان الحمزة ، التميمي وزيد بن الكيس النمري ، والتمار بن اوس القضاعي . وصعصعة بن صوحان وعبد الله بن الحجر ، وأبو بكز الصديق وعمز بن الخطاب (٣)

معلومات جغرافية :

كان للعزب في جاهليتهم رحلات واسفار برية وبحرية يقوم بها الحجازيون واليمانيون وقد كانت رحلاتهم البرية تبدأ من اليمن الى الشمال فمشارف الشام ووادي الكنانة وديار الزافدين ، ولا غزو في أنهم كانوا يعزفون دروب هذه البلاد وطرقانها كما كانوا يعرفون المعلومات الضرورية عن أحوال البلاد التي يزورونها ويدل سفر المسلمين حين ضاق عليهم الامز في مكة في أول الدعوة الاسلامية على أن الصلات كانت طيبة بين الجزيزة العزبية وبلاد الحبشة النصرانية وان هناك روابط تجارية كانت تربط بين البلدين . ثم أن هذه الرحلات البحرية تقضي بأن يكون أصحابها عارفين بأحوال البحر مطلعين على أمور الملاحة فاهمين لاحوال الجو والزياح والانواء .

(١) انظر سورتي (الطور) و (القلم) .
(٢) السيرة النبوية ٢ — ٢٧ .
(٣) البيان والتبيين ١ — ١٠٨ .

معلومات فلكية وطبيعية :

ذكر الاقدمون من المؤرخين أن العرب كانوا ذوي معرفة بأحوال النجوم ومنازل الشمس والقمر والافلاك وحركاتها والاهتداء بها في البر والبحر والاسفار الليلية والنهارية ، كما ذكروا أنهم كانوا ملمين بالأحوال الجوية ومهاب الرياح وكانوا ينسبون ذلك إلى طلوع بعض الكواكب وغزوبها ويسمون هذا (علم الانواء) وكانوا يعتقدون أن الأنواء أو النجوم التي تسبب الأمطار والرياح والحر والبرد هي (٢٨) نجماً ولكل واحد اسم في الشعز الجاهلي والامثال والخزافات المتوارثة عن الجاهلية شيء كثير عن معلوماتهم بأحوال الجو والفلك والفصول . ولا ريب في أن كثيراً من معلوماتهم الفلكية والجوية قد استفادوه من الاقوام الذين رحلوا إليهم من كلدان وصابئة وقد أخذ العرب اسماء النجوم والشمس والقمر واصطلاحاتها ومنازلها من الكلدانيين (١) وفي القرآن الكريم كثير من الآيات التي تدل على هذا العلم .

الطب والبيطرة والصيدلة : كانت للعرب معارف طبية توارثوها عن اسلافهم او اقتبسوها من جيرانهم وبخاصة الكلدان ، أو اهتدوا اليها بتجاربهم ، والطب العربي ذو شقين ، شق يعتمد على العقاقير والأشربة والمداواة المادية من حجامة وفصد أوكي وقطع وبتر وجراحة ، والشق الآخر يعتمد على الرقى والعزائم والتمائم ومن اشهر اطبائهم لقمان الحكيم وقصصه وأخباره أقرب الى الخرافة منها الى الحقيقة حتى أدرك زمن النبي (ص) فكان يوصي من مرض ان يستوصفه . ومن الجراحين المشهورين ابن ابي رومية التميمي . واما البيطرة والبيزره فقد برعوا فيها ونبغ فيها جماعة من اطباء الحيوان والطير امثال العاص بن وائل . وكذلك علم الصيدلة وهو من متعلقات الطب ، وقد تفننوا في معرفة العقار العزبي . كما عرفوا الحشائش التي تنبت في بلادهم وفوائد كل حشيشة مع الخصائص لكل نبات وفي كتب الطب القديم والحيوان والأدب أخبار منثورة كثيرة عن معرفة العرب بالعقاقير والنبات والمفردات الطبية واجمع كتاب فيها (مفردات) ابن البيطار الاندلسي المغربي .

علوم الادب : من نثر وشعر وقصص وأمثال وخطب وغير ذلك مما كانوا يلقونه في المجامع والاسواق والمسامرات من الاخبار والاشعار وقد تفنن العزب في هذا

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١-١٤ ، ١٣٥ ، ١٩٤ .

كثيراً وليس هاهنا مجال القول فيه .

الكهانة والسحر والعرافة : فالكهانة هي البحث في امور المستقبل والتنبؤ ، والعزافة ادعاء علم الماضي وكشفه ، والسحر هو تخييل الأشياء على غير حقيقتها والتظاهر بخلق الخوارق ، اما الكهانة والعرافة فقد كانتا فاشيتين في البيئة العربية منذ زمن سحيق ، وقدكان العزب ينظرون الى الكاهن والعارفة نظرات تقديز واحترام . زائدين وكانوا يفزعون اليهما لحل مشاكلها الروحية والنفسانية ولتعبير الروئى ، وكان للكهان والكواهن سجع يرددونه في جلساتهم فبعضه حلو مقبول وبعضه سخيف مرذول يوهمون به الناس حين يدسون فيه بعض الكلمات الغريبة والالفاظ الواسعة المعنى (١) . وكان الكاهن والعارفة العربي يقابل الحبر اليهودي والراهب النصراني ومن أقدمهم (شق) وسطيع وخنافز بن التوأم الحميري وسواد بن قارب .

واما السحز فكان أمره اقل فشواً من الكهانة وكان العرب يزعمون أن بين السحرة والشياطين صلات روحية وان الساحز قادر على أشياء خارقة ، وكان بعض اليهود في الحجاز يتعاطى هذه المهنة ويقوم بعقد العقد والنفث عليها وتلاوة بعض الكلمات السرية أو الغزيبة المعاني .

القيافة والفراسة والريافة : فالقيافة هي تتبع الاثار والاستدال منها على الاعيان وهي نوعان قيافة الأثر وقيافة البشر. وقيافة الاثر هي آثار الاقدام والحوافروالأخفاف للاستدلال عليها،وقيافة البشر هي الاستدلال بهيئات اعضاء الشخص على المشاركة والاتحاد بينهما في النسب ، والفراسة هي الاستدلال بهيئة الشخص وأشكاله وأقواله وحركاته وأعضائه على اخلاقه ومناقبة ولاشك في أن الذكاء الفطرى والسياحة تلعبان دوراً كبيراً في هذه المعرفة ، واما الريافة فهي الاستدلال من تراب الأرض وأعشابها على المياه الجوانية وامكنتها فيها .

معرفة اللغات الأجنبية : كانت بعض اللغات الاجنبية من كلدانية وسريانية وعبرانية ورومية وحبشية وفارسية معروفة لدى العرب في عصر النبي وقداوصى صحابته بتعلمها للترجمة والكتابة بها الى اصحابها . ويظهر أن هذه اللغات كانت منتشرة بين النصارى واليهود والصابئة المقيمين بين ظهراني العرب او عند العرب الذين اعتنقوا تلك الديانات

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١ ، ١٤ ، ١٣٥ ، ١٩٤

لأن كتبهم الدينية كانت غير مترجمة الى العربية (١) . ثم أن الرحلات الى فارس والحبشة والشام وبلاد آشور دفعت العرب الى تعلم هذه اللغات للتفاهم مع اهلها وقد ظهر اثر هذه اللغات من أشورية وآرامية وحبشية وقبطية وفارسية ورومية في بعض مفردات الشعر الجاهلي والحديث النبوي والقرآن الكريم .

(١) عصر النبي لد ، و ، ٥ ، ص ٢٧٦

الباب الثاني

في المبعث النبوي

●

الفصل الاول : في البيئة النبوية ومولده وطفولته صلى الله عليه وسلم

كان عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف (١٢٧ ق.م) من أشرف بني قومه واجلهم قدراً وكانت اليه السقاية والرفادة وهي اعظم وظائف الحرم المكي مكانة وما زالت مكانته تنبل في قومه وفي العرب اجمعين حتى لم يعدل به أحد منهم (١) وهو الذي كشف عن بئر زمزم ، بئر اسماعيل ، واستخرج ما كان مدفوناً فيها ، وهي غزلان من ذهب كانت قد دفنتها حين أخرجت من مكة ، وأسياف قلعية نفيسة . وأدراع ثمينة القيمة ، فجعل من الأسياف باباً للكعبة . وجعل الغزالين صفائح ذهبية كسى بها باب الكعبة (١) وهو الذي خذل الله على يديه ابرهة الاشرم . ودمر اصحاب الفيل فازداد قدره لدى العرب اجمعين وكان عبد المطلب مثل أبيه جواداً كريماً فقديماً سمي العرب اباه هاشماً لهشمه الثريد لهم واطعامهم اياه في سنوات القحط ولم يكن عبد المطلب اقل من ابيه سماحة يد ورجاحة عقل ، وشرف نفس وعلو مكانة .

كانت قريش بيضة فتفلقت   فالمح خالصة لعبد مناف

وكان لعبد المطلب عشرة بنين وعشرة بنات هم العباس . وحمزة ، وعبدالله ، وابوطالب ، والزبير ، والحارث وحجل ، والمقوم وضرار وعبد العزى وابو لهب (٢ ﻫ) وحنيفة ، وام حكيم البيضاء وعاتكة ، وامية ،ووبرة. وكلهم نبيل وجيه لم يوئثر عنه ما يشينه ولا ما يحط قدره حتى ابو لهب الذي كان يكره محمداً فقد كان من الاشراف الشجعان والكرماء الباذلين والاقوياء المعتزين بمكانتهم ونبلهم ولذلك

---

(١) تاريخ الطبري ٢ ، ١٧٩

عز عليه ان يغير دينه ويتبع دين ابن اخيه فعارضه الى ان قتل بعد وقعة بدر بأيام . ولابد لنا من وقفة امام أعمام النبي الاخرين لنبين مكانتهم وشرف نفوسهم والبيئة الطيبة التي كانوا فيها فالعباس(٥١ ق.م ـ ٣٢هـ) وصفه النبي بقوله اجود قريش كفاً وأوصلها رحماً ، هذا بقية آبائي « وكان من الاجواد المحسنين سديد الرأي ، واسع العقل مغري باعتاق العبيد كارهاً للرق اشترى ثمانين عبداً ورقيقة فاعتقهم ، وهو الذي تولى سقاية الحجاج ورفادة البيت بعد أبيه كما أنه كان يتولى عمارة البيت ـ وهي ان لا يدع احداً يسب آخر في المسجد الحرام أو يقول هجراً ـ أسلم في السنوات الاولى من الدعوة وكتم اسلامه واقام بمكة يكتب للنبي أخبار المشركين .

وحمزة (٥٤ ق.م-٣ هـ) هو صنديد قريش وسيدها الجواد القوي النبيل،ولما ظهر الاسلام تردد في الدخول فيه ثم علم ان ابا جهل بن هشام قد اخذ يتعرض للنبي وينال منه فقصده وضربه واعلن اسلامه فقالت الناس . اليوم عز محمد وان حمزه سيمنعه وكفوا عن الاساءة للمسلمين .

وابو طالب ـ واسمه عبد مناف ـ (٣ ق . م هـ) وكان من أبطال قريش ورؤسائهم وخطبائهم وفصحائهم وعقلائهم وابائهم وكان يعيش من التجارة وهو الذي ربيّ النبي وحماه له اياد بيض على الاسلام .

والزبير . كان أكبر اعمامه وكان وجيهاً نبيلا فصيحاً رووا أنه كان يرقص النبي في طفولته ومما كان يقوله له :

محمد بن عيدم عشت بعيش النعم في دولة ومغنم دام سجيس الازم (١)

والحارث كان اول ولد ولد لعبد المطلب ولكنه هلك صغيراً .

وحجل . وكان يسمى المغيرة وقيل مصعب ويلقب بالغيداق لكثرة خيره وسعة ماله وكان اجود قريش واكثرها طعاماً ومالا .

المقوم . وكان من وجوههم وعقلائهم وفصحائهم .

ضرار . وكان فتى قريش واكثرها نبلا وكرماً . ولم يسلم من اعمامه سوى الحمزة والعباس (٢) واما بنات عبد المطلب فكن عفيفات شريفات فاضلات شاعرات

---

(١) الروض الانف ١ ، ٧٨

(٢) انظر اخبارهم في الروض ١ ، ٧٨ والمواهب اللدنية للقسطلاني ١ ، ٢٧٤ والسيرة الحلبية

شجاعات (١) اسلمت منهن صفية ام الزبير وشهدت وقعة الخندق وقتلت رجلا من اليهود وضرب لها النبي بسهم (٢) .

هؤلاء هم ابناء عبد المطلب وبناته ولم يكن فيهم الا الجواد الشجاع الفاضل . واما عبد الله ابو النبي فكان من انجب اولاده واحبهم اليه لعقله وادبه . والرواة يذكرون ان عبد المطلب لما رأى ضيق اهل مكة بقلة الماء اخذ يفتش عن موضع زمزم الذي طمره عمرو بن الحارث الجرهمي لما اضطر الى مغادرة مكة فاراً الى اليمن فلما بلغ يسر الله على يديه الكشف عن موضع زمزم وحفرها واستخرج كنوز الكعبة

نذر لئن جاءه عشرة بنين فليذبحن احدهم لله قرباناً حتى اذا تكامل بنوه عشراً اتي هبل في جوف الكعبة ومعه اولاده ثم اعطى كل واحد قدحاً – وهو سهم بلانصل – وكتب كل اسمه على سهمه ثم اخذ عبد المطلب القداح وأعطاها الى قيم الكعبة ليضرب بها عند هبل فضربها القيم فخرج على عبد الله فقبض ابوه على يده واخذ الشفرة واقبل الى أساف نائلة بين الصفا والمروة لينحره حيث تنحر النسائك فقام اليه سادة قريش وقالوا لا تذبحه ولئن فعلت هذا لا يزال الرجل ياتي بابنه فيذبحه وتكون سنه واشارت عليه الكاهنة بخيبر ان يقرع بين ابنه وبين ما يدفعون دية للواحد منهم من الابل وهو عشرة فقالت له : ارجع الى بلدك وقرب ولدك ثم قرب عشرة من الابل ثم اضرب عليه وعليها قدحاً فان خرجت على صاحبه فزد في الابل ثم اضرب ثانية . وهكذا حتى يرضى ربك فاذا خرجت على الابل فانحرها فقد رضي ربك وتخلص ابنك وضرب بالقداح الى ان بلغت الابل مئه فنحرها (٣) وازداد تعلقه بابنه الحبيب ولما جاء ابرهه الى الكعبة بفيله ورده الله ابتهج عبد المطلب اعظم الابتهاج واهتبل ذلك الحين فرصة للاحتفال بزواج ابنه الحبيب فاخذ يختار له النساء حتى اتي وهب بن عبد مناف بن زهرة وهو يومئذ سيد بني زهرة نسباً وشرفاً فخطب اليه وتزوج عبد الله آمنة ابنة وهب وهي يومئذ افضل نساء عصرها حسباً وموضعاً . وكان ذلك في المدينة في آب (٥٧٠ للميلاد) وهي السنة المعروفة بعام الفيل ولكن عبد الله لم يلبث طويلا بعد زواجه وقد اختلفت الروايات في ذلك فقيل انه بعد شهرين وقيل انه مات بعد

(١) انظر تفاصيل القصة وما قيل منها من اخبار ابن هشام ١ ، ١٤٢ و المواهب اللدنية ١ ، ٢٢ والروض الانف
(٢) الروض الانف ١ ، ١١٣ .
(٣) نظر المواهب اللدنية ١ ، ٢٣ والروض الانف ١ ، ٧٨ والسيرة الحلبية ٣ ، ٥٣٥

سبعة اشهر وقيل غير ذلك (١) ومهما يكن من شيءٌ فان السيدة آمنة وضعت طفلها صبيحة يوم الاثنين التاسع من ربيع الاول المصادف لليوم العشرين من نيسان (٥٧١) فلما وضعته امه ارسلت الى جده أن قد ولدت لك غلاماً فاته فانظر اليه فاتاه ونظر اليه فاخذه ودخل به الكعبة فقام يدعو الله ويشكره على ما اعطاه ثم خرج به الى امه فدفعه اليها وسماه محمداً ثم استرضعه في بني سعد واعطاه لحليمة بنت ابي ذؤيب السعدية فاحبه وعنيت به وكانت تلاعبه وترقصه ومن مأثور قولها فيه :

يا رب اذ اعطيته فأبقه واعله الى العلا وارقه وادحض اباطيل العدى بحقه (٢)

فلما مضت عليه سنتان جاءت به حليمة الى امه فقالت لها : لو تركت ابني حتى يغلظ فأنا أخشى عليه وباء مكة ولم تزل بها حتى ردته معها فرجعت به وبقي عندها الى أن بلغ خمس سنوات وشهراً (٣) قالت حليمة : وكان يشب شباباً لايشبه الغلمان (٤) ولما بلغ ست سنين خرجت به امه الى اخواله بني عديٌ بن النجار بالمدينة تزورهم ومعه ام ايمن حاضنته فنزلت به (دار التبابعة) فاقامت به عندهم شهراً ثم رجعت به فلما كانت في طريقها الى مكة هلكت بالأبواء فكفله جده ورعاه وهذبه احسن تهذيب ولما احس بدنو أجله – وكان لمحمد ثماني أعوام – اوصى ابناءه به وبخاصة ابا طالب ومما قاله في وصيته :

اوصيك يا عبد المناف بعدي بموتم بعد أبيه فرد فأرقه وهو ضجيع المهد (٥)

ولما مات عبد المطلب في السنة الثامنة لعام الفيل ارتجت مكة لفقده واكثر الشعراء من رثائه وتعديد مناقبة وفدح المصاب بفقده (٦) واجمع ابناؤه ووجوه قريش على إسناد السقاية وهي أجل رئاسات قريش الى ابنه العباس وهو يومئذ أحدث ابنائه ، كما عهدوا بكفالة ابن اخيهم عبد الله الى اخيهم ابي طالب فتولى امر تربية محمد وتهذيبه والعطف عليه حتى ألفه محمد وأصبح لا يطيق مفارقته ويذكر الرواة ان ابا طالب أراد في السنة التاسعة لعام الفيل أن يخرج للاكتساب

---

(١) انظر المواهب اللدنية ١ ، ٢٧
(٢) انظر المواهب اللدنية ١ ، ٣٧
(٣) الروض الانف ١ ، ١١١
(٤) المواهب ١ ، ٣٧
(٥) الروض الانف ١ ، ١٠٧
(٦) الروض الانف ١ ، ١١٣

والتجارة وأحس محمد بأن عمه وكافله يريد ان يبتعد عنه فتعلق به والح عليه في الذهاب معه فأخذه في رحلة الى الشام ويقال إن الركب لما بلغ بصرى الشام ونزلوا بصرى بقرب صومعة راهب اسمه بحيرا رأى محمداً فتوسم فيه الخير ودعا له واوصى عمه به (١) فاشتد حرص ابي طالب على ابن اخيه واصبح لا يفارقه الى ان عاد من رحلته وكان محمد يشب ويترعرع وهو متخلق بأفضل الاخلاق متصف بانبل السجايا بعيد عن اوضار الجاهلية ، ويجمع الرواة والمؤرخون على آنه اشترك في هذه الفترة من عمره بحادثتين (أولاهما) شهود حلف الفصول الذي عقدته قريش بينها على نصرة كل مظلوم بمكة (وثانيها) خروجه مع اعامه في حرب الفجار التي وقعت بين قبائل قريش وكنانة وبين قيس وعيلان (٢) وقد كان محمد يذكر حرب الفجار ويقول : « كنت انبل على أعامي » أي انه كان يرد عنهم سهام الأعداء . كما كان يذكر حلف الفصول ويقول لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما احب ان لي حمر النعم ولو دعيت اليه في الاسلام لأجبت – اي لما كان عليه ذلك الحلف من المبادئ الانسانية السامية والاخلاق الرصينة .

وبعد فهذه لمحة عن بيئة محمد وشيء عن طفولته وهي كما ترى بيئة رفيعة رضية وطفولة طاهرة مرضية

الفصل الثاني : في سيرة محمد (ص) قبل البعثة

نشأ الطفل النبيل محمد في تلك البيئة النبيلة متحلياً بالاخلاق الفاضلة ، والسجايا العربية الشريفة والمزايا القدسية الحسنة ، فلما ادرك سن البلوغ ظهرت كمالاته ففحص ما حوله ودقق فيما كان عليه قومه فرأى بعقله السديد أن العرب في جهالة جهلاء وانهم قد ابتعدوا عن الدين الحنيفي القويم وسلكوا مسالك الزيغ والضلال بما اشركوا مع الله وما افسدوا من شعائر دين الله على أنه قد رأى فيما كان عليه اباؤه من حلم ونبل واخلاق وعقل شيئاً من ديانة ابراهيم وابنه اساعيل فاعجبته وتمسك بها .

---

(١) انظر تفاصيل القصة في الروض الانف ١ ، ١١٨ والطبري ٢ ، ١٩٥

(٢) انظر سيرة ابن هشام والروض الانف ١ ، ١٢٠

ثم رأى أن في العرب من سكان الحجاز نفراً قد نفروا عن الإشراك بالله وتخلّوا عن التقاليد الوثنية إما الى النصرانية او اليهودية او الى الحنيفيّة فأعجبه ذلك وأخذ يلتمس الحقيقة ويبحث عن الطريق السوي ولكنا لا نعرف بوجه يقين ما كانت عليه حقيقة أمره في تلك الفترة من حياته ، وعلى أن هناك بعض آيات قرآنيه نستطيع أن نفهم منها ما كانت عليه نفسه في تلك الفترات من عُمره من التفتيش عن دين الله والاهتداء الى الصراط المستقيم كقوله تعالى : « قل اني هداني ربي الى الصراط المستقيم ديناً قيماً ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ، قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك امرت وأنا اول المسلمين» (سورة الأنعام ١٦١ ، ١٦٣) ولم يكن عمل محمد هذا بدعاً فقد تواردت الاخبار في القرآن والسنة والشعر الجاهلي وكتب السيرة عن جماعات من العرب في مكة ويثرب والطائف وسائر الحجاز والجزيرة تخلوا عن الشرك وقدسوا الله ووحدوه واتبعوا ما بقي من ديانة ابراهيم او ما ظنوه من بقايا ديانة ابراهيم : « ان ابراهيم كان امة قانتاً لله حنيفاً ولم يكن من المشركين . شاكراً لانعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم وآتيناه في الدنيا حسنة وانه في الاخرة لمن الصالحين ثم آوحينا اليه ان يتبع ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين (سورة النحل آية ١٢٠ – ١٢٣) .

ولم نعثر فيما بين أيدينا من نصوص قرآنية وتاريخية وشعرية على شيء يبين كيف كان يتعبد محمداً او كيف كان يقضي أوقاته في التحنث فهل كان يمارس الطقوس الدينية التي كان يمارسها العرب من السجود امام الكعبة أو القيام بطقوس الحج أوما الى ذلك ؟ وهل كان يجاري قومه في القيام ببعض الشعائر الدينية الاخرى مما عرفناه سابقاً ! ، الحق أن معلوماتنا في هذا الصدد قليلة جداً ولا نرى ما رآه الاستاذ عزة دروزة في كتابه القيم (سيرة الرسول) حيث يقول : « أن ليس في القرآن ما يمكن الاستدلال به على كيفية تعبد النبي (ص) لربه قبل البعثة ولقد استدللنا في كتابنا (عصر النبي) وبيئته قبل البعثة (ص) على أن اهل هذه البيئة من العزب كانوا يعرفون أن الصلاة مظهر من مظاهر العبادة لله او الههم وأنهم كانوا يقومون بصلاة تعبدية وأن حالات الركوع والسجود كانت معروفة وممارسة ككيفيات تعبدية عند العرب والكتابيين وعند العزب امام الكعبة بنوع خاص وبناء على هذا فاننا نستطيع أن نقرر ان النبي (ص) كان يعرف هذه الكيفيات وأنه كان يمارسها جهراً عند

الكعبة وفي صلواته كعمليات تعبدية قبل بعثته لله وحده » (١) ولا أدري حجة الاستاذ في هذا القول فان أحداً ممن كتب في سيرة الرسول من القدامى الموثوق باقوالهم لم يذكر شيئاً من كيفية تعبد محمد قبل البعثة ، والقرآن الكريم على الرغم من تقصيه لاحوال النبي لم يشر الى شيء من هذا القبيل كما رأينا وانما ذكر أنه كان يتطلب الهداية من ربه الى أن هداه الى الصراط المستقيم دين ابيه ابراهيم ، على أنهم رووا أن قريشاً كانت تصوم يوم عاشوراء وأن النبي كان يصومه وهو يوم تجديد أستار الكعبة .

وهنا امور لابد من الاشارة اليها وهي تتعلق بمعرفة النبي القراءه والكتابة وبعلمه وثقافته واطلاعه على ديانات الاقدمين وما الى ذلك .

كتابة النبي وأميته :

يذهب جمهور المسلمين من علماء دين ومؤرخين إلى وصف النبي بالامية ونفي اكتسابه العلوم وتوكيد ذلك والاصرار عليه تصحيحاً لجلال نبوته وتفخيماً لحركته ظناً منهم أن أمية النبي وجهله للكتابة والقراءة يرفع من قدره وأن القول بكتابته يحط من قدره وسنعرض فيما يلي لبيان هذا الامر حسبما توصلنا اليه ،

يستند القائلون (بامية النبي) (ص) على الآية القائلة (وما كنت تتلو قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون (سورة العنكبوت آية ٤٨) والآية القائلة (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا) (سورة الفرقان آية ٥) اما الآية الاولى فهي في أن النبي كان قبل البعثة النبوية لا يقرأ ولا يخط واما الآية الثانية فتقول كذلك باميته وأنه كان يستكتب بعض القصص وأنها كانت تملى عليه فيستمع الى من يتلوها صبحاً ومساء حتى يحفظها ثم يقصها زاعماً أن الله أوحاها اليه (١) وليس في القرآن الكريم او كتب السنة الصحيحة حجة على اميته أقوى من هاتين الآيتين وما يقال من أن هناك اية ثالثة تؤيد ذلك وهي وصف الله له (بالنبي الامي) في سورة الاعراف ١٥٧ فقول مردود لأن كلمة (الامي) يراد بها في

---

(١) (سيرة الرسول) ١ ، ٣٣ .

(٢) انظر تفسير الطبري والكشاف لسورة الفرقان

القرآن الكريم من لم يكن كتابياً اي يهودياً او نصرانياً ذا كتاب . (والاميون) في القرآن هم يقابلون (أهل الكتاب) ففي سورة آل عمران (وقل للذين اوتوا الكتاب والاميين أأسلمتم . فان أسلموا فقد اهتدوا) قال ابن جزيز الطبري في تفسيرها : قل يا محمد للذين اوتوا الكتاب من اليهود والنصارى والاميين الذين لا كتاب لهم من مشركي العزب أأسلمتم .. ومثلها قوله تعالى (بعث في الاميين رسولا) (سورة الجمعة) وقوله (ليس علينا في الاميين سبيل) (آل عمران ٧٥) .. على ان في القرآن آية واحدة يفهم منها أن المراد بالاميين هم الذين لا يقروؤن ولا يكتبون او الضعفاء في القراءة والكتابة وهي آية (البقرة ٧٨) (ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب).

وبعد فاذا صح ان (النبي الامي) أنه لم يكن من اهل الكتاب وهذا أمر لاشك فيه لم يبق هناك دليل يمنع من وصف النبي بأنه كان يكتب ويقرأ وخصوصاً بعد الهجرة تماشياً مع آية العنكبوت فليس من المستبعد ان يكون محمد قد عرف شيئاً من الكتابة والقراءة بعد البعثة او الهجرة فقد وردت عدة شواهد في كتب السيرة والحديث تفيد انه كان يكتب ويقرأ شيئاً قليلا فقد اجمع المؤرخون ورجال السيرة على أنه لما عقد مع كبار قريش صلح الحديبية دعا عليا كما في صحيح مسلم وقال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال زعيم قريش سهيل بن عمرو بن عبد شمس (١) : لا اعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم فقال اكتب فكتبها ثم قال اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ، فقال سهيل . لو شهدت انك رسول لما قاتلتك ولكن اكتب اسمك واسم ابيك فقال محمد لعباس : امح محمد رسول الله قال لا والله لا أمحوك فأخذ رسول الله الكتاب فكتب : ابن عبد الله (٢) وروى ابن ابي شيبة عن عبد الله بن عتيبة بن مسعود قال : ما مات النبي (ص) حتى كتب وقرأ ، قال عجالة فذكرت ذلك للشافعي فقال : صدق ، سمعنا قوماً يذكرون ذلك (٣) . وروى الذهبي في تذكرة الحفاظ في ترجمة ان منده بسنده الى عوف بن عبد الله بن عتيبة عن ابيه قال : « ما مات النبي (ص) حتى قرأ وكتب (٤) وروى البخاري في

---

(١) كان خطيب قريش واحد ساداتها اسره المسلمون يوم بدر واسلم بعد وكان عمر يخشى مواقفه الخطابية مات بالطاعون بدمشق سنة ١٨

(٢) التراتيب الادارية – ١ ، ١٧٣ وصحيح مسلم ٥ ، ١٧٤

(٣) تذكرة الحفاظ ٢ ، ٣٥ و التراتيب الادارية ١ ، ١٧٣

(٤) صحيح البخاري طبع بولاق ٥ ، ١٤١

باب عمرة القضاء : « فأخذ رسول الله الكتاب وليس يحسن فكتب هذا ما قاضى محمد بن عبد الله (١) »

فنحن نرى من أقوال البخاري ومسلم في صحيحهما وابن ابي شيبة في مسنده والذهبي في تذكرته ان النبي (ص) كان يكتب وقد بحث هذه القضية كثير من ائمة المؤلفين القدامى وناقشوها ولم يجدوا في القول بها ما يحط من قدر النبي .

ومن أقدم من بحث في أمر (كتابة النبي) الامام المؤلف المؤرخ المحدث الراوية عمر بن شبة بن عبيد النميري البصري (٢٦٢) فقد ألف كتاباً « في الكتاب » ذكر فيه هذه القضية وقال : كتب النبي (ص) بيده يوم الحديبية (٢) . ثم جاء الامام ابو الوليد سليمان بن خلف الباجي الاندلسي المالكي الفقيه المحدث (٤٧٤) فجزم بأنه (ص) كان يكتب وقد حمل عليه بسبب ذلك جماعات من الفقهاء حتى ان بعضهم كفره قال بزهان الدين بن فرحون في الديباج المذهب : ان الذي انكر على الباجي وكفره هو ابو بكر بن الصائغ الزاهد وتكلم في ذلك من لم يفهم الكلام حتى أطلقوا عليه اللعن فلما رأى ذلك الباجي الف رسالته المسماة « بتحقيق المذهب » بين فيها المسألة لمن يفهمها وأنها لا تقدح في المعجزة كما لا تقدح القراءة في ذلك فوافقه أهل التحقيق بأسرار العلم وكتب بها لشيوخ صقلية فانكروا على ابن الصائغ ووافقوا ابا الوليد على ما ذكره (٣) . وقال ابن التلمساني في شرح الشفاء الشريف بعد ذكر مذهب ابي الوليد الباجي : وصوب أهل الحق مقالته وأنه لا يقدح في المعجزة كونه كتب مرة . وقد الف الفقيه الزاهد ابو محمد عبد الله بن منصور المعاقري جزءاً انتصر فيه لابن الصائغ ورد على الباجي (٤) .

وجاء القاضي الامام ابو بكر محمد بن عبد الله بن محمد المعافري المشهور بابن العربي الاشبيلي المحدث الفقيه الأديب (٥٤٣) فذكر في كتابه (سراج المريدين) حين تكلم على (الغربة) وقال . واشد انواعها فقد النظير وعدم المساعد والاضطرار الى مصاحبة الجاهل وذكر بقيّ بن مخلّد ومحسن بن موهب ومالقيا من آهل بلدهما بعد الرجوع من الرحلة حسداً على ما رجعا به ثم قال .. وهذا ابو الوليد الباجي رحل

(١) تذكرة الحفاظ ٢ ، ٣٥
(٢) راجع تفصيل ذلك في التراتيب الادارية ١ ، ١٧٣ — ١٧٧
(٣) الديباج المذهب ص : ١٢٣
(٤) التراتيب الادارية للكتاني ١ ، ١٧٣ — ١٧٧

وابعد وجلب علماً جماً وقرئ عليه البخاري وفيه ان النبي محا وكتب فقيل له : على من يعود قوله (وكتب) فقال على النبي . فقيل له : وكتب بيده ، فقال نعم : الاترونه يقول في الحديث « فأخذ رسول الله (ص) الكتاب وليس يحسن الكتابة فكتب (هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله) » فقوّلوا عليه وحملوا كل تكذيب وتعطيل عليه ، وانتدب جاهل من المقرئين — فأخبرني ابو محمد عن ابن ابي عصام — بالمسجد الاقصى قال رأيته يصيح في المسجد الجامع ويعان بالزندقة اليه ، بيد أن الامير كان متشبثاً فدعا بالفقهاء فاتفقوا على أن هذا القول كفر فاستظهر الباجي ببعض الحجة في ذلك . وقال للأمير : هؤلاء جهلة ولكن اكتب الى علماء الافاق فكتب الى افريقية وصقلية فجاء الجواب : أن يكتب بعد أميته فيكون ذلك من معجزته ، لا يطعن أحد بذلك عليه لانهم تحققوا اميته ثم شاهدوا معجزته فوقفوا ولم يطعنوا (١) ثم جاء الامام ابو الفرج ابن الجوزي (٥٩٧) فقال في كتابه (المشكل) إن إطلاق يده (ص) بالكتابة ولم يحسنها كالمعجزة ولا ينافي هذا كونه امياً لا يحسن الكتابة لانه ما حرك يده تحريك من يحسن الكتابة إنما حركها فجاء المكتوب (٢) .

ثم جاء الحافظ الحجة الامام عمر بن الحسن ابن دحية الكلبي الأديب الكاتب المحدث (٦٣٣) فقال بذلك ونقله عنه قطب الدين محمد بن محمد الخضيري محدث الشام (٨٩٤) وقال : إن جماعة من العلماء وافقوه على ذلك فيهم شيخه ابوزر الهروي وابو الفتح النيسابوري وآخرون من علماء افريقية (٣) . ثم جاء الامام المحدث الفقيه الحجة مؤرخ الاسلام محمد بن احمد الذهبي (٧٤٨) وتعرض لهذه القضية فقال في ترجمته ابي الوليد الباجي : إن الباجي لما الف رسالته التي بين فيها ان ذلك — اي كون النبي كان كاتباً — غير قادح في المعجزة رجع عنها جماعة ، ثم قال : ما كل من عرف ان يكتب اسمه فقط بخارج عن كونه امياً لأنه لا يسمى كاتباً وجماعة من الملوك قد أدمنوا على كتابة العلامة — اي توقيعهم واشارات ملكهم — وهم اميون والحكم للغلبة لا للصورة النادرة فقد قال عليه السلام إنا امة امية اي اكثرهم كذلك لندور الكتابة في الصحابة وقال تعالى (هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم) (٤)

(١) نقل هذه العبارة السيد الكتاني في التراتيب الادارية ١ ، ١٧٤ وعلق عليها بقوله (انتهى كلام ابن العربي ومن نسخة عندي عليها خطه نقلت)

(٢) التراتيب ١ ، ١٧٥

(٣) انظر التراتيب الادارية ١ ، ١٧٣

(٤) تذكرة الحفاظ ص ٢ — ٣٥ .

وقال في ترجمة الحافظ ابن منده : إنه روى بسنده الى عوف بن عبد الله بن عتيبة عن ابيه قال (ما مات النبي حتى قرأ وكتب) ثم علق على هذا الحديث بقوله : قلت وما المانع من جواز تعلم النبي (ص) يسير الكتابة بعد أن كان امياً لايدري ما الكتابة فلعله لكثرة ما املى من كتاب الوحي وكتاب السنن والكتب الى الملوك هذه عرف من الخط وفهمه وكتب الكلمة والكلمتين كما كتب اسمه الشريف يوم الحديبية (محمد بن عبد الله) وليست كتابته لهذا القدر اليسير مما يخرجه عن كونه امياً ككثير من الملوك امين يكتبون العلامة (١) وقال ابو عيسى المهدي بن احمد الفاسي في كتابه (سمط الجوهر الفاخر في مفاخر سيد الاوائل الاواخر) : كتب (ص) بيده كتباً لأهل الاسلام في الشرائع والاحكام منها كتابه (ص) في الصدقات كان عند ابي بكر ، وكتابه (ص) في نصاب الزكاة وغيرها الذي كان عند عمر ، وكتابه (ص) الى أهل اليمن في أنواع من الفقه وابواب مختلفة وهو كتاب جليل احتج الفقهاء كلهم بما فيه من مقادير الديات (٢) وقال الامام عبد الله بن الحسن بن احمد القرطبي المحدث القارئ المفسر (٦١١) في مختصره عن شرح البخارى عند حديث (عمرة القضاء) قوله فأخذ الكتاب فكتب (ظاهر قوي في أنه عليه السلام كتب بيده وقد أنكر قوم تمسكاً بقوله تعالى) وما كنت تتلو الخ ..(قال ولا نكرة فيه الخط المنتقي الخط المكتسب عن التعليم وهذا خط خارق للعادة أجراه الله على أنامل النبي مع بقائه لايحسن الكتابة المكتسبة وهذا زيادة في صحة نبوته(٣)وقال الشهاب احمد بن محمد الخفاجي قاضي القضاة الاديب العلامة (١٠٦٩) في شرح الشفاء بعد أن لخص ابن العربي السابق علق عليه بقوله : ورأيت في بعض الكتب أنه مما يدل على ذلك — اي على معرفته الكتابة — أنه (ص) قال لكاتبه طول السينات ، وقوله تعالى (وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك (فقوله) من قبله) يدل على انه (ص) بعد ذلك كان يكتب نادراً . (٤)

وعقد السيد عبد الحي الكتاني فصلا في كتابه التراتيب الادارية النفيس الذي اعتمدنا عليه كثيراً من فصول هذه البحوث ، عنونه بقوله « هل كتب عليه السلام بنفسه

---

(١) تذكرة الحفاظ ص ٢—٣٥

(٢) نقله عنه السيد الكتاني في التراتيب الادارية ١—١٧٧ و ٢—٢٥٠

(٣) انظر التراتيب الأدارية للسيد الكتاني ١—١٧٦

(٤) شرح الشفاء للخفاجي ٢—٢٢٧ الطبعة الاولى

شيئاً وأمضى بعد كتبه بيمينه الشريفة أم لا (١) وبعد أن أورد أكثر النصوص السابقة وأيد وجهة نظر القائلين بأنه (ص) كان يكتب ويقرأ وأن ذلك لا يطعن في معجزاته (ص) وأنه يرى أن مذهب الذهبي هو أحسن المذاهب وقد علق عليه بعد أن اورده بمانصه : كلام الذهبي وهو وجيه لاغبار عليه .. وما أشار اليه الذهبي أقوى صدمة للمعارضين من كون كتابته (ص) كانت معجزة ، وقال بعد أن أورد كلام القرطبي : قلت أحسن منه ما سبق عن الذهبي في ترجمة ابن بنده ثم قال الكتاني : ووقفت في المدينة المنورة على رسالة حافلة للعلامة المحقق الشمس محمد بن عبدالرسول البزرنجي الشافعي المدني في اثبات الكتابة والقراءة لرسول الله (ص) ولم يتيسر لي تلخيصها . وعندي جزء للفقيه الزاهد محمد عبد الله بن مفوّز المعافري في نحو كراسة عنوانه (جزء فيه التحرير من ترك الواضحة والتنبية على غلط القائل (كتب) في يوم الحديبية النبي الامي (وفي اخره سماعات لأعلام أندلسين وتونسين وموضوعه الانتصار لابن الصائغ في المسألة والرد على الباجي والله اعلم وسياتي في القسم العاشر عن (سمط الجوهر الفاخر) أنه (ع) كتب عدة كتب بيده الشريفة (٢) واورد الكتاني في الجزء الثاني من كتابه نص كلام صاحب سمط الجوهر كما أوردناه سابقاً . ويمكننا اجمال اقوال الائمة العلماء الذين قالوا إن النبي كان يكتب بما يلي :

أ) أنه (ص) كان يكتب اسمه فقط وهو قول الذهبي

ب) أنه (ص) كان يكتب الكلمة والكلمتين وهو قول الذهبي ايضاً

ج) أنه (ص) كان يكتب ولكنه لا يحسن الكتابة وهو قول ابن الجوزي

د) أنه (ص) كان يكتب ولكن كتابته لا بالتعليم والاكتساب بل معجزة وهو قول القرطبي

هـ) أنه (ص) كان يكتب ولكن ذلك كان نادراً وهو قول الخفاجي

و) أنه (ص) كان يكتب كل شيء ويحسن الكتابة وأنه كتب بيده عدة كتب وهو صاحب سمط الجوهر .

اما المحدثون من المسلمين فقد تحيروا في هذا الأمر وخبطوا فيه خبطاً ظانين

(١) التراتيب الادارية ١-١٧٢ - ١٧٧

(٢) التراتيب الادارية ١-١٧٧

أن البحث في هذا الامر الحرج مخرج للمرء عن دينه مثير للعامة عليه وخير من بحث فيه هو الاستاذ العلامة الصديق محمد عزة دروزة في كتابه (سيرة الرسول) فهو بعد أن أورد آية العنكبوت (٤٨) قال : إنها تضمنت نصاً صريحاً على أن النبي لم يكن يكتب أو يقرأ قبل البعثة .. ثم أورد آية الفرقان فقال وهذا يؤيد أنه كان لا يقرأ ولا يكتب .. وننبه أولا الى أن هاتين الآيتين هما اللتان تفيد ان النبي لم يكن يقرأ او يكتب لا كلمة (الامي) .. إذ أن هذه الكلمة قد استعملت .. بمعنى (غير كتابي (.. وثانياً الى أن آية العنكبوت انما تنفي معرفة القراءة والكتابة عن النبي قبل البعثة ولقد وردت روايات تفيد أنه (ص) كان بعد بعثته يكتب اسمه وأنه محاكتابة معينة بيده في اثناء مفاوضات صلح الحديبية وكتاب عقد الصلح وبقطع النظر عن سند ومضمون تلك الروايات فليس من المستبعد أن يكون قد تعلم القراءة والكتابة بعد بعثته كما أن الآية لا تنفي ذلك غير أن هذا إن كان وقع قد ظل فيما نعتقد في دائرة محدودة لا تتعدى كتابة الاسم او قراءة بعض الجمل لانه لو تعدى هذه الدائرة لاثر في الروايات والاحاديث على الاقل (١) ويتجلى من هذا أن الاستاذ دروزة يميل الى مذهب الذهبي في أن الرسول قد تعلم القراءة والكتابة بعد البعثة لكثرة ما املي واتصل بالكتاب ولكن علمه لم يتجاوز الجملة أو بعض الجمل .

اما المستشرقون فقد بحثوا في الأمر مفصلا وافضل من بحث فيه هو شيخ المستشرقين في هذا القرن وهو البرنس كايتاني فقد ذهب « إلى أنه من غير المعقول أبداً ألا يكون النبي قارئاً وكاتباً وحجة ذلك ما في القرآن من المعارف والعلوم والأخبار ، وأحوال الكتابة والكتاب فمن المستحيل أن يصدر عن رجل امي لا يقرأ ولا يكتب ، وأن فتيان قريش وشبابها من لداته وبيئته وأبناء عمومته وخئولته كانوا يقرؤون ويكتبون وأن الفترة التي كان بها محمد كانت فترة تتجه نحو الثقافة والتكامل العقلي فلا يعقل ان يشب محمد اميا في هذه البيئة . ولكن محمداً اظهاراً لكون حركته حركة الهيه ومعجزة كان يخفي علمه بالكتابة والقراءة ويكتم ذلك على الناس وعن اصدقائه (١) . »

اما الشق الاول من كلام المستشرق كايتاني فلا غبار عليه ولكنا نخالفه في الشق الثاني وهو دعواه أن النبي كان يكتم امره ويتظاهر بالامية ليكون ذلك أوقع في

---

(١) سيرة الرسول للاستاذ دروزة ١–٥٤–٤٦

(٢) بحث الخط والكتابة العربية في كتاب (Annali del Islam)

قلوب سامعيه وهوامر يأباه ما أثر عنه صلى الله عليه وسلم من خاق نبيل وصدق متوافر مقطوع به كما يجل عن أن يتصف ذلك (الامين) الذي خبره قومه وعرفوا سمو خلقه ونبل نفسه وصدق حديثه ثم ان سورة العنكبوت لتدل دلالة صريحة على كون النبي امياً لم يتعلم الكتابة كما كان يتعلمها لذاته لان القرآن كان منتشراً بين الناس يقرؤونه ويعونه فلو كان فيهم من عرف أن محمداً قد تعلم معه أو فيهم ما قد يدل على تعلمه الكتابة والقراءة لأنكر عليه مضمون تلك الآية ولكن شيئاً من ذلك لم يكن .

وصفوة القول في هذه القضية — وهو الذي نرتئيه — هو أن محمداً كان قبل البعثة لا يقرأ ولا يكتب ولم يوثر عنه انه تعلم في كتاب ولا درس في مدارس ولا لازم شخصاً من لداته أو شيوخه تعلم منه الكتابة والقراءة وانما كان واسع الإدراك ذكياً فطناً لبيباً ، ولما أوحى الله اليه أن يبشر بدينه ويدعو الى تقديسه كثر اختلاطه بالناس من كتاب وقراء في مكة والمدينة اللتين كانتا تعجان بالقراء والكتاب وكان لاملائه على كتابه وقراءاتهم أمامه وتدقيقه في رسائلهم وأوراقهم ووثائقهم وشدة تعمقه في تتبع كل جليل ودقيق وبخاصة في أمر الرسائل ، كما سنرى ذلك مفصلا فيما بعد ، اثر كبير في تعلمه الكتابة والقراءة واحاطته ببعض متعلقاتها ومعرفته ببعض قواعد الخط واصوله ولسنا نرى في هذا أية غضاضة على معجزاته فان العلي القدير قد حباه بمواهب انفرد بها ومزايا كانت موضع الغرابة والعجب والفخر صلى الله عليه وسلم .

٢) **مواهبه وثقافته**: كان لمحمد اطلاع واسع على تاريخ قومه وادابهم ويظهر لنا ذلك مما نجده في كتب السنة من رسائله ومعاهداته ومواثيقه وخطبه وحكمه ومواعظه ، كما تتجلى لنا من مطالعة آثاره فصاحة معجزة ولا غزو فان مواهب محمد (ص) مواهب انفرد بها من بين لداته سواء منهم من كان خطيباً أو حكيماً او شاعراً فقد نشأ في بيت عرف اهله بالعقل الرجيح ، والقول الفصيح ، والحكمة البليغة ، واللهجة الفصيحة ، ثم إنه نشأ في بني سعد ، فقد اجمع كل من كتب عن فصاحته ومواهبه أنه كان ذا اطلاع واسع على لهجات عرب الحجاز وسائر بقاع الجزيرة وكان كل قوم بلهجتهم وفصيح عبارتهم وكان يعيد أقواله ويكرر كلماته ليعقل عنه وكان يكره التشادق والتفاصح والتحلف والتقعر ويقول : « إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها » وكان يكره سجع الكهان المصنوع الثقيل على الاسماع ، اما السجع المستساغ المحبوب المطبوع الصادر عن

السليقة الطبيعية فانه كان يحب قوله وسماعه كما كان يحب الشعر الجيد ويطرب له ويجيز عليه ولما سمع قول لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

طرب له وقال إنها أصدق كلمة قالها شاعر « ولما سمع بعض شعر امير الشعزاء الجاهلين وسيد فحولهم امرئ القيس ، قال انه صاحب لواء الشعر ولكنه كان لا يرضى عن عهره وفسقه في شعره فيقول : إنه صاحب لواء الشعراء إلى النار ، وكان يطرب لشعراء الاسلام الداعين الى محاسن الاخلاق ومكارم الشيم ، والمنافحين عن الدين الجديد أمثال حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكان يستحسن أشعارهم ويردد جميل اقوالهم ويدرك مواطن الفصاحة ومواضع سحر القول جماله . ولا عجب فانه أفصح العرب وصاحب جوامع الكلم ومالك اعنة القول ، حسن المنطق ، سليم اللهجة ، خال من عيوب اللفظ ، بارع الاشارة ، وقد وصفت السيدة عائشة طريقه في القول فقالت : ما كان رسول الله (ص) يسرد كسردكم هذا ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل . يحفظه من يجلس اليه .»

وقد قضى محمد سني شبابه وهو يفكر فيما حوله ويدرس هذا الكون في أرضه وسمائه وحيوانه ، واناسه وشجره وزهره ، فيحلل كل شيء يراه ، ويستخلص منه العبر .

اما اطلاع محمد على أخبار النبوات السابقة فلا شك في أنه قد عرفه مما كان يسمعه من أقوال اخبار اليهود او متهودة العرب وحنفائهم أما أنه كان يتدارس ذلك ويتلقاه كما زعم بعضهم حتى في زمن النبي فأمر لم يثبت وقد رد القرآن على هؤلاء فقال : (ولقد نعلم انهم يقولون أنما يعلمه بشر ، لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين سورة النمل آية ١٠٣) فقد زعم بعض مشركي قريش أن محمداً إنما كان يتردد على بعض الحدادين النصارى في مكة واسمه (جبرا) وأنه كان يتعلم منه ويطلع على اخبار النبوات السابقة فردت عليهم الآية وهي وان لم تنكر التردد على الرجل أصلا وإنما انكرت عليهم أن يقولوا أن محمداً كان يتعلم من هذا الاعجمي أن ما يجيء به عربي مبين . وقد أورد المفسرون في تأويل هذه الآية أن محمداً كان يتردد قبل البعثة الى رجل نصراني فيسمع منه وليس هذا بالغريب ولا بالمستحيل ولا بالطاعن في النبوة ، ومثل هذه الآية آية الفرقان « وقال الذين كفروا إن هذا

الا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً » والآية لا تنفي كون محمد قد أتصل قبل البعثة او بعدها بفرد او جماعة آخرين تذاكر واياهم ببعض امور الحياة الاخرى والدين امثال سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي وابي بكر الصديق وعثمان وانما تنفي مزاعم الكفار أن ما جاء به محمد هو افك وباطل .

٣) **شخصيته** : كان محمد (ص) فتى عربياً اصيلا لم يطعن أحد في حسبه أو نسبه وكانت له اسرة محترمة وجيهة من اعمام وعمات وأخوال وخالات وابناء عمومة وخئولة وقد نشأ منشأ متواضعاً في حضانة رحيمة على يد امه وجده وعمه — رضي الله عنهم — وكان منذ نعومة اظفاره رهيف الاحساس يتطلع الى ما يتطلع اليه لذاته وقد أفاد معارف كثيرة في العلم من اتصاله ببعض النبهاء الاجانب كسلمان وبلال وصهيب وجبرا او العرب أمثال ابي بكر الصديق وعثمان وسعد وسعيد وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وابي عبيدة وغيرهم من اصدقائه في الجاهلية واوائل المسلمين وكلهم عرف عنه الفضل والعقل وليس في هذا اي مطعن عليه فان بشر وهذه سنة البشر وقد اشتهر محمد (ص) في قومه قبل البعثة بالامانة والعقل والصدق وعدم الفضول وحب الخير والبعد عن مساوئ الاخلاق وكانوا يلقبونه (بالأمين) وقد فرحوا لما رأوه مقبلا عليهم حين اختلفوا في يوم بناء الكعبة في من يضع (الحجر الاسود) فحل المشكلة احسن حل ووضعه في مكانه . وفي القرآن والشعر الاسلامي شواهد كثيرة تنطق وتنطق بسمو شخصيته وتعدد مزاياه وفضائله وتعطينا صورة نضرة عنه تهدم كل ما بناه المستشرقون والمبشرون من التهجم عليه ووصفه بمرذول السجايا قبل الطعن في شرفه واصالته ووصفه بالجنون والسفه والصرعة وما الى ذلك (١) على الرغم مما كان عليه من الخلق العظيم والامانة والصدق والزهد والثقافة في الله ، والاخلاق التعبدية (وانك لعلى خلق عظيم ٤ انعام) الله اعلم حيث يجعل رسالته انعام — ١٢٤) (ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك سورة آل عمران آية ١٥٩)(ولقد جائكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم توبة ١٢٨) ولم يكن محمد على شيء من عنجهية الشباب المغرورين بجاههم ومكانتهم بل كان متواضعاً متفانياً في دعوته ليسهل كل شيء في سبيلها ويستوي عنده الغنى والفقر والجوع والشبع والنوم والسهر في الوصول اليها . وكان ناصراً

(١) انظر كايتاني في (Annali del Islam) وغولد زهير في العقيدة ص ٢٨٢.

الحق صابراً على المكروه آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر داعياً بالموعظة . مسالماً وقت السلم محارباً وقت الحرب وصفوة القول ان شخصيته تتحلى بما اودعه الله في القرآن من السجايا النبيلة والصفات الكاملة ولقد صدقت عائشة حينما سئلت عن اخلاق النبي وشخصيته وما كان يتحلى به فقالت . انها كانت اخلاق القرآن وهو جواب صادق .

الفصل الثالث : في الحوادث الكبرى قبل البعثة . زواجه من السيدة خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي .

كان محمد في شبابه يعيش في كنف عمه ابي طالب وربما رعى الغنم لبعض أهل مكة على قراريط كما ذكر ذلك البخاري وابن اسحق (١) ولما جاوز العشرين بعثت اليه خديجة بنت خويلد – التي رأت فيه الامانة والثقة – غلامها ميسرة فعرضت عليه أن يخرج في مالها تاجراً في رحلة الصيف على ان تعطيه أفضل ما كانت تعطي التجار ، وكانت امرأة تاجرة ذات مال وشرف تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم اياه بشيء تجعله لهم ، فقبل محمد وخرج سنة ٥٩٤ م ومعه ميسرة حتى قدم الشام فتاجر ثم قفل الى مكة فباعت ما جاء به وربحت ثم إنها بعثت اليه قائلة : يا ابن عم إني قد رغبت فيك لقرابتك وسطتك في قومك ، وأمانتك وحسن خلقك ، وصدق حديثك فانشرح صدره لذلك لما كانت عليه من الشرف والنبل والجاه . ولدت خديجة في أواسط القرن السادس وكان لها لما خطبها محمد نحو من اربعين سنة ، وهي من اعرق اسر قريش شرفاً واكثرهم مالا ، فأبوها خويلد كان ممن قاد قريشاً في حرب الفجار ، وأمها فاطمة بنت زائدة بن الاصم من بني عامر بن لؤى ، ويذكر الذهبي أن جدها عمرو بن خنثر المزني كان من ابطال الجاهلية وشيوخها ،وعمها عمرو بن اسد كان من سادات قومه ووجوههم واثريائهم ، واخوها العوام ابن خويلد كان من عقلاء قريش ، وأما جدها وهو والد الزبير بن العوام وابناء عمومتها حكيم بن حزام ، وورقة بن نوفل ، وقتيلة بنت نوفل ، فاما حكيم فقد كان من انبل الرجال واكرمهم

---

(١) ابن هشام والروض الانف ١–١١٢

وكان له موقف مجيد يوم حاصرت قريش بني هاشم في الشعب فانه لم يتأخر عن خدمتهم ومعونتهم بكل ما يستطيع ، وورقة بن نوفل كان من الحنفاء والعقلاء في الجاهلية قرأ التوراة والانجيل وكتب العبرانية ، وقتيلة اخته كانت نبيلة عاقلة نظرت في الكتب القديمة ودرستها .

تزوجت خديجة قبل محمد رجلين اولهما النباش بن ابي زرارة لم يلبث أن مات فتزوجت بعده عتيق بن عائذ المخزومي (١) وقد ورثت عن ابيها وزوجها مالا كثيراً كانت تستعمله في الاتجار ، ولما عرضت خديجة على محمد الزواج شاور أعمامه فقبلوا وخرج هو وعمه الحمزة حتى أتيا وليها — أباها وفي رواية آخاها — فخطبها اليه ووافق على ذلك فاحتفل القوم بهذا وخطب ابو طالب في ذلك الحفل فقال : « الحمد لله الذي جعلنا من ذرية ابراهيم ، وزرع اسماعيل ضئضيء معد وعنصر مضر وجعلنا حفظة بيته ، وسواس حرمه ، وجعل لنا حرماً محجوجاً وبيتاً آمناً وجعلنا الحكام على الناس ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن برجل الا يرجح عليه فان كان في المال فلا فان المال ظل زائل وأمر حائل ومحمد من قد عرفتم قرابته ، وقد خطب خديجة بنت خويله وبذل لها من الصداق ما آجله وعاجله اثني عشر أوقية ونش (النش نصف أوقية) و (الأوقية أربعون درهماً) وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل » ثم تمت الخطوبة والزواج وحضره رؤساء مضر وشيوخ قريش (٢)

ولما تزوجها نحر جزوراً أو جزورين وأطعم الناس وهي أول وليمة أولمها محمد (٣) وكانت به برة رحيمة وفية تعطف عليه وتحنو وتفديه بمالها وجاهها ، وقد استطاع محمد بجانبها أن يجد السكينة والهدوء وينصرف عن التكسب للمعاش الى التفكير والتحنث ودراسة الكون والتطلع الى السماء ولولاها للقي من دهره عنتاً فقد كانت رضوان الله وسلامه عليها على جانب كبير من الحنان والعطف وقد أحست بنبل قلب محمدها وعظم نفسه فهيأت له الأسباب للهدوء والطمأنينة لما قرأت في عينيه من الاخلاص والايمان وما وجدت في قلبه من سمو الاخلاق والفضل ، وكان هو يقدر فيها هذا الحنو والحب فبادلها حبه وأعجابه ، ولم يكن محمد كسائر رجال

(١) قال في المواهب ١-٢٦٣ : وبعضهم يقدم عتيقاً على النباش

(٢) المواهب اللدنية ١-٥١ والسمط الثمين في مناقب امهات المؤمنين الطبري ص ١١ — ٢٩

(٣) السمط الثمين ص ١٧

العرب فهو فذ في افكاره ، فذ في طعامه . فذ في شرابه ، فذ في حركاته وسكناته وكان لا يفكر مما يفكرون ، ولا يأكل كما يأكلون ، ولا يشرب كما يشربون ، ولا يتحرك كما يتحركون ، كان ميالا الى العزلة . يطيل الانفراد والخلو بنفسه ، بعيداً عن ضوضاء المجتمع المكي الصاخب ، فهيأت له ما يحب ويتمنى ، وكان يشتهي أكلات خاصة من الدباء ، والعسل ، الخزبر ، والثريد ، والخزيرة ، (١) والخبيص والشواء ولحم الدجاج ، والكبد ، والسمك ، والسلق ، والتمر ، والمنقوع باللبن المخلوط بالقثاء (٢) ويكره الثوم ، والبصل ، وكل كريه الرائحة . فتكثر له ما يحب ، وتبعده عما يكره . وكانت تعني بلباسه وطيبه ونظافته .

وقد رأت رغبة محمد في الانزواء والتحنث في غار حراء فكانت تهيئ له ما يحتاج اليه في خلواته الآلهية من زاد وماء كما كانت تتعهده إذا طالت غيبته عنها ، ولكنها كانت رفيقة به لطيفة معه لا تقطع عليه تأملاته ، ولا تكدر صفو تحنثه .

وكما كانت زوجة برة ، وكانت أماً صالحة تعتني بأولادها منه وتحنو عليهم . وقد ولدت له كل اولاده ، ما عدا إبراهيم بن مارية القبطية . فقد رزق منها القاسم فزينب فرقية ففاطمة فأم كلثوم وهؤلاء جميعاً قد ولدتهم قبل الاسلام ثم ولدت له بعد الاسلام عبد الله الطيب وأخاه الطاهر وقد ماتا صغيرين ، اما البنات فقد أدركن الاسلام وتزوجن وهاجرن معه . وقد ضم محمد الى إسرته ابن عمه علي بن أبي طالب براً بعمه أبي طالب وتكريماً لعلي ، وكانت خديجة حفية بابنائها وبناتها تنشئهم أحسن تنشئة ، وتعق للغلام منهم بشاتين وللفتاة بشاة . وتسترضع لهم أحسن المراضع على الطريقة العربية القديمة . (وبعد) فان عظمة هذه السيدة الفاضلة تتحلى في تثبيت قلب محمد بعد الدعوة واعانته على تحمل اعبائها وبخاصة في السنوات الاولى من البعثة حين تألب الناس عليه (ص) فانكره الأقربون وآذاه المشركون فوقفت هي وقفة السيدة الكبيرة العاقلة المفكرة . تمتن فؤاد محمد . وتسكن خاطره بقولها : (والله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم الخ ..) تلك الاقوال الجميلة الجليلة التي سنعرض اليها فيما بعد ، وقد شاطرت هذه السيدة الفاضلة النبي كل ما تحمله في سني الدعوة الاولى من المحن ، وعملت على نصر دين الله ، ولما اشتدت خصومة قريش على النبي وآل البيت الهاشمي وحصروهم في الشعب ومنعوهم من وصول

(١) الخزيرة لحم يقطع صغاراً ويصب عليه الماء فاذا نضج ذر عليه الدقيق

(٢) المواهب ١-٤٠١ وما بعدها

الطعام والماء اليهم أنفقت خديجة كل أموالها في سبيل تأمين معيشتهم وقاست هذه السيدة المرفهة في أواخر عمرها ظروفاً قاسية فأضر ذلك الحصار بجسمها ولم تعش طويلا بعد أن خرج النبي صلى الله عليه وسلم وآل البيت من الشعب ماتت في عاشر رمضان من السنة العاشرة ، لمبعثه (ص) ولها من العمر خمسة وستون عاماً فدفنها الرسول في الحجون وكان كثير البر بها والذكر لها .

(٢) اشتراكه في بنيان الكعبة ووضع الحجر الاسود :

كانت الكعبة اقدس مكان لدى العرب منذ جاهليتهم الأولى توارثوا تقديسها كابراً عن كابر منذ أيام ابراهيم ، ولقد بنيت الكعبة خمس مرات (اولاها) ايام النبي شيت (ص) في العهد الغابر و(الثانية (ايام ابراهيم — وكانت أول امرها رضماً فوق القامة — أي حجارة تتجاوز قليلا طول الانسان ، وقيل إنها كانت تسعة اذرع . وقد استمرت على ذلك الى ما قبل البعثة النبوية بخمس سنوات . و (الثالثة) أيام قريش . قال ابن اسحق اجتمعت قريش قبل مبعث النبي (ص) بخمس سنوات لبنيان الكعبة وكانوا يهمون بذلك ليسقفوها — إذ لم يكن لها سقف من قبل — ولكنهم يهابون ذلك ثم أقدموا عليه ، و (الرابعة) حين احترقت أيام ابن الزبير و (الخامسة (ايام عبد الملك بن مروان . ولما استخلف ابو جعفر المنصور اراد هدمها وبناءها من جديد فقال له مالك ابن انس : أنشدك بالله يا امير المؤمنين أن لا تجعل هذا البيت ملعبة الملوك من بعدك (١) .

اما البناء الذي اشترك فيه محمد (ص) فقد كان في السنة الخامسة والثلاثين من عام الفيل حين رأت قريش ان كنوزها قد سرقت وان اللصوص قد عاثوا فيها لأنها لم تكن مسقوفة ففكروا في سقفها ولكنهم خافوا مغبة ذلك أول الامر ثم قال الحكماء ليس في هذا بأس فأقدموا على هدمها وباشر ذلك الوليد بن المغيرة وآحضروا لها الخشب من سفينة الجأتها الرياح الى ساحل جدة وعهدوا الى نجار قبطي أن يقوم بذلك فأخذ يهيؤه وهم يبنون ، وكان المشرف على ذلك ابو وهب ابن عمرو بن عائذ

---

(١) الروض الانف ١—١٢٧—١٣٠

المخزومي خال النبي وقال لقريش : لا تدخلوا في بنائها من كسبكم الا طيباً حلالاً ولا تدخلوا فيه مهربغيٍ أو بيع رباً ولا مظلمة احد من الناس ، ثم إن قريشاً تجزأت الكعبة فكان شق الباب لبني عبد المناف وزهرة ، وكان ما بين الركن الاسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انضموا اليهم ، وكان ظهر الكعبة لبني جمع وسهم وكان شق الحجر وهو المعروف بالحطيم لبني عبد الدار بن قصي ، وبني أسد بن عبد العزى وبني عديٍّ بن كعب .

قال ابن هشام : ولما أرادوا هدمها قال الوليد بن المغيرة انا أبدؤكم في هدمها فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول : اللهم لم ترع — اللهم إنا نريد الخير . ثم هدم من ناحية الركن فتربص الناس تلك الليلة وقالوا انتظروا فان اصيب لم نهدم شيئاً ورددناها كما كانت وإن لم يصبه شيء فقد رضي الله صنعنا فهدمنا فأصبح الوليد من ليلته غادياً الى عمله فهدم وهدم الناس معه حتى إذا انتهى الهدم بهم الى الأساس أساس ابراهيم أفضوا الى حجارة خضركالاسمنت آخذ بعضها بعضاً (١) ولما شرعوا في البناء وبلغوا موضع الركن اختصموا فيه ، كل قبيلة تريد أن ترفعه الى موضعه حتى تحاوروا وتحالفوا وأعدوا للقتال انفسهم فقربت بنو عبد الدار جفنه مملوءة دماً . وتعاقدوا هم وبنو عديٍّ بن كعب على الموت وأدخلوا ايديهم في الدم ومكثت قريش أربع ليال أو خمساً وهم مختلفون ثم انهم اجتمعوا في المسجد وتشاوروا فقال ابو امية ابن المغيرة بن عبد الله المخزومي وكان أسن قريش : يا معشر قريش اجعلوني بينكم فيم تختلفون فيه إن اول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم ، ففعلوا فكان اول من دخل محمداً فلما رأوه قالوا : هذا الامين رضينا به هذا محمد ، فلما انتهى اليهم واخبروه الخبر قال : هلم الي ثوباً فأتي له فاخذ الركن فوضعه بيده فيه ثم قال : لتأخذ كل قبيلة ناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه بيده ثم بنى عليه فلما فرغوا من البنيان من ذلك قال الزبير بن عبد المطلب قصيدة منها :

فقمنا حاشدين الى بناء	لنا منه القواعد والترابُ
غداة نرفع التأسيس منه	وليس على مسوِّينا ثيابُ
أقر به المليك بني لوئيٍ	فليس لاصله منهم ذهابُ

(١) الروض الانف ١—١٣١

وقد حشدت هناك بنو عديٍّ ومرّة قد تقدمها كلابُ
فبوانا المليك بذاك عزاً وعند الله يلتمس الثواب

وكان بناؤها هذا ثماني عشر ذراعاً وجعلوا لها كسوة من القباطي والبرود .

٣) الوحي :

مقدمة في الوحي والنبوّة . الوحي هو في اللغة الإلهام الغريزي او الاشارة الخفيّة السريعة والالقاء في الروع ، وفي الاصطلاح هو الالهام الذي يقذفه الله في قلب النبي او الرسول ، وقد استعملت هذه الكلمة في القرآن سبعين مرة (تارة) بمعنى الاشارة والقول (فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم أن سبحوا بكرة وعشيا) (سورة مريم ١١٨ (و) تارة (بمعنى الوسوسة) وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من الشياطين والانس والجن يوحي بعضهم إلى بعض) و (تارة) بمعنى الإلهام الغريزي (وأوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً) (سورة النحل آية ٦٨) و (تارة) بمعنى الفزع والروع (وأوحيت إلى الحواريين أن آمنوا) (المائدة) آية ١١١ . و (تارة) بمعنى الإلهام للأنبياء والرسل وهو الاكثر (وأوحي إلي هذا القرآن لانذركم به (الانعام آية ١٩) . ولكن اكثر استعمالاتها في القرآن هو المعنى الأخير اي الالهام للرسل ، ووحى الله يكون بطرق . منها : القذف في القلب ، ومنها إنزال الملائكة كجبريل وغيره رسلا بين الله وبين انبيائه ، ومنها سماع صوت الله لمن يريد بواسطة شيء ما قال تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحياً أو من وراء حجاب او يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء) (الشوري آية ٥١) وجمهور المسلمين يرون أن جبريل الروح الامين كان ينزل الى محمد (ص) فلا يراه احد غيره وقد ورد في بعض الاحاديث انه كان ينزل الى النبي في صورة دحية الكلبي فيراه غير النبي على صورة رجل أو يأتي الى مجلس النبي على صورة رجل ما فيراه الناس جميعاً .

اما كيفية بدء النبوة فقد حدثتنا به السيدة عائشة فقد روى عنها البخاري أن أول ما بدئ رسول الله من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبّب اليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه والتحنث

التحنف والتعبد في الليالي ذات العدد حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال : اقرأ ، قال : ما انا بقارئ ، قال : فأخذني فغطني حتى بلغ بي الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ : فقلت : ما انا بقارئ فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ما انا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة ثم قال (اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق إقرأ وربك الاكرم) فرجع بها رسول الله يرجف فؤاده فدخل على خديجة وأخبرها الخبر وقال : لقد خشيت على نفسي ، فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك ربك ابداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم . وتقري الضيف . وتعين على نوائب الحق . وانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد عبد العزى . ابن عمها وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني . فيكتب من الانجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب وكان شيخاً كبيراً قد عمي . فقالت له خديجة : يا ابن عم اسمع ابن اخيك فقال له ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى . فأخبره رسول الله (ص) خبر ما رأى فقال ورقة : هذا الناموس الأعظم الذي أنزله الله على موسى يا ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك فقال رسول الله (ص) أو مخرجي هم قال : نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزرا ..(١)

وقد كان الرسول يقول عن هذا الوحي إنه ياتيه مرة بعنف مثل صلصلة الجرس ، ومرة بغير عنف فيكلمه كما يكلم الرجل فيعي منه ما يقول . وقالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فينفصل عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً(٢) وهناك أحاديث وأخبار كثيرة بلغت مبلغ التواتر تبين أن النبي كان يأتيه الوحي الالهي فينصرف عن هذا الكون ويصبح في عالم ثان ثم ينفصل عنه الوحي فيملي الرسول على كتاب الوحي ما أوحاه الله إليه ، وقد اختلفت الأقوال في أول ما اوحي به الى محمد (ص) فالقول المشهور أنه اول(سورة العنق) وفي قول آخر إنه (سورة الفاتحة) وقول ثالث انه (سورة الضحى) وفي قول انه (أول سورة المدثر) وفي خامس انه (اول سورة المزمل) ولكن الاشهر هو ما ذكرناه اولا من انه اول (سورة العلق) وعلى هذا جرى المصحف العثماني ومن نقلوا عنه . ثم إن السورة الثانية هي سورة (القلم) والثالثة هي (المزمل) والرابعة هي (المدثر) وعلى هذا جرى إجماع

(١) البخاري باب بدء الوحي

(٢) البخاري باب بدء الوحي .

كافة اصحاب التراتيب والمصاحف ، والخلاف يبدأ بين اصحاب التراتيب عند السورة الخامسة فالأكثر على انها (الفاتحة) وقال ناس بل هي (سورة المسد) وقال آخرون بل هي (سورة التكوير) ونحن اذا أمعنا في هذه السور وجدناها تدور حول الدعوة والانذار والتبشير بالدين الجديد وبما قوبل (ص) من التكذيب والارتياب في دعوته فقد نزلت سور القرآن تحتوي على الردود والحملات الشديدة على المكابرين والوعظ والارشاد للتائهين . ولما سار الرسول شوطاً في دعوته انقطع عنه الوحي فاضطربت نفسه وظن أن ربه ودعه وقلاه فنزلت سورة الضحى بعد فترة قصيرة من الوحي وفيها يخاطبه ربه بقوله « والضحى والليل اذا سجى ما ودعك ربك وما قلى ولا الاخرة خير لك من الاولى ولسوف يعطيك ربك فترضى » ثم تعاقب الوحي في مكة والمدينة .

جدول الخطأ والصواب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٨	١٥	الجريرة	الجزيرة
١٤	٢٢	متوازين	متوازيين
١٦	١	فصقاقص	فصفاقص
١٦	١٨	الأخمر	الأحمر
٢١	١٩	وهو مترله	وهو ما يقال له
٢٥	٥	بالابل المهربة	بالابل المهرية
٢٥	٧	سلطة	سلطنة
٢٥	١٥	حضارت	حضارات
٢٥	٢٠	وما صا فيها	وما صار فيها
٢٦	٩	تيوك	تبوك
٢٧	٦	الحجازة	الحجازي
٢٧	٧	باسمه	باسم
١٧	١٦	دوقة الجندل	دومة الجندل
٢٨	٢٦	خاصرة	حاضرة
٢٩	٩	غنيرة	عنيزة
٣٠	٢٩	كثيرق النخيل	كثيرة النخيل
٣١	١٣	جريرة	جزيرة
٣٢	٢٢	الحهرة	الجهرة
٣٣	٢٢	الاحدود الانهدامي	الأخدود الانهدامي

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣٤	٢٨	سبحة	سبخة
٣٧	١١	واصل	وأجل
٣٧	٢٢	هي مدن	هي أعظم مدن
٣٨	١٩	الممددود	الممدود
٤٠	٤	الآنهار	الأنهار
٤٠	٦	ويرفدة	ويرفده
٤١	١	المتناطق	المناطق
٤٣	٤	والديم	والدليم
٤٧	٢	وادي البتل	وادي النيل
٤٩	٧	وطهطا	وطنطا
٤٩	١٦	بل هي اصل	بل هي أجل
٥١	١	وتقع الجنوب	وتقع في الجنوب
٥١	١٨	دبقلة	دنقلة
٥٧	٢	تاريخاً وآثار	تاريخاً وآثاراً
٥٧	١٣	كيير	كبير
٥٨	٨	قسطنطينية	قسنطينة
٦٠	٢	مغربي	مغربي
٦٠	٣	والاسمت	والاسمنت
٦٠	٤	بثمورها	بتمورها
٦١	١٩	Eney c. Prita.	Encyc. Brita.
٦٩	١٧	النقابيون	النقابون
٧٠	٨	خصيوصية	خصوصية
٧٠	٢٦	وجلودوا	وحددوا
٧١	٥	وسمواً	وسموّ

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٧٣	١٣	استقرار	استقراراً
٧٥	٢	رمادح	رماح
٧٦	٧	اقاص	أقاصي
٧٦	٢٠	خملة	حملة
٧٦	٢١	جيس الفرعوني	الجيش الفوعوني
٧٦	٢٢	ضل	ظل
٨٠	٢٤	المقدومي	المقدوني
٩٢	٢٥	القرآن الكريم سورة (الآية)	القرآن الكريم سورة هود (الآية ٦١ — ٦٦)
١٠٠	٢٣	التوراء	التوراة

فهرس الكتاب

طبع على

مطبعة دار الكتب - بيروت
بناية العازارية